الفصل الرابع والاربعون بعد المئة

الاعراب والعربية واللحن

ولا بد لنا وقد تحدثنا عن لغات العرب وعن العربيـــة الفصحى من التحدث عن (الإعراب) لما له من صلة بها . فأقول الإعراب في تعريف علماء اللغـة : الإبانة والافصاح عن الشيء . يقال للعربـي : أعرب لي أي بـين لي كلامك . وأعرب الكلام وأعرب به بيّنه . روي عن النبي أنه قال : « الثيب تعرب عن نفسها » ، أي تفصح . وفي رواية أخرى : الثيب يعرب عنها لسانها ، والبكر تستأمر في نفسها . وإنما سُمّي الإعراب إعراباً لتبيينه وايضاحه . ومن هنا يقـال للرجل الـــذي أفصح بالكلام : أعرب . ويقال أعرب الأعجمي إعراباً ، أي أفصح وأبان . وعرّبه : علّمه العربية . « وفي حديث الحسن أنه قال له البَتّيُّ : ما تقول في رجل رُعِفَ في الصلاة ؟ فقال الحسن : إن هذا يُعرّب الناس ، وهو يقول رُعِفَ ، أي يعلمهم العربية ، إنما هو رَعُفَ » . وتعرب واستعرب أفصح ، قال الشاعر :

ماذا لقينا من المُستعربين ومن قياسِ نحوِهِمُ هذا الذي ابتدعوا [1]

وعرف الإعراب ، بأنه أن لا تلحن في الكلام . يقال أعرب كلامـه اذا لم

---

١ اللسان (١/٥٨٨ وما بعدها) ، (عرب) ، تاج العروس (١/٣٧٠ وما بعدها) ، (عرب) .

يلحن في الإعراب[1] . فربطوا هنا بين الإعراب واللحن . وذكـروا أيضاً « أن الإعراب الذي هو النحو ، انما هو الإبانة عن المعاني والألفـاظ »[2] ، « وانما سمي الإعراب إعراباً ، لتبيينه وإيضاحه »[3] ، « وعرب منطقـه أي هذبه من اللحـن »[4] . وروي عن (أبـي هريرة) قولـه : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » ، والمراد بالغريب أن تكون اللفظة حسنة مستغربة في التأويل،لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس . وقد عدّوا من ذلك في القرآن كله سبعمائة لفظة أو تزيد قليلاً[5] .

ورد في تأريـخ (الطبري) ان رجلاً من العباديين مرّ بجمع من المسلمين أصابوا جراباً من (كافور) فحسبوه ملحاً ، فأخذوا يلقون منه في طعامهـم ، فقال لهم : « يا معشر المعربين ، لا تفسدوا طعامكم ، فإن ملـح هذه الأرض لا خير فيه »[6] ، فاستعمل المعربين في معنى العرب ، ولعـل العباديين ، وهم نصارى الحيرة كانوا يطلقون على العرب الخلص معربين ، لوضوح لسانهم بالنسبة لغيرهم ممن كان لا يعرب على طريقة العرب الخلص من أهل البوادي .

وقد ذهب (ابن فارس) الى وجود (الإعراب) عند العرب العاربـة ، إذ يقول : « وزعم قومٌ أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وانهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا نصباً ولا همزاً »[7] . وقد رد على من أنكر وجود الإعراب عند العرب قبل الاسلام[8] ، وأورد حديثاً في ذلك ، إذ قال : « وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه قال : اعربوا القرآن »[9] . وقد ورد ان (عمر بن الخطاب) ، وجه كتابـاً الى (أبـي موسى) الأشعري ، عامله على البصرة فيه : « أما بعد ، فتفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربيـة ،

---

١ تاج العروس (١/٣٧٢) ، (عرب) .
٢ تاج العروس (١/٣٧١) ، (عرب) ، اللسان (١/٥٨٩) ، (صادر) ، (عرب) .
٣ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) .
٤ المصدر نفسه (١/٥٨٩) ، (عرب) .
٥ الرافعي (٢/٥٧) .
٦ الطبري (٣/٤٩٧) .
٧ الصاحبي (٣٥) .
٨ الصاحبي (٣٧ وما بعدها) .
٩ الصاحبي (٦٦) ، (اعربوا القرآن ، فاني عربي) ، الزينة (١١٧ وما بعدها) .

وأعربوا القرآن ، فإنه عربي ، وتمعددوا فإنكم معديون »[1] ، ووجه اليه كتاباً آخر فيه « أما بعد ، فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة ، وتفقهوا في العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[2]. غير ان من العلماء من فسّر الإعراب في القرآن بأن المراد به معرفة معاني ألفاظه ، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن[3] .

وعرف الإعراب ، بأنه : « الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما مُيز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر ، ولا نعت من تأكيد. وذكر بعض أصحابنا أن الاعراب يختص بالإخبار . وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً ، لأنّا نقول : أزيدٌ عندك ؟ وأزيداً ضربت ؟ فقد عمل الإعرابُ وليس هو من باب الخبر »[4] ، فبالإعراب تميز المعاني ويَوقف على أغراض المتكلمين[5] . وأنواع الإعراب رفع ، ونصب ، وجر ، وجزم ، فالإعراب عبارة عن الحركات[6] . وقد جعل الإعراب من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب[7] . والإعراب في الواقع ، هو التعرب ، أي التكلم بالعربية وفق طريقة العرب الخلص في مراعاة أواخر الكلم ، ومراعاة التصرف الإعرابي .

والإعراب في نظري ، أن يتكلم الانسان بطريقة العرب في كلامهم ، وذلك بأن يبين وفقاً لقواعد لسانهم ، وقد عرفنا ورود لفظة (عرب) و (عربية) في النصوص الآشورية واليونانية والسريانية ، فالإعراب إذن من هذا الأصل ، أي من العربية ، ثم اطلق على النطق وفقاً لأساليب العرب في كلامهم ووفقاً لقواعد لسانهم .

---

١ كنز العمال (٥/٢٢٨) ، خورشيد أحمد فارق ، حضرت عمر (١٣٥) ، (القسم العربي) .
٢ حضرت عمر (١٣٩ وما بعدها) ، (القسم العربي) .
٣ السيوطي ، الاتقان (٢/٣) .
٤ ابن فارس ، الصاحبي (٦٦ ، ٧٧) .
٥ الصاحبي (١٩٠ وما بعدها)
٦ السيوطي ، الاشباه والنظائر (١/٧٢ وما بعدها) .
٧ المزهر (١/٣٢٧) .

وللوقوف على معنى : (العربية) ، يجب الرجوع الى ما ورد عنها في الأخبار. فقد ورد أن الرسول « دخل المسجد فرأى جمعاً من الناس على رجلٍ ، فقال: ما هذا ؟ قالوا : يا رسول الله ، رجل علاّمة ، قال : وما العلاّمة ؟ قالوا : أعلم النـــاس بأنساب العرب ، وأعلم الناس بعربية ، وأعلم الناس بشعر ، وأعلم الناس بما اختلف فيه العرب ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : هذا علم لا ينفع وجهـــل لا يضر »[1] . وهو خبر يرجع سنـــده الى (أبـي هريرة) .

ووردت اللفظة في روايات أخرى يرجع الرواة زمانها الى أيام الخليفة (عمر بن الخطاب) . فقد روي عن (عثمان المهـريّ) ، انه قال : « أتانا كتاب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، ونحن بأذربيجان يأمرنا بأشياء ، ويذكـــر فيها : تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيـد في المروءة »[2] . « وقد روي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : إن الله بريءٌ من المشركين ورسولِه ، بجرّ رسوله ، فتوهم عطفه على المشركين . فقال : أوَ بريء الله من رسوله ؟ فبلغ ذلك عمـــر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية »[3] . وروي أن الخليفة المذكور ، كتب الى (أبـي موسى الأشعري) ، يوصيه ، فكـــان مما قاله له : « خذ الناس بالعربية ، فإنه يزيد في العقـــل ويثبت المروءة »[4] . ونسبت الى (عمر) رسائل أخرى ، ذكر انه وجهها الى عامله المذكور فيها : « أما بعد : فتفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربية ، واعربوا القرآن فإنه عربي وتمعددوا فإنكم معديون »[5] ، و « أما بعد : فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[6] ، أو انه قال : « تفقهوا في الدين ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وتعلموا العربية »[7] . وفسّر (الحسن) العربية ، بأنهـا التنقيط ، أي

---

١ ابن قيم الجوزية ، اعلام الموقعين (١/٨٧) .
٢ صبح الأعشى (١/١٦٨) .
٣ صبح الأعشى (١/١٦٩) .
٤ اللسان (١/١٥٥) ، (مرأ) ، تاج العروس (١/١١٧) ، (مرأ) ، خورشيد أحمد فارق (١٤١) ، (النص العربي) .
٥ كنز العمال (٥/٢٢٨) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) ، (النص العربي) .
٦ القفطي ، انباه (١/١٦) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) .
٧ السجستاني ، المصاحف (١٤٢) .

ان ينقط المصحف بالنحو[1] . وذكر ان النبي قال : « عليكم بتعلم العربية ، فإنها تدل على المروءة وتزيد في المودة[2] . وروي أن عمر كتب : « أما بعد : فإني آمركم بما أمركم به القرآن ، وأنهاكم عما نهاكم عنه محمد ، وآمركم باتباع الفقه والسنة والتفهم في العربية »[3] ، و « مُر من قبلك بتعلم العربية ، فإنها تدل على صواب الكلام ، ومرهم برواية الشعر ، فإنه يدل على معالم الأخلاق »[4] .

وورد أن (عبدالله بن مسعود) كان يتعاطى العربية والشعر ، وقد كان يسأل في ذلك (زر بن حُبيش) ، وكان من أعرب الناس[5] . « قال عاصم : كان من أعرب الناس . وكان ابن مسعود يسأله عن العربية »[6] . وورد : « كان بعض اليهود قد علم كتاب بالعربية،وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول»[7].

وورد أن أهل الحيرة كانوا يتعلمون (العربية) في الكتاتيب ، وان لهم ديواناً يكتب بالعربية ، كما كان للفرس ديوان يدون الرسائل الى العرب بالعربية ، وأن أهل الأنبار كانوا يكتبون بالعربية ويتعلمونها .

وبعد ، فما هي تلك العربية التي كان (العلامة ؟) المزعوم يعلمها في المسجد وكان من أعلم الناس بها ؟ وما هي تلك العربية التي كان الخليفة يوصي حكّامه وأصحابه بأخذ الناس بها ؟ أو العربية التي علمها اليهود بيثرب ؟ عربية بمعنى الإبانة والافصاح وتحريك الفم تحريكاً كفيلاً بإخراج الحروف من مخارجها إخراجاً واضحاً ؟ أم عربية أخرى ؟ أم عربية الكتابة . أي تقليم الخط ، أم بالمعنى الذي دفع (أبا الأسود) على وضع العلامات لضبط الحركات ولصيانة الألسنة من الوقوع في اللحن . ولو سألتني رأيي ، لقلت لك حالاً : انها العربية الثانية. العربية الكفيلة بضبط الألسنة وتعليمها كيفية النطق الصحيح وفقاً لقواعد العربية ، أي الإعراب وتفسير معاني الألفاظ ، أي اللغة ، وأوضح دليل على ما أقوله ، ما جاء في الرواية المتقدمة من أن (عمر بن الخطاب) لما سمع خطأ الأعرابي

---

١ السجستاني ، المصاحف (١٤٢) .
٢ الفائق (٣/١٥٣) .
٣ خورشيد أحمد فارق (١٤٠) ، (النص العربي) .
٤ كنز العمال (٥/٢٤١) ، خورشيد أحمد فارق (١٤٠) .
٥ ابن سعد (٦/٧١) .
٦ الاصابة (١/٥٦٠) ، (رقم ٢٩٧١) .
٧ فتوح البلدان ، للبلاذري (٤٥٩) ، المعارف لابن قتيبة (١٩٢) .

الفاحش في قراءة الآية أمر « أن لا يقرأ القرآن إلاّ من يحسن العربية » ، ومن وصيته بأخذ الناس بالعربية،ومن قوله أيضاً : « تعلموا الفرائض والسنن واللحْن كما تعلمون القرآن » ، و « تعلموا اللحن في القرآن كما تتعلمونه ، يريد تعلموا لغة العرب في القرآن » ، أو : « تعلموا اللحن والفرائض فإنه من دينكم »[1] . فلم يكن خطأ (الاعرابي) هو خطأ في كيفية اخراج الحروف من مخارجها ، ولا في كيفية الافصاح وإبانة الكلم ، وإنما في جره رسوله ، وتوهمه عطفها على المشركين ، مما أخرج الآية الى عكس ما أراده الله منها . أي غلطه في اللغة ، ولهذا فزع الخليفة فحث الناس على تعلم العربية ، لتكون دليلاً لمن يتعلمها وهادياً له في صون لسانه من الوقوع في الخطأ ، وفي هذا الحث دلالة على وجود علم سابق عند العرب بكيفية حفظ الألسنة من الوقوع في الخطأ ومجانبة القواعد العامة. ويعود هذا العلم الى ما قبل الإسلام .

أضف الى ذلك ما ذكرته سابقاً من قول عمر : « أما بعـــد : فتفقهوا في الدين ، وتعلّموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[2] . فإذا صح هـذا الخبر دل على وجود الإعراب في زمن عمر ، وعلى ان المراد من الإعـــراب الذي كلّف (أبا الأسود) أن يعلّم أهل البصرة به ، هو النحو ، أي قواعد صيانة اللسان من الوقوع في الخطأ في الكلام .

ولو تساهلنا فأخذنا (العربية) الواردة في قول (عمر) وغيره بالمعنى اللغوي الظاهر من اللفظة ، وهو الإفصاح والإبانة وإخراج الكلم حسب أصول النطق عند العرب ، فإن هذا المحمل يحملنا عـلى الذهاب الى وجود علم سابق ، كان الناس يراعونه ويسيرون بمقتضى اعتباراته وقواعده في كيفية النطق بالكلم ، ويسمونه : العربية .

ويتبين مما ذكره أهل الأخبار من أن (أبا الأسود) « كان أول من وضع العربية »[3] ، أن مرادهم من العربية المذكورة هذه العلامات التي تدل على الرفع

---

١ اللسان (٣٨١/١٣) ، (لحن) ، صبح الاعشى (١٤٨/١) .
٢ القفطي ، انباه (١٦/١) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) .
٣ المعارف (٤٣٤) ، الصاحبي (٣٧) .

والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون، تلك العلامات التي استعملها في المصحف ، وأن هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعدُ وسمّوا كلامهم نحواً سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود[1] . وبهذا المعنى نستطيع فهم ما ورد في الحديث والأخبار من وجوب الإعراب في القرآن . أي إظهار حركات الكلم عند القراءة . فالعربية ، تعني النحو . « ولما وضع أبو الأسود النحوَ وأطلق عليه لفظ العربية ... »[2] ، كان يقصد منه صيانة اللسان من الخطأ ، والنطق بصحة . فقد ورد ان الرسول قال : اعربوا القرآن ، أو اعربوا القرآن فإنه عربي ، وأن (عمر بن الخطاب) « قال : تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه[3] » ، وروي انه قال : « تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض »[4] .

وبهذا المعنى وردت (العربية) في حديثهم عن الشاعر (عدي بن زيد) العبادي ، فقد ذكروا انه تعلم (العربية) في كتاب بالحيرة حتى غدا من أكتب الناس بها ، فلما حذق ومهر فنه بالعربية ، أرسل الى كتّاب الفارسية ، فتعلم مع أولاد المرازبة[5] . وذكروا انه « قرأ كتب العرب والفرس »[6] ، إذ لا يعقل أن يكون مرادهم تعلم حروف الهجاء وحدها ، أو الخط ، أو مجرد معاني الألفاظ .

وقد تحدثت عن التنقيط عند أهل الكتاب في أثناء حديثي عن نشأة الخط العربي . ويظهر أن كتاب المصاحف ، لم يكونوا على اتفاق في موضوع العواشر ، أي تعشير القرآن ، والتنقيط والخواتم ، والفواتح ، والألفاظ المفسرة في المصحف ، بدليل ما ورد عنهم من اختلاف رأي في هذا الموضوع ، فمنهم من كان يأمر بتجريد القرآن من كل ذلك ومنهم من جوّز ، ومنهم من كره نقط القرآن بالنحو[7] .

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧) .
٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٢٦) .
٣ الزينة (١١٧ وما بعدها) .
٤ البيان والتبيين (٢/٢١٩) .
٥ الاغاني (٢/٩٦ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) ، شعراء النصرانية (١/٤٤١).
٦ الطبري (٢/١٩٣) ، (دار المعارف) .
٧ السجستاني ، المصاحف (١٣٨ وما بعدها) .

وقد اختلف العلماء في تفسير معنى جملة « يريد أن يعربه فيعجمه » الواردة في شعر ينسب لرؤبة ويقال للحطيئة ، هو :

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه

وقوله :

والشعر لا يسطيعه من يظلمه يريد أن يعربه فيعجمه

فذهب بعضهم الى أن مراد الشاعر أنه يأتي به أعجمياً ، يعني يلحن فيه ، وقيل يريد أن يبيّنه فيجعله مشكلاً لا بيان له ، وقيل أزال عجمته بالنقط[1] .

والذي أراه أن قول العلماء : « العجم النقط بالسواد مثل التاء عليها نقطتان، يقال : أعجمت الحرف والتعجيم مثله » ، وقولهم : « معجم الخط هو الذي أعجمه كاتبه بالنقط ، تقول : أعجمت الكتاب أعجمه إعجاماً »[2] ، هو تعريف يجب أن يكون قد وضع بعد وضع الإعجام ، أي التنقيط ، فإذا كان الإعجام من وضع (أبي الأسود) الدؤلي ، فيجب أن يكون ظهوره منذ أيامه فما بعد، أما إذا كان قبله فيجب أن يكون من مصطلحات الجاهليين .

ويذكر علماء اللغة أن « أعجم الكتاب خلاف أعربه ، أي نقطه » فأزال الكاتب عجمة الكتاب بالنقط[3] . ومعنى هذا أن النقط قد أزال الغشاوة عن الحروف المعجمة ، أي المتشابهة في الشكل ، بوضع النقط فوقها ، فصارت حروفاً معربة واضحة . ولولا الإعجام لما استبان الكلام ، ولوقع سوء الفهم واللبس في كثير من الألفاظ التي ترد فيها الحروف المعجمة ، ففي الإعجام لبس ووقوع في خطأ، وفي اللحن مثل ذلك أيضاً ، ولهذا أرى وجود صلة كبيرة بين اللحن ، الذي هو الخطأ في الكلام ، بسبب الجهل بالاعراب . وقد رأيت قول العلماء : «أعجم الكتاب خلاف أعربه » ، أي وضحه وصححه بالنقط . فبين الاثنين ترابط في الأصل ، فالاعجام خلاف الاعراب ، والللحن خلاف الإعراب كذلك .

---

١ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٢ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .

obeikandl.com

وقد صار النقط ، أو وضع الحركات على الحروف لإرشاد القارىء الى القراءة الفصيحة الصحيحة ، ضرورة لازمة ، بدونها قد يخطىء الانسان فهم المعنى ، وقد يقع في أخطاء جسيمة لو أخليت الكتابة من النقط والإعجام . وقد ضرب العلماء الأمثال على أخطاء وقع بها الناس بسبب طريقة الكتابة القديمة التي لم تكن تنقط الحروف ولا تعجمها ، فكان القارىء يقع في أخطاء .

والإعراب بعد ، لا يختص بالعربية وحدها ، بل نجد آثاره في لغات سامية أخرى ، وانما ظهر وعرف في عربيتنا ، لأن اللغات الأخرى قد ماتت في الغالب ، فلم يبق أحد من الناطقين بها ، لتبين كلامه ، ولأن نصوصها غير مشكلة ، وهي خالية من الحروف التي تدل على الشكل والحركات ، لذلك لا نستطيع التحدث عن وجود الإعراب بها . ولكن بعض النصوص البابلية تشير الى وجود الإعراب بها . واللاتينية مع انها من اللغات الآرية فهي لغة معربة ، يراعي الكاتبون والمتكلمون بها خصائص الإعراب ، واليونانية القديمة هي معربة كذلك . ويخيل لي ان معظم لغات الأدب في العالم القديم كانت تراعي الإعراب ، لترتفع بذلك عن ألسنة العامة ، ولتكون اللسان الرفيع الذي يخاطب الانسان به أربابه ، ثم خفت حدة الإعراب فيما بعد ، مجاراة لتطور العقل الانساني . ونجد معظم الشعوب في الوقت الحاضر ، تبسط لغتها وتختزل قواعدها وجمل كلامها ليتناسب الكلام مع عقلية السرعة التي أخذت تسيطر على الانسان الحاضر .

وما قلته عن اللغات الأخرى من صعوبة التكلم عن إعرابها ، بسبب عدم وجود نصوص مشكلة عندنا تشير الى طرق الإعراب بها ، ينطبق كذلك على اللغات العربية الجنوبية ، وعلى اللغات الأخرى ، مثل الصفوية ، والثمودية واللحيانية ، لعدم وجود الحركات بها أو العلامات الدالة على الإعراب . وخلو هذه اللغات من العلامات التي تقوّم الإعراب ، لا يمكن أن يتخذ دليلاً على عدم وجوده في تلك اللغات ، لأن العماد في الإعراب ، هو بالنطق في اللسان ، وهو ما لا يمكن استخراجه من الكتابة العربية الجنوبية ، فاللسان هو الذي يشكل ويحرك الألفاظ وفق مقتضيات قواعد الألسنة . أما النبطية ، وهي من اللهجات العربية الشمالية ، ففيها ظواهر بارزة تشير الى انها كانت لغة معربة ، وهي في نظري أقرب اللغات العربية الجاهلية الى عربية القرآن الكريم ، فالأسماء في النبطية ، معروفة في عربيتنا قليلة في العربيات الأخرى ، وهي قريبة من هذه العربية في أمور أخرى نحوية وصرفية .

اللحن :

من معاني اللحن : اللغة . « روي أن القرآن نزل بلحن قريش،أي بلغتهم . وفي حديث عمر رضي الله عنه : تعلموا الفرائض والسنة واللحن ، بالتحريك ، أي اللغة »[1] ، ومنه قول (عمر) : « تعلموا الفرائض والسنن واللحن ، كما تعلّمون القرآن »[2]. ومن معانيه الخطأ في الكلام . « قال أبو عبيد في قول عمر رضي الله تعالى عنه : تعلّموا اللحن ، أي الخطأ في الكلام لتحترزوا منه » ، وورد : « وأما قول عمر رضي الله عنه : تعلّموا اللحن والفرائض،فهو بتسكين الحاء ، وهو الخطأ في الكلام ... قال أبو عدنان : سألت الكلابيين عن قول عمر : تعلّموا اللحن في القرآن كما تعلمونه ، فقالوا : كُتب هذا عن قوم ليس لهم لغو كلغونا ، قلت : ما اللغو ؟ فقال : الفاسد من الكلام . وقال الكلابيون: اللحن : اللغة . فالمعنى في قول عمر : تعلموا اللحن فيه ، يقول : تعلموا كيف لغة العرب فيه الذين نزل القرآن بلغتهم »[3] ، « وجاء في رواية تعلموا اللحنَ في القرآن كما تتعلمونه ، يريد تعلّموا لغة العرب بإعرابها »[4] ، ووردت اللفظة بمعان أخرى . وقد أجمل العلماء ما جاء فيها من معان بستة معان : الخطأ في الإعراب ، واللغة ، والغناء ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى[5] .

وقد ذكر أن الرسول لما أرسل (سعد بن معاذ) ، وهو يومئذ سيد الأوس و (سعد بن عبادة) ، وهو يومئذ سيد الخزرج الى (كعب بن أسد)،وكان قد نقض عهده الذي عهده للرسول وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ، قال لهما : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً فالحنوا إليّ لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » ، فلما أتياهم وجداهم على أخبث ما بلغهما

---

١ اللسان (١٣/٣٨٠ وما بعدها) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) ، الفائق (٢/٩٩) ، (٢/٤٥٧) .

٢ الأمالي ، للقالي (١/٥) ، السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٠) .

٣ اللسان (١٣/٣٨٠ وما بعدها) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .

٤ اللسان (١٣/٣٨١) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .

٥ اللسان (١٣/٣٨١) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .

عنهم ، نالوا من رسول الله ، « وقالوا : من رسول الله ! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد » ، فلما عادا الى رسول الله قالا : « عضل والقارة . أي كغدر عضل والقارة » ، فاللحن هنا بمعنى الإيماءة والاشارة والرمز[1] ، فاللحـــن هنا أن تريد الشيء فتورى عنه[2] .

والذي أريده من اللحن ، الخطأ في الكلام ، والزيغ عن الإعـراب ، وهو معنى لا نستطيع فهمه من النصوص الجاهلية ، لخلو تلك النصوص من الحركات، ومن الاشارة الى قواعد لغاتها . ولذلك فلا مناص لنا لفهمـــه إلا بالرجوع الى الموارد الاسلامية . وهي تذكر أن اللحن بهذا المعنى ، لم يظهر إلا في الاسلام ، ظهر بسبب دخول الأعاجم في دين الله ، واختلاطهم بالعرب ، وأخذهم لغتهم واتصال العرب بهم ، فقسدت الألسنة ، وظهر اللحن بين الموالي وبين العرب . وقد عيب ظهوره في العربي ، حتى عير من ظهر اللحن على لسانه ، فلما فشا وكثر ، صار شيئاً مألوفاً حتى غلب على ألسنة الناس. وهم يذكرون ان العربي القح الأصيل ، لم يكن يخطىء في كلامه ، لأنه يتكلم عن طبع وسجيـة ، ومن كان هذا شأنه ، لا يقع اللحن في كلامه ، أو لأنهم كانوا يتأملون مواقع الكلام ويعطونه في كل موقع حقه وحصته من الإعراب عن ميزة وعلى بصيرة[3] .

يقول العلماء : وكان أول لحن ظهر بين العرب على عهد النبي ، فقـد رووا أن الرسول سمع رجلاً يقرأ فلحن ، فقال : ارشدوا أخاكم[4] ، أو ارشدوا أخاكم فإنه قد ضـــل[5] ، ثم فشا وانتشر في مواضع الإختلاط خاصة ، حيث اختلط العجم بالعرب ، كالعراق وبـــلاد الشأم ومصر ، حتى دخل أعمال الحكومة ، فأخطأ الكتاب في النحـــو ، وأفحشوا في الإعراب ، فكتب كاتب من كتاب (أبي موسى) الأشعري كتاباً فيه ، (من أبو موسى ...) أو ما شابه ذلك من خطأ في القول ، فكتب (عمر) الى عامله : « سلام عليك . أمـا بعد ،

---

١ الروض الأنف (٢/١٩٠) ، ابن هشام ، سيرة (٢/١٩٠) ، (حاشية على الروض).
٢ الأمالي ، للقالي (١/٦) .
٣ الرافعي (١/٢٤٠) ، « وبهذا الاعتبار نقطع بأن اللحن لم يكن في الجاهلية البتة » ، الرافعي (١/٢٤٢) .
٤ كنز العمال (١/١٥١) .
٥ ابن جني ، الخصائص (٢/٨) ، (دار الكتب) .

فاضرب كاتبك سوطاً واحداً ، وأخر عطاءه سنة »[1] : أو : « إذا أتاك كتابي هذا ، فاجلده سوطاً واعزله عن عملك »[2] ، أو « قنع كاتبك سوطاً »[3] ، أو: « ان كاتبك الذي كتب إليّ لحن ، فاضربه سوطـاً »[4] ، وذكر (الجاحظ) ، أن (الحصين بن أبي الحرّ) كتب الى (عُمر) كتاباً « فلحن في حرف منه، فكتب اليه عمر : أن قنع كاتبك سوطاً » .

وسبب ذلك انهم كانوا يرون ان اللحن عيـب مشين . قال « عبد الملك بن مروان : اللحن هجنة على الشريف ، والعجب آفة الرأي . وكان يقال : اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه »[5] .

ولا يمكن تفسير قول القائل ان « اللحن بمعنى الخطأ محـدث ، لم يكن في العرب العاربة الذين تكلّموا بطباعهم السليمة »[6]،الا أن يكون مراده أن الجاهليين كانوا يتكلمون بطباعهم السليمة بلغاتهم ، كل يتكلم بلغته ، ووفق سجيته ولسانه الذي أخذه من بيته ، فهو ينطق وفـق ما سمع وحفظ ، فلا يلحن في الكلام بلسانه الذي أخذه من أهله ، وهو رأي أقول انه على الجملة مقبـول معقول . أما اذ أريد به ، أن العرب كانوا جميعاً يتكلمون بلسان واحد ، فلا يخطىء أحدهم فيه ولا يلحن ، فإن ذلك يتعارض مع قولهم بوجود اللغات ، وبأن تلك اللغات كانت تتبـاين في أمور كثيرة في جملتها قواعد في النحو والإعراب ، كما في (ذي) الطائية ، وفي اعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجـرّاً وذلك في لغة (بلحرث) و (خثعم) و(كنانة) ، فيقولون : جاء الرجلان ، ورأيت الرجـلان ، ومررت بالرجلان[7] ، وكما في (كم) الخبرية ، حيث ينصب (بنو تميم) تمييز (كم) ، ولغة غيرهم وجوب جره وجواز إفراده وجمعه ، وكما في إعراب (الذين) من أسماء الموصول إعراب جمع المذكر السالم في لغة

---

١ مراتب النحويين (٦) ، الرافعي (١/٢٤٣) .
٢ كنز العمال (٥/٢٢٤) ، حضرت عمر (١٣٧) ، (القسم العربي) .
٣ أدب الكتاب ، للصولي (١٢٩) ، حضرة عمر (١٣٨) .
٤ حضرت عمر (١٣٨) .
٥ البيان والتبيين (٢/٢١٦) .
٦ ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة (٥/٢٣٩) .
٧ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٤٤ وما بعدها) .

(هذيل) ، أو (عقيل) وفي قول بعضهم هذه النخيل وقول بعض آخر هذا النخيل الى غير ذلك من مواطن خلاف وتباين بحث فيها العلماء[1] ، لا مجال للبحث فيها في هذا المكان ، ووجود هذا الاختلاف ، هو دليل في حد ذاته على خروج القبائل على قواعد اللغة ، والخروج على القواعد هو اللحن .

لقد أقر علماء العربية بوجود خلاف بين القبائل المتكلمة بلهجات عربية شمالية، وقد أشرت الى مواضع ذكروها في هذا الباب ، وكشف علماء النحو عن خلاف في قواعد النحو ، في مثل اختلاف القبائل في التذكير والتأنيث ، كما في مثل الطريق والسوق والسبيل والتمر ، فهي ألفاظ مؤنثة عند أهل الحجاز ، وهي مذكرة عند قبائل أخرى ، وكشفوا عن أمور أخرى ، إن تكلم المتكلم أو كتب بها عدّ صدور ذلك لحناً منه ، فهل يعدّ العربي المتكلم بلهجة من هذه اللهجات المخالفة مخالفاً لقواعد العربية ، أي لحّاناً ، كما نعدّ الأعجمي الذي يقع في الخطأ نفسه ، أم نعدّه فصيحاً ، عربي اللسان والسليقة ؟ أما الأعجمي الذي يقع في الخطأ ذاته فنعده لحّاناً لحنة !

لقد ذكروا ان الرسول « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين ان أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يوجّه اليهم الخطاب، كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة ، حتى قال له علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ؟ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوضح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معناه من تلك الكلمات »[2] ، فهل يعقل بعد ، أن يقال إن العربي كان لا يلحن ولا يخطىء في كلامه ولا يزيغ عن العربية المبينة ، والعرب هم على ما هم عليه من اختلاف اللهجات ، الذي يدفع حتماً على وقوع اللحن ، لو تكلموا بالعربية القرآنية ، أي هذه العربية التي يسميها علماء اللغة لغة قريش ، والتي هي اللسان العربي المبين على تسمية القرآن لها .

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٢٠ وما بعدها) .
٢ المزهر (١/٣٢٥) .

ثم كيف نفسر حديث : « ارشدوا أخاكم » ، أو « ارشدوا أخاكم فإنه قد ضل » مع قولهم إن العربي لا يخطىء في كلامه ولا يلحن ، لأنه يتكلم عن طبع وسليقة ، ولم يكن هذا الذي لحن أمام الرسول ، أعجمياً ، وانما كان عربياً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف وقع اللحن إذن ؟ ثم كيف نفسر خبر سماع الإمام (علي) أعرابياً ، وهو يلحن في القرآن ويقرأ : « لا يأكله إلا الخاطئين »[1]، أو خبر ذلك الأعرابي الذي قرأ « إن الله بريء من المشركين ورسوله » بالجر، لأن رجلاً من أهل المدينة أقرأه إياها على هذا النحو ، فبلغ ذلك (عمر) ، فأمر ألاّ يقرىء القرآن إلا عالم باللغة،وأمر أبا الأسود أن يضع النحو[2]، والأعراب هم لبّ العرب ، وصفوتهم في الكلام ، فكيف وقع هذا الأعرابي في اللحن يا ترى ؟ ثم كيف نفسر قول من زعم أن في القرآن آيات فيها لحن ، مثل : إن هذان لساحران[3] ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة[4] ، وان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون »[5] ، ومواضع أخرى تحتاج الى تأويل ليستقيم إعرابها[6] ، أو الى اصلاح املائها لتنجو من اللحن[7] .

ثم كيف اختلف قراء القرآن في نصب (الطير) في الآية : « يا جبال أوبي معه والطير » أو رفعها[8] ، واختلافهم في ضم الفاء أو فتحها في الآية : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم »[9] ، واختلافهم في بناء الفعل للمجهول أو للمعلوم في الآية : « الم . غلبت الروم »[10] ، وغير ذلك من مواضع اختلاف ، اختلف فيها القرّاء ، مع كونهم من العرب الأقحاح .

ثم كيف نفسر اضطراب العلماء وذهابهم مذاهب في قراءة الآية : « قالوا :

---

١ نزهة الألباء (٨) ، (محمد أبو الفضل ابراهيم) .
٢ المصدر نفسه .
٣ طه ، الآية ٦٣ .
٤ النساء ، الآية ١٦٢ .
٥ المائدة ، الآية ٦٩ .
٦ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٩) .
٧ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧١) .
٨ سبأ ، ٣٤ ، الآية ١٠ ، تفسير الطبري (٢٢/٤٦ وما بعدها) .
٩ التوبة ، الآية ١٢٨ ، تفسير الطبري (١١/٥٥) ، تفسير الألوسي (١١/٤٧) .
١٠ سورة الروم ، الرقم ٣٠ ، الآية ١ وما بعدها .

إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ويذهبا بطريقتكم المثلى »[1] ، وتأويلهم القراءة جملة تأويلات ، لأن القاعدة النحوية تقول : « ان هذين » بينما القراءة : « إن هذان » ، فعللوها جملة تعليلات ، منها أن هذه القراءة نزلت بلغة (بني الحارث بن كعب) ومن جاورهم يجعلون الاثنين ، أي المثنى في رفعها ونصبها وخفضها بالألف ، كما في قول بعض (بني الحارث بن كعب) :

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وقيل إن هذه القراءة ، هي قراءة بلحارث بن كعب ، وخثعم، وزبيد ومن وليهم من اليمن[2] . ونسبها (الزجاج) الى كنانة ، وابن جنى الى بعض بني ربيعة[3] .

ثم ما ورد في خبر آخر عن سعيد بن جبير ، من قوله : « في القرآن أربعة أحرف لحن : الصابئون[4] ، والمقيمين[5] ، وفأصّدّقَ وأكن من الصالحين[6] ، وإن هذان لساحران »[7] الى غير ذلك من أخبار . ثم ما ورد من قول (عثمان) : « إن في القرآن لحناً ، وستقيمه العرب بألسنتها » ، وأمثال ذلك[8] ، وما ذكر من أن (أبا بكر) ، كان يستحب أن يُسقط القارىء الكلمة من قراءته على أن يلحن فيها[9] ، أفلا يدل هذا الخبر ، على أن اللحن كان معروفاً ومتفشياً في عهد (أبي بكر) ، وما روي في رواية تقول : « لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان رضي الله عنه ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيروها فإن العرب ستغيرها ، أو قال ستعربها بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف

---

١ سورة طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ٦٣ .
٢ تفسير الطبري (١٣٦/١٦ وما بعدها) .
٣ تفسير النيسابوري (١١٨/٦) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، السيوطي ، الاتقان (٢٧٣/٢) .
٤ المائدة ، الرقم ٥ ، الآية ٧٢ .
٥ النساء ، الرقم ٤ ، الآية ١٦١ .
٦ المنافقون ، الرقم ٦٣ ، الآية ١٠ .
٧ سورة طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ٦٣ ، السيوطي ، الاتقان (٢٧٣/٢) .
٨ المصاحف (٣٣) ، السيوطي ، الاتقان (٢٧٢/٢ وما بعدها) .
٩ الرافعي (٢٤٠/١) .

والمملي من هذيل لم يوجد فيه هذه »[1] ، ثم ما ورد من وقوع اللحن من عرب أقحاح ، ومنهم من ولي الحكم وادارة أمور المسلمين[2] ، ومنهم ابنة (أبي الأسود الدؤلي) التي لحنت أمامه ، فعمل باب التعجب على ما يزعمه الرواة[3] .

وتوحي الأحاديث الواردة في الحث على إعراب القرآن ، والكتب التي ألفها العلماء في إعرابه ، أن من العرب : من أهل مدر وأهل وبر ، من كان يقرأ القرآن بغير إعراب ، إما لأن لغته لم تكن معربة ، وإما لأن إعرابها كان لا يتجانس مع إعراب القرآن ، وسببه أن الجاهليين لم يكونوا يتقيدون جميعاً بقواعد الإعراب ، فمنهم من كان يتحلل منه ، ومنهم من يعمل به وفق قواعد لغته ولهجته ، ودليل ذلك قراءة الصحابة القرآن بألسنتهم ، مما سبب في ظهور مشكلة القراءات ، وهذا ما أخاف الصحابة ، وجعلها تخشى من احتمال ظهور قراءين مختلفة ، مما حمل (عثمان) على توحيد لغة القرآن ، وتدوين كتاب الله حسب التوصيات التي أعطاها الى اللجنة التي كلفها بتدوينه .

أضف الى ذلك ما نجده في الكتب من إجازة اصلاح اللحن والخطأ في الحديث. من مثل ما نسب الى الأوزاعي من قوله : « لا بأس بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث » ، وقوله : « اعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً » ، ومثل ما نسب الى (يحيى بن معين) من قوله : « لا بأس أن يقوم الرجل حديثه على العربية » والى (ابن أبي رباح) حين سئل عن الرجل يحدث بالحديث فيلحن، هل يحدث به كما سمع منه أم يعرب ، فقال لسائله : لا ، بل اعربه . وما ورد في أقوال العلماء في جواز أو عدم جواز اصلاح اللحن في الحديث ، واختلافهم فيه[4] ، هو دليل على أن من العرب من كان يقع في اللحن أيضاً ، وان اللحن لم يقع من الأعاجم وحدهم .

---

١ مفتاح السعادة (٢/٢٧٧) .

٢ « وزعم المدائني أن خالد بن عبدالله قال : ان كنتم رجبيون فانا رمضانيون . ولو لا أن تلك العجائب قد صحت عن الوليد ما جوزت هذا على خالد » ، البيان والتبيين (٢/٢١٦) .

٣ « كان الذي حداه على ذلك أن ابنته قالت له : يا أبت ما أشد الحر ، وكان في شدة القيظ . فقال ما نحن فيه ! فقالت : انما أردت أنه شديد . فقال : قولي : ما أشد ، فعمل باب التعجب » ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .

٤ محمود أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية (١٠٨ وما بعدها) .

ثم ان من غير المعقول ألاّ يقع اللحن من أهل اليمن ومن بقية عرب العربية الجنوبية ، الـذين كانوا يتكلمون بألسنة عربية جنوبية ، رأينا أنها تختلف عن عربيتنا في مفردات الألفاظ وفي قواعد النحو والصرف .

إن كل من صدر منهم اللحن ، ممن أشرت اليهم وممن لم أشر ، كانوا من العرب ، منهم من كان من أهل المدر ، ومنهم من كان من أهل الوبر ، بهم بدأ اللحن ، أما لحن العجم ، فقد بدأ بعد اللحن الذي ظهر في أيام الرسول ، وفي أيام (عمر) بدأ بالطبع بالفتوح ، فلحن العرب اذن أقدم عهداً من لحن العجم ، يؤيد ذلك ما يرويه العلماء من وقوع الشعراء الجاهليين في أخطاء نحوية ، هي لحن وخروج على القواعد في نظرهـم . والشعـراء الجاهليون عرب ، ومن لسانهم استمد علماء النحو نحوهم وصرفهم . فقد زعموا ان (النابغة) أخطأ في قوله : « في أنيابها السم ناقع » ، ولحن لحناً شنيعاً ، وكان عليـه أن يقول : « في أنيابها السم ناقعاً »[1] ، أخطأ ولحن على زعمهم ،مع ان كلامه حجة عندهم ، واستشهدوا به في قواعد النحو والصرف .

وأخذ (حفص بن ابي بردة) ، وهو من أهل الكوفة ومن أصحاب (حمّاد) الراوية على (المرقش) ، انه كان يلحن ، زعم انه لحن في شعره ، وقد أشير الى زعمه هذا في شعر هجاء هجوه به ، هو :

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل ... وأنف كثيل العود عما تتبع
تتبعت لحنـاً في كـلام مرقش ... وخلقك مبنيٌ على اللحن أجمع
فعيناك إقواءٌ وأنفك مُكفـأٌ ... ووجهك إيطاءٌ فأنت المرقع[2]

وزعم علماء الشعر ، أن (امرأ القيس) حامل لواء الشعر ، ومن جاء بعده من الشعراء ، مثل (النابغة) ، و (بشر بن أبي خازم) ، و (الأعشى)، أقووا في شعرهم ، والإقواء : هو اختلاف إعراب القوافي ، وهـو أن تختلف حركات الروي ، فبعضه مرفوع وبعضه منصوب أو مجرور . ويكثر وروده في

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٨) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٦٠١) ، المرزباني ، معجم (٢٨٠) ، السمط (٣/٣٩) ، يوهان فك (٦٤) ، (فعينك اقواء) ، البيان والتبيين (٢/٢١٥) ، الشعر للشاعر « البردخت » ، وهو « علي بن خالد الضبي العكلي » ، العقد الفريد (٢/٤٨١) .

اجتماع الرفع مع الجر ، واما الإقواء بالنصب فقليـــل . وهو في نظرهم عيب[1] . وزعموا أن بعضاً من شعراء الجاهلية أكفأوا في شعرهم . والإكفاء ، المخالفة بين حركات الروي رفعاً ونصباً وجراً ، أو المخالفة بين هجائها ، أي القوافي ، فلا يلزم حرفاً واحداً تقاربت مخارج الحروف أو تباعدت ، ومثله أن يجعل بعضهـــا ميماً وبعضها طاء ، وقال بعضهم : الإكفاء في الشعر هو التعاقب بين الراء واللام والنون . وهو أحد عيوب القافية الستة التي هي : الإيطاء ، والتضمين ، والإقواء ، والإصراف ، والإكفاء ، والسناد[2] .

وقد روى أهل الأخبار قصة زعموا انها وقعت للنابغة ، وكان لا يعرف شيئاً عن إقوائه بشعره ، فلما وقعت له عرف به فعافه ، ذكروا ان الناس خافوا تنبيه الشاعر إلى إقوائه ، وبقي هو عليه ، حتى دخل يثرب ، فأرادوا إظهار عيبه له فأمروا قينة لهم ان تغنيه شعره ، فغنته :

أمن آل ميّة رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك حدثنا الغراب الأسود[3]

ففطن اليه ولم يعد الى إقواء . « قال أبو عمرو بن العلاء: فحلان من الشعراء كانا يقويان ، النابغة وبشر بن أبي خازم ، فأما النابغة فدخل يثرب فغنى بشعره ففطن فلم يعد للإقواء ، وأما بشر ، فقال له أخوه سوادة : انك تقوي ، قال: وما الإقواء ؟ قال : قولك :

ألم ترَ أنّ طول الدهر يُسلي ويُنسي مثل ما نسيت جذامُ

ثم قلت :

وكانوا قومنـــا فبغوا علينا فسقناهم الى البلد الشآمِ

فلم يعد للإقواء »[4] .

---

١ تاج العروس (٣٠٧/١٠) ، (قوى) .
٢ تاج العروس (١٠٨/١) ، (كفأ) .
٣ الشعر والشعراء (١٠٦/١) ، (دار الثقافة) .
٤ الشعر والشعراء (١٩٠/١) ، (دار الثقافة) ، الخزانة (٢٦٢/٢) .

ورويت قصة إقواء (بشر بن أبي خازم) بشكل آخر ، فقد زعم ان أخاه (سوادة) قال له : إنك تقوي ، قال : وما الإقواء ؟ قال : قولك :

ألم ترَ أنّ طولَ الدهر يُسلي وينسي مثل ما نسيت جُذامُ

ثم قلت :

وكانوا قومنا فبغـوا علينا فسقنـاهم الى البلـد الشآمِ

فلم يعد للاقواء »[1] ، أو أن أخاه (سمير) ، قال له : « أكفأت وأسأت . فقال : وما ذاك ؟ »[2] .

وقد ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فزعموا أن المصاحف لما كتبت « عرضت على عثمان ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيّروها ، فإن العرب ستغيرها — أو قال ستعربها — بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هُذيل لم توجد هذه الحروف »[3] ، وقد كان كل من اختارهم الخليفة لكتابه القرآن من خالص العرب ، ولم يكن من بينهم من هو من المولدين أو الموالي ، وقد كانوا من الفصحاء الألباء ، فكيف وقع منهم اللحن إذن ؟

بل زعموا أن (عمر) ضرب أولاده لما لحنوا ، وأن (معاوية) كلم (عبيد الله ابن زياد) ، فوجده كيساً عاقلاً على انه يلحن فكتب الى والده بذلك[4]،وزعموا ان (الحجاج) كان يلحن ، زعموا انه لحن في القـرآن ، فقرأ : « إنا من المجرمون منتقمون »[5] ، وزعموا انه لحن في آيات أخرى[6] ، والحجاج من ثقيف، ولم يكن أعجمياً ، حتى يظهر اللحن منه ، مع انهم جعلوه أحيانـاً من أفصح العرب ، وممن لم يلحن في حياته في جدّ ولا هزل . قال (الأصمعي) : « أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي ، وعبـد الملك بن مروان ، والحجاج بن

---

١ الشعر والشعراء (١/١٩٠) ، الموشح ٥٩ ، الخزانة (٢/٢٦٢ وما بعدها) .
٢ مصادر الشعر الجاهلي (٤٩) .
٣ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٠) .
٤ الفائق (٢/٩٩) ، البيان والتبيين (٢/٢١٠) ، الخزانة (٣/١٤) ، (بولاق) .
٥ البيان والتبيين (٢/٢١٨) ، (عبد السلام هارون) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٦) ، نزهة الالباء (١٦ وما بعدها) .

يوسف ، وابن القرية . والحجاج أفصحهم »[1] . وزعموا ان (الوليد بن عبد الملك) ، وأخاه (محمد بن عبد الملك) كانا لحّانين[2] . ذكر ان (الوليد) خطب الناس يوم عيد ، فقرأ في خطبته « يا ليتُها كانت القاضية » بضم التاء ، فقال عمر بن عبد العزيز : عليكَ وأراحنا منك[3] . ورووا قصصاً عن لحنه . وذكر أن (عبد الملك) قال : « أضر بالوليد حبنا له ، فلم نوجهه الى البادية » يقصد انه كان يلحن بسبب عدم ارساله الى الأعراب ليأخذ عنهم اللسان الفصيح. وقد كان أخوه محمد لحاناً كذلك ، وذكر انه لم يكن في ولد عبد الملك أفصح من هشام ومسلمة[4] . قال (الجاحظ) : « وكان الوليد بن عبد الملك لحنة ، فدخل عليه أعرابي يوماً ، فقال : أنصفني من ختني يا أمير المؤمنين . فقال : ومن ختنك ؟ قال : رجل من الحي لا أعرف اسمه . فقال عمر بن عبد العزيز : ان أمير المؤمنين يقول لك : من ختنك ؟ فقال : هوذا بالباب . فقال الوليد لعمر : ما هذا ؟ قال : النحو الذي كنتُ أخبرتك عنه . قال : لا جرم : فإني لا أصلي بالناس حتى أتعلمه »[5] . وذكر (الجاحظ) أمثلة على اللحن[6] . وروى أن كتب (الوليد) كانت تخرج ملحونة . فسأل (اسحاق بن قبيصة) أحد موالي (الوليد) ما بال كتبكم تأتينا ملحونة وأنتم أهل الخلافة ؟ فأخبره المولى بقولي ، فإذا كتابٌ قد ورد عليّ : أما بعدُ فقد أخبرني فلان بما قلتَ ، وما أحسبك تشك أن قريشاً أفصح من الأشعرين ، والسلام »[7] .

وقد ورد في شعر (مالك بن أسماء بن خارجة الفزاريّ) قوله :

وحديثُ الذّهُ هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا نأ وخيرُ الحديث ما كان لحنا

وقد ذكر أنه لم يرد اللحن في الإعراب الذي هو ضد الصواب ، وإنما أراد

---

١ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٨) .
٢ البيان والتبيين (٢/٢٠٥) .
٣ الرافعي (١/٢٤٦) .
٤ البيان والتبيين (٢/٢٠٤ وما بعدها ، ٢١٦) .
٥ المحاسن والاضداد (٦) .
٦ المصدر نفسه .
٧ البيان والتبيين (٢/٢٠٥) .

الكنايـــة عن الشيء والتعريض بذكره ، والعدول عن الافصاح عنـــه . قيل : تكلمت (هند بنت أسماء بن خارجة) ، أخت الشاعر المذكور فلحنت ، وهي عند الحجاج ، فقال لهـــا : أتلحنين وأنت شريفة في بيت قيس ؟! فقالت : أما سمعت قول أخي مالك لامرأته الأنصارية ؟ قال : وما هو ؟ قالت : قال :

منطق صائب وتلحن أحيـــا ناً وخير الحديث ما كان لحْنا

فقال لها الحجاج : إنما عنى أخوك اللحن في القول ، إذا كنّى المحدث عما يريد ، ولم يَعْنِ اللحن في العربية ، فأصلحي لسانك . غير أن منهم من رأى أن المراد بهذا اللحن ، اللحن المخالف لصواب الاعراب[1] .

وقد ذكر (السهيلي) ، أن الجاحظ قد أخطأ حين قال في كتابـــه (البيان والتبيـــين) ، ان الشاعر لم يقصد اللحن الذي هو الخطـــأ في الكلام وانما أراد استملاح اللحن من بعض نسائه ، وخطأه في هذا التأويل[2] ، قال : فلما حـدث الجاحظ بحديث (الحجاج) ، « قال : لو كان بلغني هذا قبل أن أُألف كتاب البيان ، ما قلت في ذلك ما قلت ! فقال له : أفلا تغيره ؟ فقال : كيف وقد سارت به البغال الشهب ، وانجد في البلاد وغار » . و « قال السيرافي : مـــا عرفت حقيقة معنى النحو إلا من معنى اللحن الذي هو ضده ، فان اللحن عدول عن طريق الصواب ، والنحو قصد الى الصواب »[3] .

وذكروا أن بعض شعراء الدولة الأموية كان يلحن ، وممن وقع منـــه اللحن (الفرزدق) . رووا أن (عبدالله بن يزيد الحضرمي) البصري ، كان ينتقـده ويتعقب لحنه ، فهجاه الفرزدق ، بقوله :

فلو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبدالله مولى المواليا

فقال له الحضرمي : لحنت . ينبغي أن تقول مولى موالٍ[4] .

---

١ أمالي المرتضى (١/١٥) ، الامالي ، للقالي (١/٥) .
٢ البيان والتبيين (١/١٤٧) .
٣ الروض الانف (٢/١٩٠) .
٤ الرافعي (١/٢٥٦) .

« وقالوا : تربع ابن جؤية في اللحن ، حين قرأ : هؤلاء بناتي هنّ أطهرَ لكم » ، وجعلوه حالاً ، يعني : أطهر . وليس هو كما قالوا ... »[1] ، و « تكلم معاوية بن صعصعة بن معاوية يوماً ، فقال له صالح بن عبد الرحمن : لحنتَ . فقال له معاوية : أنا ألحن يا أبا الوليد ، والله لنزل بها جبريلُ من الجنة »[2] .

وقد فشا اللحن وانتشر حتى بين العلماء ، وبين علماء النحو واللغة أيضاً، حتى غلط بعضهم بعضاً ، ونسب بعضهم اللحن الى البعض الآخر ، قال (ابن فارس) : « وقد كان الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرأونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن ، فقد تجوزوا حتى إن المحدّث يحدث فيلحن،والفقيه يؤلف فيلحن ، فإذا نُبّها قالا : ما ندري ما الإعراب ! وانما نحن محدثون وفقهاء »[3] . ولما كثر اللحن في الحديث ، جوزوا إعرابه . قال (الأوزاعي) : « لا بأس بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث » ، وقال أيضاً : « اعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً » . وقال (النضر بن شميل) : « كان هشيم لحاناً ، فكسوت لكم حديثه كسوة حسنة، يعني بالإعراب »[4] .

وبعد ، فقد رأيت من روايات أهل الأخبار أنفسهم ، أن اللحن لم يكن قاصراً على العجم ، بل كان قد عرف بين العرب كذلك ، وعلى هذا يجب ألا نلقي مسؤولية ظهوره على الأعاجم ، بل على العرب أولاً ، لأنهم هم الذين بدأوا باللحن ، بدأوا به قبلهم بأمد طويل ، لحنوا في الجاهلية ، أي قبل دخول العجم في الاسلام . فنحن نظلم الأعاجم اذن ، إن ألقينا على عاتقهم مسؤولية إشاعة اللحن بين العرب . ولكن هل يعقل وقوع اللحن من عرب كالجاهليين ، ومن شعراء فحول ، استمد علماء اللغة قواعد النحو والصرف من شعرهم مثل (النابغة) الشاعر المعظم ، أو من غيره ؟ لقد سبق أن ذكر علماء اللغة أن العربي ، لا يزال في كلامه وحاشا له أن يلحن أو يخطىء في لسانه ، لأنه إذا تكلم تكلم عن سليقة وطبع،وقد حماه الله من الوقوع في زلل الكلام ! إذن فكيف

---

١ مجالس ثعلب (٤٣) .
٢ مجالس ثعلب (٤٧) .
٣ الصاحبي (٦٦) .
٤ أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية (١٠٨ وما بعدها) .

نفسر ما ذكروه من وقوع النابغة في اللحن ، ومن وجود الإقواء في شعره وفي شعر غيره ، ومن ظهور اللحن في أيام الرسول ؟ هل نرجع ذلك الى خطأ الرواة في رواية شعر النابغة وأمثاله ، أو نرجع ذلك الى التزوير ، فنقول إن ذلك الشعر مفتعل ، وإنه ليس من شعر النابغة ، وإنما هو شعر منحول وضع عليه ، ومن ثم وقع الخطأ . ولكن الذي نعرفه أن من كان ينحل العرب الشعر وينسبه للجاهليين ، كان من أتقن الناس لشعر الجاهلية ومن أعرف الناس بالعربية ، ومن البارعين الحاذقين بقواعدها ، وأناس على هذا الطراز من الفهم والعلم ، هل يعقل وقوع مثل هذا الغلط منهم ؟ أو هل نرجع ذلك الى الخطأ في التدوين والاستنساخ ، ولكن كيف غفل العلماء من النص على ذلك ؟

وجوابي أن القول بأن اللحن بمعنى الخطأ في الكلام ، يستوجب وجود لغة فصيحة ذات قواعد نحوية وصرفية مقدّرة ومقننة وثابتة تعدّ اللغة الفصيحة العالية في نظر أصحابها ، من يخالف قواعدها يعدّ لحاناً لا يحسن القول ولا الكلام . وهو قول لا يعارضه أحد بالنسبة الى وجوده في الاسلام ، بعد أن فرض الاسلام دين الله على المؤمنين به كتاباً سماوياً ولساناً عربياً مبيناً ، تثبتت قواعد نحوه وصرفه في الاسلام . فمن سار عليها عدّ فصيحاً ، ومن خالفها عد لحاناً عامياً . أما بالنسبة لأهل الجاهلية ، فالقول بوجود اللحن عندهم ، يقتضي التسليم بوجود لغة فصيحة عليا لديهم ، لها قواعد مقررة ، من تكلم وفقها عد فصيحاً ، حسب درجة إعرابه وملكته في اللغة ، ومن خالفها عد عامياً جلفاً . وقد أكد علماء اللغة ، وجود هذه العربية الفصيحة ، التي هي عندهم عربية قريش ، عند ظهور الاسلام ، وقالوا : إن بها كان نزول عربية القرآن ، وبها نظم الشعر الجاهلي ، وبها نثر الكلام الجاهلي المنثور . أما اللحن ، فقد أنكروا وجوده ، ولم يسلموا بوقوعه ، وحجتهم ما ذكرته من أن العربي فصيح بطبعه ، اذا تكلم تكلم عن سجية فيه وسليقة ، لم يلحن ولم يخطىء في كلامه في الجاهلية ، الى أن كان الاسلام ، فاختلط العرب بالأعاجم ، ودخل الغرباء بين العرب ، ففسد الطبع وظهر الخطأ في اللسان ، وفشا اللحن .

وقد يعقل تصور وجود هذه العربية الفصحى ، اذا افترضنا — مع المفترضين الأخباريين — ان تلك العربية ، هي عربية أهل مكة ومن عاش حولهم ، وانها كانت عربية قريش ، وأن المتكلمين بها كانوا بشراً عصموا عن الخطأ في اللسان

وجبلوا على التكلم بها على الفطرة ، ولكننا لا نستطيع القول انها كانت عربية كل عرب جزيرة العرب ، إذ رأينا العرب الجنوبيين ، وقد كانوا يتكلمون بلغات أخرى ، ووجدنا عرب أعالي الحجاز ، ولهم ألسنة تباين عربية القرآن ، ورأينا للقبائل لهجات ، تختلف بدرجات عن هذه العربية . فكيف يتصور اذن اتفاق العرب كلهم على التكلم بلسان قريش ، وبغير خطأ أو زلل في اللسان .

وفي نفي علماء اللغة وجود اللحن عند الجاهليين تعارض مع رواياتهم القائلة بوجود الإقواء والإكفاء في شعر بعض الشعراء الجاهليين ، وبلحن (النابغة) في قوله : « في أنيابها السم ناقع » ، وبلحن الأعرابي في حضرة الرسول ، وبتباين لغات العرب ، تبايناً تحدثت عنه في فصل (لغات العرب) وقد وقع في كثير من صميم خصائص اللغات ، ومن بينها أمور تخص قواعد الإعراب ، وفيه تعارض أيضاً مع القرارات الشهيرة والشاذة للقرآن ، وبينها أمور تخص قواعد النحو والصرف والإعراب ، وفيه تعارض مع ما ذكروه من أن « أطراف الجزيرة لم تكن خالصة العروبة في القديم ، بل كان أهلها مغلوبين على أمرهم ؛ فلم يكن لهم من معنى اللغة إلا تعاور المنطق والاستبداد بالكلمات يتلقفونها ممن حولهم ، لأن ملكات الوضع العربي فيهم غير صحيحة ، وشروطه غير تامة،وليس كل عربي الجنس عربي اللسان ، وإلا فما بال الحميريين ومن قبلهم من الأمم السالفة ؟»[1].

وكيف يعقل نفي اللحن عن العرب مع وجود اللغات ، ووجود التعارض والإختلاف البين بين قواعد هذه اللهجات ، هل يعقل أن يتكلم العربي الجنوبي، باللغة العربية الفصيحة من غير خطأ ولا لحن ، ولسانه غير لساننا ، وعربيته غير عربيتنا ، وقواعده على خلاف قواعدنا ، وإعرابه على خلاف إعرابنا ، كما أثبت ذلك بالبرهان القاطع من الكتابات الجاهلية ، وبأقوال علماء العربية أنفسهم ، وفي مقدمتهم (أبو عمرو بن العلاء) ، القائل : « ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا » . ثم اننا إذا أخذنا القراءات المتنوعة التي قرىء بها القرآن ، والشواهد الشعرية الكثيرة التي أوردها علماء العربية والنحو على الشواذ ، وما يذكره العلماء من خلاف في النحو ، فإننا لا يمكن تفسير خروجها على القواعد إلا بأنها أثر من أثر بقايا اللهجات . وخروجها على القواعد ، هو لحن . ومن خرج على

---

١ الرافعي (١/٢٥٨) .

القواعد عدّ لحاناً ، مهما كان عصره أو جنسه ، جاهلياً كان أم مسلماً ، عربياً كان أم أعجمياً ، لأن اللحن لا يختص بعصر أو جنس .

ان ما دعوه باللحن ، وما أخذوا الأعاجم عليه ، من عدم تمكنهم من النطق ببعض الحروف ، أو من وقوعهم في أخطاء نحوية ، نراه قد وقع للعرب الفصحاء في الجاهلية وفي الإسلام ، فما كان ينطقه بعض العرب من اشمام الضاد صوت الزاي ، أو من النطق بالجيم (كافاً) على اللهجة المصرية ، يعدّ لحناً ، إذا صدر من أعجمي ، اما ان صدر من عربي ، فلا يقال لذلك لحناً ، بل يقال انه لغة من لغات العرب . واذا تصورنا ان عربية الجاهليين ، كانت عربية عالية واحدة ، على نحو ما يراه أهل الأخبار وعلماء اللغة ، وجب اعتبار هذه اللغات لغات عامية ، المتكلم بها خارج على قواعد اللغة ، فهو ممن يلحن ويخطىء سواء كان عربياً ، أم أعجمياً ، جاهلياً أم اسلامياً ، فنحن نتكلم هنا عن اسلوب كلام ، لا عن رسّ وأصل .

اننا حين نقول ان اللحن لم يكن معروفاً بين أهل الجاهلية ، نكون قد حصّناهم بالعصمة : بعصمة اللسان ، ونكون قد جعلناهم بذلك شعباً مختاراً ، فضل بعصمة لسانه على ألسنة سائر البشر،ولكن العلم لا يعرف عصمة ولا حصانة في لسان ، وهو يرى ان اللحن لا بد وأن يقع عند أي شعب ، أو قوم ، أو قبيلة ، حتى ان كانت القبيلة في سرة البادية ، وفي معزل ناء ، لأن الطبيعة توجد من اختلاف قابليات أفراد القبيلة ومن اختلاف مستوى عقلياتهم وثقافاتهم وتباعد سكنهم بعضهم عن بعض ، خروجاً على اللسان ، فيظهر اللحن الشاذ ، ويبرز النشاز في اللغة ، مهما كان موطن هذه القبائل ، في جزيرة العرب أو في أي موضع آخر من العالم ، فاللحن ، أي التبلبل في الألسنة من الأمور الطبيعية ، التي توجدها طبيعة البشر وطبيعة الاقليم ، وأمور أخرى بحث فيها علماء اللغة والاجتماع ، ولا يمكن أن يكون العرب بمنجاة منها !

لقد تحير (السيوطي) وغيره في تفسير خبر ورد عن (سعيد بن جبير) من انه « كان يقرأ : والمقيمين الصلاة ، ويقول : هو لحن من الكاتب » . فقال: « وهذه الآثار مشكلة جداً ، وكيف يظن بالصحابة أولاً انهم يلحنون في الكلام فضلاً عن القرآن ، وهم الفصحاء اللدّ ! ثم كيف يظن بهم ثانياً في القرآن الذي تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أنزل ، وحفظوه ، وضبطوه ، وأتقنوه»

ثم كيف يظن بهم ثالثاً اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته ! ... الخ »[1] ، وفي بعض هذه القراءات خطأ حصل من الكتابة ، قال « هشام بن عروة عن أبيه ، قال : سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله تعالى : إن هـذان لساحران[2] ، وعن قوله تعالى : والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة[3] . وعن قوله تعـالى : إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون[4] ، فقالت : يا ابن أختي، هذا عمل الكتّاب اخطئوا في الكتاب »[5] ، أي من الرسم ، وهو في الأكثر ، فهذا الخطأ في الرسم القديم للكتابة ، هو الذي جعل العلماء يسمونه لحناً ، وهو ليس بلحن في الأصل، وانما جاء اللحن من قراءة القراء بألحانهم ، أي على حسب لغاتهم،وإلا فلا يعقل تطاولهم على القرآن بقراءتهم له قراءة مخالفة للإعراب ولما نزل به الوحي. وهكذا كان الأمر بالنسبة للمواضع الأخرى مثل : « اثنتا عشرة عيناً »[6] ، فقد قرىء بسكون الشين وهي لغة تميم » ، وكسرها وهي لغة الحجاز ، وفتحها وهي لغة[7]، ومثـل (الصراط) ، فقد قرأت بالسين وبالصاد ، والقراءتان لهجتا قبائل ، ومثل (حتى) ، فقد قرئت (عتى) ، قرأها (ابن مسعود) على لسانه ، إذ كان من هذيل .

وقد ذكر (المعري) أمثلة على قراءات في القرآن قرأها علماء مشهورون مثل (حمزة بن حبيب)،هي منكرة في نظر غيره من العلماء ، « ينكرها عليه أصحاب العربية، كخفض الأرحام في قوله تعالى : واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، وكسر الياء في قوله تعالى : وما أنتم بمصرخي ، وكذلك سكون الهمزة في قوله تعالى : استكباراً في الأرض ومكر السيء »،وجاء بأمثلة أخرى من قراءات غيره للقرآن[8].

والخلاف الذي نلاحظه في أمور النحو بين علماء أهل البصرة وعلماء أهل الكوفة، في مثل عمل الأسماء والأدوات : أدوات الجرّ ، أو الخفض ، وأدوات النصب، وأدوات الجزم ، وأمثال ذلك ، هو في حدّ ذاته دليل على وجود إعراب متعدد

---

١ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٠) .
٢ طه ، ٦٣ .
٣ النساء ، الآية ١٦٢ .
٤ المائدة ، الآية ٦٩ .
٥ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٩) .
٦ البقرة ، الآية ٦٠ .
٧ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٧) .
٨ رسالة الغفران (٣٦٧ وما بعدها) .

للعرب ، وقف العلماء على شيء يسير منه ، فوقعوا من ثم في بلبلة من أمره ، بسبب عدم اهتمامهم بأمر تلك اللغات ، واقتصارهم في جمعهم قواعد النحو على لهجات الأعراب الذين اتصلوا بهم ، فظهر لهم وكأنه نشاز ، ولو فطنوا يومئذ الى أنه من إعراب لغات ، لكان حكمهم حكماً آخر ولا شك . ومن هؤلاء الأعراب الذين أخذ عنهم البصريون : قيس ، وتميم ، وأسد ، « فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الإعراب ، والتصريف . ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[1] ، والقبائل المذكورة باستثناء الطائيين ، هم من مجموعة (مضر) ، وليس فيها قبيلة من (ربيعة) ، لذلك نستطيع القول ان العربية قد بنيت على لهجات مضر ، وحيث أن علماء اللغة أهملوا لغات القبائل الأخرى وبينها قبائل من مضر كذلك ، فلم يأخذوا منها إلا عرضاً ، تولد من عملهم هذا بناء العربية على تلك اللهجات وبموجب اجتهاد واستقصاء أولئك العلماء، فظهر من أجل ذلك الغريب والنشاز ، والاختلاف في الإعراب ، الذي أشار الى قسم منه العلماء ، وهو الذي احتاجوا اليه للاستشهاد به في الشواهد والمناظرات ، وأكثره من لغات مضر ، وأهملوا الباقي ، ولو هم سجلوا كل ما عرفوه من نشاز لتجمع من ذلك تراث كبير كثير من تراث اللغات الجاهلية من اختلاف في لغة وقواعد اعراب وصرف .

لقد تمسكت القبائل بقواعد ألسنتها حتى في الاسلام ، فكان أفرادها ينطقون بلهجتهم ، من ذلك ما ذكره (الزجاجي) من اختلاف (عيسى بن عمر) الثقفي ، و (أبو عمرو بن العلاء) في رفع أو نصب : « ليس الطيب إلا المسك » ، ومن احتكامها الى (أبي المهدي) ، فلما ذهبا اليه وجداه لا يرفع ، فلما حاولا اقناعه بالرفع ، أبى عليهما ذلك وقال : « لا ، ليس هذا من لحني ولا من لحن قومي » ، فلما ذهبا الى (المنتجع) التميمي ، وجداه لا ينصب وأبى إلا الرفع ، وذكر (الزجاجي) : « ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، ولا في الأرض تميمي إلا وهو يرفع »[2] . وقع ذلك في الاسلام وبعد تثبيت القواعد ، وكان هذا حال قبائل الحجاز ، وحال تميم في الجاهلية ولا شك،

---

١ السيوطي ، الاقتراح (١٩) .
٢ مجالس العلماء (١ وما بعدها) .

فهل يعد هذا الاختلاف دلالة على عدم وجود اللحن عند أهل الجاهلية ، أم يعدّ دليلاً على وجوده عندهم ؟

لقد أدى اقتصار العلماء في أخذهم العربية عن القبائل التي ذكروها وفي تمسكهم برأيهم في أن تلك القبائل ، هي صاحبة اللغة الفصيحة ، الى نبذ اللهجات العربية الأخرى ، لاعتبارهم اياها لهجات مستقبحة ، ولغات حشوية ، فخسرت العربية بذلك خسارة كبرى ، وظهر بسبب ذلك التنابذ في مذاهب علماء العربية ، بسبب اعتمادهم على لغات معينة محدودة ، وليس على كل اللغات العربية القريبة من لغة القرآن ، ليتمكنوا بذلك من استقرائها كلها واستنباط القواعد الكلية منها .

ومن جملة الأمور التي يجب أن نشير اليها ونتنبه اليها ، هو أن علماء العربية حين كانوا يشيرون الى لهجة من اللهجات ، مثل لهجة أهل الحجاز ، أو لهجة هذيل ، أو تميم ، وأمثالها ، كانوا يشيرون اليها بالتعميم ، مثل : جاء هذا على لغة أهل العالية : أو على لغة أهل الحجاز ، أو على لغة تميم ، مع ان حكمهم هذا لم يؤخذ من دراسة لغة القبيلة المشار اليها ، وانما أخذ من لسان أعرابي أو أكثر ، بينما الحكم على منطق إنسان واحد أو اثنين أو ثلاثة ، لا يمكن أن يتخذ حجة للحكم على منطق قبيلة بأكملها ، أضف الى ذلك أن القبائل الكبيرة ، كانت موزعة منتشرة ، والحجاز ، وحده ذو قبائل كثيرة ، متعارضة اللغات ، فكيف يقال : جاء هذا على لغة أهل الحجاز ، وكانت أسد وتميم متجزئة منتشرة في مناطق واسعة ، وهذا مما جعل لهجاتها تتأثر بالاقليمية وبالجوار ، فلم يكن لها لسان واحد ، غير أن علماء العربية لم يفطنوا الى هذه الأمور ، فوقعوا من ثم في أخطاء ، فأخذوا من بعض تميم ، ونسبوا ما أخذوه على كل تميم مثلاً .

ثم إنهم لم يستخلصوا النحو من القرآن رأساً ، وقد كان عليهم الاعتماد عليه أو لأنهم انما اتخذوا النحو لصيانة اللسان من الخطأ في القرآن وفي لغة التنزيل ، وإنما مالوا عنه الى الشعر ، والى كلام أعراب من قبائل معينة وثقوا بصحة كلامهم وزاد ابتعادهم عن الاسلوب العلمي ، بأخذهم بالعصبية العلمية ، فظهرت الآراء المتعصبة للمدن وللعلماء ، فهذا رجل محب للبصرة ، مفرط في حبها ، لا يقدم على علمائها عالم ، وهذا كوفي متعصب لنحو الكوفة ولعلم الكوفة ، لا يقدم على أهل الكوفة أحداً . ثم زاد هذا التعصب التعصب للعلماء ، فهذا تلميذ عالم يتعصب له ، ويأخذ برأيه كأنه رأى نزل من السماء ، وهذا عالم كبير يعيب علم عالم

منافس له ، ويتهجم هو وتلامذته عليه ، وهذا نحوي يعيب نحو الآخرين ، وقد دفعت هذه العصبية ، بعض العلماء الى الابتعاد عن العلم ، باللجوء الى الوضع والافتعال والاتهام ، لإفحام الخصوم ، حتى جاء بعضهم بشواهد نحوية وصرفية مفتعلة ، وبشهود من الأعراب ، تكلموا باطلاً لتأييد عالم على عالم ، وفي المسألة الزنبورية التي وقعت بين سيبويه والكسائي ، وفي مجالس الجدل التي تجادل فيها العلماء في محضر الخلفاء في قضايا النحو واللغة والشعر أمثلة عديدة على ما أقول[1] .

وعندي أن ما نسب الى بعض الشعراء الجاهليين من وقوعهم في أغلاط نحوية أو لغوية أو شعرية ، لم يكن خطأ بالنسبة لهم ، وإنما بان الخطأ عند علماء العربية ، حين قاسوا الشعر بمقياس واحد ، هو العربية التي جمعوا قواعدها ودونوها في الاسلام ، والعروض الذي ضبطه (الخليل) ومن جاء بعده ، ولو كانوا قد درسوا لهجات القبائل ، وعلموا أن الشعراء ، كلهم أو بعضهم كان ينظم شعره بلسانه ، وان الشعر الجاهلي ، جاء بألسنة متعددة ، لعلموا إذن سرّ وقوع هذا الاختلاف في الشعر ، ولأراحوا أنفسهم من دراسة كثير من هذا الغريب والشاذ الذي أدخلوه كتب النحو واللغة ، بعد صقل الشعر وتهذيبه . وقد فطن الى ذلك (المعري) ، فاعتذر عما نسب الى (امرىء القيس) من خروج عن القواعد بسوء الرواية وبالتصحيف[2] ، وبأنهم في الجاهلية كانوا لا يعدّون ذلك خروجاً على قاعدة ، وانما كان ذلك شيئاً مألوفاً عندهم،فلما جاء « المعلمون في الاسلام » « غيروه على حسب ما يريدون »[3] ، وجعله يقول عن (الاقوياء) : « لا نكرة عندنا في الإقواء[4] واعتذر عما نسب الى غيره من الشعراء من عيوب أحصاها علماء الاسلام عليهم ، بأن قال إن هذه لم تكن من العيوب في أيامهم ، وإنما هي صارت عيوباً في الإسلام .

لقد اعتمد علماء العربية على الشعر الجاهلي وعلى لغات العرب التي وثقوا منها في جمع قواعد العربية وتثبيتها ، كما استشهدوا بالقرآن ، الذي نزل بلسان عربي مبين ، والذي ثبت العربية . أما (الحديث) ، فقد اختلفوا في جواز الاستشهاد

---

١ راجع مجالس العلماء
٢ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعدها) .
٣ رسالة (٣١٧ وما بعدها) .
٤ رسالة (٣٢٠) .

به ، وذلك لأن الحديث لم ينقل كما سمع من النبي وانما روي بالمعنى ، ولهذا فإن أئمة النحو المتقدمين من المصرين : البصرة والكوفة لم يحتجوا بشيء منه ، وقد جوز بعض العلماء الاستشهاد به على تقدير التسليم بأن النقل كان بالمعنى ، انما كان في الصدر الأول ، وقبل تدوينه في الكتب وقبل فساد اللغة ، وغايته تبديل لفظ بلفظ ، ولهذا يجوز الاحتجاج به ، لأن السلائق العربية لم تكن قد فسدت بعد . وموضوع الخلاف ، هو ان النقل لم يكن بالحرف ، وانما بالمعنى ، ولو كان بالأول لما وقع الخلاف في وجوب الاستشهاد به ، ولجرى ذلك مجرى القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية بموجبه. قال « سفيان الثوري : إن قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت ، فلا تصدقوني ، انما هو المعنى . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى »[1] . وقد وقع اللحن كثيراً فيما روي من الحديث لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو، فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون، ودخل في كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب ، فدخل من ثم هذا اللحن في الحديث، ولهذا امتنع علماء المصرين من الاستشهاد بالحديث في النحو . وقد جوز بعض المتأخرين الاستشهاد بالأحاديث والأمثال النبوية الفصيحة ، ولم يجوزوا الاستشهاد في غير ذلك[2] للسبب المذكور .

هذا وقد ألّف العلماء كتباً عديدة في إعراب القرآن وفي معانيه وغريبه، وصل بعض منها الينا . وقد أشار (ابن النديم) الى أسماء عدد من تلك المؤلفات[3] . وهي مرجع هام بالنسبة لعلماء العربية ، لورود آراء لغوية ونحوية قيّمة فيها، تفيد في شرح النحو العربي .

---

١ الخزانة (١/٥ وما بعدها) .
٢ الخزانة (١/٦ وما بعدها) .
٣ الفهرست (٦٠) .

الفصل الخامس والاربعون بعد المئة

النحو

والنحو في اللغة الطريق والجهة والقصد،ومنه نحو العربية . وهو اعراب الكلام العربي . أخذ من قولهم : انتحاه إذا قصده . وهو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من اعراب وغيره ليلحق به من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها ، وإن لم يكن منهم أو ان شذ بعضهم عنها ردّ به اليها . وهو في الأصل مصدر شائع ، أي نحوت نحواً ، كقولك قصدت قصداً ثم خص به انتحاء هذا القبيل مع العلم . وقيل لقول علي بن أبي طالب بعدما علم الأسود الاسم والفعل وأبواباً من العربية : « انح هذا النحو »[1] . أو لأن أبا الأسود لما وضع ما وضع في النحو وعرضه على (علي) ، قال (علي) له : « ما أحسن هذا النحو الذي نحوتَ ! ولذلك سمي النحو نحواً »[2] . ولكننا نجد (الجاحظ) يشير الى وجود اللفظة في أيام (عمر) ، إذ يقول : « وقال عُمر رضي الله عنه: تعلموا النحو كما تعلّمون السنن والفرائض »[3] ، ويشبه هذا الخبر خبراً آخر نسب

---

١ اللسان (١٥/٣١٠) ، (نحا) ، تاج العروس (١٠/٣٦٠) ، (نحا) ، الفهرست (ص ٦٥) ، (المقالة الثانية من كتاب الفهرست) ، (ابن الانباري نزهة) (٣ وما بعدها) ، المثل السائر (٧) ، الجمحي ، طبقات (ص ٥) ، ابن خلكان (١/٢٤٠)، ارشاد (١/٢٨٠) .

٢ ابن الانباري ، نزهة (٤ وما بعدها) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ، (القاهرة ١٩٦٧ م) .

٣ البيان والتبيين (٢/٢١٩) .

اليه أيضاً ، فقد ذكروا أنه قال : « تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه »[1]، وانه قال : « تعلموا الفرائض والسنن واللحن ، كما تعلمون القرآن »[2] . ويظهر أن الكتّاب قد صحفوا في خبر (عمر) ، فخلطوا بين (اللحن) و (النحو) ، وعلى كل فإن بين اللفظتين صلة . وإذا صح خبر (الجاحظ) ، واعتبرنا لفظة (النحو) لفظة صحيحة غير محرفة ، دلت على وجود هذه التسمية علماً لهذا العلم في أيامه ، وقبل أيامه ، أي في أيام الجاهليين .

والجمهور من أهل الرواية ان النحو علم ظهر في الاسلام . ظهر بظهور الحاجة الماسة اليه لضبط اللسان وصيانته من الخطأ ، ولتعليم الأعاجم نمط الكلام بالعربية. ورجع أكثرهم مصدره وأساسه الى الإمام (علي بن أبي طالب) ، ويقولون ان أبا الأسود الدؤلي (٦٩ هـ) أخذ هذا العلم عنه . وان الإمام ألقى عليه شيئاً من أصول النحو . فاستأذن التلميذ أستاذه أن يصنع نحو ما صنع ، فأذن له به، فسمي ذلك نحواً[3] . وذكر بعضهم ان الإمام دفع الى أبي الأسود رقعة مكتوباً فيها : « الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما انبىء به ، والحرف ما أفاد معنى . واعلم ان الأسماء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس فيما ليس بظاهر ولا مضمر . ثم وضع أبو الأسود بابي العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام ، الى أن وصل الى باب إن وأخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضها على عليّ أمره بضم لكن اليها ، وكلما وضع باباً من أبواب النحو عرضه عليه »[4] . وذكر بعض آخر ان أول من أسس العربية وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها ، أبو الأسود الدؤلي ، وضع العربية « حين اضطرب كلام العرب فغلبت السليقة ، فكان سراة الناس يلحنون ، فوضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب ،

---

١ الزينة (١١٧ وما بعدها) .

٢ الامالي ، للقالي (١/٥) ، الاتقان (٢/٢٦٠) .

٣ الفهرست (٦٦) ، الروض الانف (١/٩٦) ، ابن خلكان (١/٦٦٢) ، الحلبي ، الزبيدي ، طبقات (١٣ وما بعدها) ، الفائق (١/٦١١) ، طبقات ، ابن سلام (٥)، ياقوت ارشاد (٤/٢٨٠) ، المثل السائر (٧) .

٤ ضحى الاسلام (٢/٢٨٥) ، (القاهرة ١٩٦١) ، ابن الانباري ، نزهة (٤ وما بعدها) .

والجزم »[1] . وقال (ابن قتيبة) : « وهو أول من وضع العربية »[2] . وذكر (ابن حجر) ، انه أول من وضع العربية ونقط المصاحف[3] . وروى (ابن النديم) ان أربعة أوراق ، وجدت فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود الدؤلي، وكانت بخط (يحيى بن يعمر) ، وتحت هذا خط علان النحوي ، وتحته هذا خط النضر بن شميل[4] . ففي هذه الأوراق دلالة على ان هذه الأوراق من كلام (أبي الأسود) ، وانه كان صاحب علم النحو .

وروى (ابن النديم) رواية أخرى ، ذكر فيها أن (الطبري) قال : « إنما سمي النحو نحواً لأن أبا الأسود الدؤلي قال لعلي عليه السلام ، وقد ألقى عليه شيئاً من أصول النحو . قال أبو الأسود : واستأذنته أن أصنع نحو ما صنع ، فسمي ذلك نحواً . وقد اختلف الناس في السبب الذي دعا أبا الأسود الى ما رسمه من النحو . فقال أبو عبيدة أخذ النحو عن علي بن أبي طالب أبو الأسود ، وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن عليّ كرم الله وجهه الى أحد ، حتى بعث اليه زياد أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً ويعرف به كتاب الله ، فاستعفاه من ذلك حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ إن الله بريء من المشركين ورسوله بالكسر ، فقال : ما ظننت أن أمر الناس آل الى هذا فرجع الى زياد ، فقال : افعل ما أمر به الأمير فليبغني كاتباً لقناً يفعل ما أقول ، فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه فأتى بآخر . قال أبو العباس المبرد أحسبه منهم ، فقال أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وان ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف . فهذا نقط أبي الأسود . قال أبو سعيد رضي الله عنه ويقال : إن السبب في ذلك أيضاً أنه مرّ بأبي الأسود سعد ، وكان رجلاً فارسياً من أهل زندخان ، كان قدم البصرة مع جماعة من أهله فدنوا من قدامة بن مظعون وادعوا أنهم أسلموا على يديه ، وانهم بذلك من مواليه . فمر سعد هذا بأبي الأسود وهو يقود فرسه . فقال : مالك يا سعد لمَ لا تركب ؟ قال : إن فرسي ضالع أراد

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧) .
٢ المعارف (ص ٣٣٤) .
٣ الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
٤ الفهرست (ص ٦٧ وما بعدها) .

ظالماً . قال فضحك به بعض من حضره . فقال أبو الأسود هؤلاء الموالي قد رغبوا في الاسلام ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة ، فلو عملنا لهم الكلام . فوضع باب الفاعل والمفعول »[1] .

« وقيل لأبي الأسود : من أين لك هذا العلم ؟ – يعنون النحو – فقال : لقنت حدوده من عليّ بن أبي طالب – عليه السلام – وكان أبو الأسود من القراء ، قرأ على أمير المؤمنين عليه السلام »[2] .

وتذكر رواية أخرى ، ان (أبا الأسود) دخل على (علي) فوجده مطرقاً مفكراً ، فسأله عن سبب ما به ، فذكر له أمر اللحن وما فشا من الخطأ في ألسنة الناس ، وانه يريد أن يصنع كتاباً في أصول العربية ، فانصرف عنه ، وهو مغموم ، ثم عاد اليه بعد أمد ، فألقى الإمام عليه رقعة كتب فيها : « الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما أفاد معنى » ، ثم أمره أن ينحو نحوه ، وان يزيد عليه ، فجمع (أبو الأسود) أشياء وعرضها عليه ، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكر منها : إن ، وأن ، وليت ، ولعل ، وكأن ، ولم يذكر لكن ، فأشار الإمام عليه بإدخالها عليها[3] .

وذكر (ابن الأنباري) (٥٧٧ هـ) ، « ان من وضع علم العربية، وأسس قواعده ، وحدد حدوده ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأخذ عنه أبو الأسود » . « وسبب وضع علي رضي الله عنه لهذا العلم، ما روى أبو الأسود ، قال : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فوجدت في يده رقعة ، فقلت : ما هذه يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال : اني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء – يعني الأعاجم – فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون اليه ، ويعتمدون عليه ، ثم ألقى إليّ الرقعة ، وفيها

---

١ الفهرست (٦٥ وما بعدها) ، القفطي ، انباه الرواة (٦/١) ، (ذكر أول من وضع النحو) ، أخبار النحويين ، للسيرافي (١٦ وما بعدها) ، الاصابة (٢٣٣/٢) ، (٤٣٢٩) .

٢ القفطي ، انباه الرواة (١٥/١) .

٣ القفطي (٤/١) ، (ذكر أول من وضع النحو) ، معجم الادباء (٤٩/١٤) ، ابن الانباري ، نزهة الالباء (٥) .

مكتوب : الكلام كله اسم ، وفعل ، وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبئ به ، والحرف ما جاء لمعنى . وقال لي : أنــح هذا النحو ، وأضف اليه ما وقع اليك ، واعلم يا أبا الأسود ان الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر ، وأراد بذلك الاسم المبهم .

قال أبو الأسود: فكان ما وقع إلي : إن وأخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضتها على علي رضي الله عنه ، قال لي : وأين لكنّ ؟ فقال ما حسبتها منها،فقال : هي منها فألحقها ، ثم قال : ما أحسن هذا النحو الــذي نحوت ، فلذلك سمي النحو نحواً[1] .

وتذكر روايـة أن (أبا الأسود) ، وضع بابـي العطف والنعت ، ثم بابـي التعجب والاستفهام ؛ الى أن وصل الى باب إن وأخواتها[2] .

وهناك رواية تنسب الى الأصمعي تذكر أنه قال : « سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : جاء أعرابي الى علي عليه السلام ، فقال ، السلام عليك يا أمير المؤمنين. كيف تقرأ هذه الحروف ؟ لا يأكله إلا الخاطون ، كلنا والله يخطو ، قـال : فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال : يا أعرابي : لا يأكله إلا الخاطئون . قال : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كان الله ليظلم عباده ، ثم التفت أمير المؤمنين الى أبـي الأسود الدؤلي ، فقال : إن الأعاجم قد دخلت في الدين كافة فضع للناس شيئاً يستدلون بـه على صلاح ألسنتهم ، ورسم لــه الرفع والنصب والخفض »[3] .

و « روي من حديث علي رضي الله عنه مع الأعرابـي الذي أقرأه المقرىء : إن الله بريء من المشركين ورسولِه : حتى قال الأعرابـي : برئت مـن رسول

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٤ وما بعدها) .
٢ ابن الانباري ، نزهة (٥) ، (حاشية رقم ٢) .
٣ الزينة في الكلمات الاسلامية والعربية ، لابي حاتم أحمد بن حمدان الرازي (٧٢) ، (تحقيق حسين بن فيص الله الحرازي) ، (دار الكتاب العربي) ، (١٩٥٧) ، عبد العال سالم مكرم ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٢) ، ابن الانباري، نزهة (٨) .

الله ، فأنكر ذلك علي عليه السلام ، ورسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه ما لا يجهل موضعه »[1] .

ونجد رواية أخرى تذكر أن (أبا الأسود) ، كان أول من وضع العربية ، وأول من أملى في الفاعل والمفعول به ، والمضاف ، والنصب ، والرفع ، والجر ، والجزم . وكان قد أخذ العلم من (عليّ بن أبي طالب) . وحدث ان ابنته لحنت في فعل التعجب ، فقالت لأبيها وكان اليوم حاراً شديد الحرّ : « ما أشدُّ الحر » ، وكانت تقصد « ما أشدّ الحر » ، أي على باب التعجب . فلما علم (أبو الأسود) بخطأها ، نبهها الى موضع الخطأ . ثم ذهب الى (زياد) والي البصرة ، وطلب منه السماح بوضع علم النحو ، فلم يسمح له . ولما أخطأ رجل أمام (زياد) ، كبر عليه ذلك فوضع (أبو الأسود) قواعد النحو . فأخذ عنه (الليثي) هذا العلم ووسعه ، ثم وسعه (عيسى بن عمر) في كتابيه الجامع والمكمل[2] .

ورويت قصة وضع النحو بشكل آخر ، « روي أيضاً ان زياد بن أبيه بعث الى أبي الأسود ، وقال له : يا أبا الأسود، إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب ، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ، ويعرب به كتاب الله تعالى ! فأبى أبو الأسود ، وكَرِه إجابة زياد الى ما سأل ، فوجه زياد رجلاً وقال له : اقعد على طريق أبي الأسود ، فإذا مر بك ، فاقرأ شيئاً من القرآن ، وتعمّد اللحن فيه . فقعد الرجل على طريق أبي الأسود ، فلما مر به رفع صوته فقرأ : ان الله بريء من المشركين ورسوله » بالجر ، فاستعظم أبو الأسود ذلك ، وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ! ورجع من حاله الى زياد ، وقال : يا هذا ، قد أجبتك الى ما سألت ، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن ، فابعث إلي ثلاثين رجلاً ، فأحضرهم زياد ، فاختار منهم أبو الأسود عشرة ، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس ، فقال :

---

١ الخصائص (٢/٩) .

٢ القفطي ، انباه الرواة على أنباه النحاة (١/١٦) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ، (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م) ، الزبيدي ، طبقات النحويين واللغات (١٣) ، (القاهرة ١٩٥٤) ، طبقات ، لابن سلام (٥) ، العسكري ، المصون (١١٨) ، John A. Haywood, Arabic Lexicography, Leiden, 1965, p. 12. f.

خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد ، فإذا فتحتُ شفتي فانقط واحدة فوق الحرف ، واذا ضممتها فاجعل النقطة الى جانب الحرف ، واذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله ، فإن أتبعتُ شيئاً من هذه الحركات غُنة فانقط نقطتين »[1] .

« وقيل : إنه دخل الى منزله ، فقالت له بعض بناته : ما أحسنُ السماء ! قال : أي بنية نجومها ، فقالت : إنى لم أرد أي شيء منها أحسن ؟ وإنما تعجبت من حسنها ؛ فقال : إذاً فقولي ما أحسنَ السماء ! فحينئذ وضع كتاباً »[2].

و « قيل : وأتى أبو الأسود عبد الله بن عباس ، فقال : إني أرى ألسنة العرب قد فسدت ؛ فأردت أن أضع شيئاً لهم يقوّمون به ألسنتهم . قال : لعلك تريد النحو ؛ أمـا إنه حق ، واستعن بسورة يوسف »[3] . و « قال أبو حرب بن أبي الأسود : أول باب رسم أبي من النحو باب التعجب . وقيل : أول باب رسم باب الفاعل والمفعول ، والمضاف ، وحروف الرفع والنصب والجر والجزم»[4].

« ومن الرواة من يقـول : إن أبا الأسود هو أول من استنبط النحـو ، واستخرجه من العدم الى الوجود ، وأنه رأى بخطه ما استخرجه ، ولم يعزه الى أحد قبله »[5] . وكان « أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها »[6] . وروي عن (أبي سلمة موسى بن اسماعيل) « عن أبيه ، قال : كان أبو الأسود أول من وضع النحو بالبصرة »[7] .

وتذكر رواية ان (أبا الأسود) الدؤلي ، انما وضع النحو بأمر من الخليفة (عمر) ، روت ان أعرابياً قدم المدينة في خلافته ، فقال : « من يُقرئني شيئاً مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأقرأه رجل سورة براءة ، فقال : « ان الله بريء من المشركين ورسولِه » بالجر ، فقال الأعرابي : أوَ قد برىء الله من رسوله ! إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ! فبلغ عمر رضي الله عنه مقالة الأعرابي ، فدعاه فقال : يا أعرابي : أتبرأ من رسول الله !

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٩) ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
٢ القفطي ، انباه الرواة (١/١٦) ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
٣ المصدر نفسه .
٤ كذلك .
٥ القفطي ، انباه الرواة (١/٧) .
٦ المصدر نفسه (١/١٤) .
٧ ابن الانباري ، نزهة (١٠) .

فقال : يا أمير المؤمنين ، اني قدمت المدينة ، ولا علم لي بالقرآن ، فسألت من يقرئني ، فأقرأني هذا سورة براءة ، فقال : إن الله بريء من المشركين ورسوله ، فقلت : أو قد برىء الله تعالى من رسوله ! إن يكن برىء من رسوله ، فأنا أبرأ منه . فقال له عمر رضي الله عنه : ليس هكذا يا أعرابي ، فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « ان الله بريء من المشركين ورسولُه » ، فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ ممن برىء الله ورسوله منه . فأمر عمر رضي الله ألا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود أن يضع النحو »[1] .

وذكر أن (عمر بن الخطاب) كتب الى (أبي موسى) الأشعري ، كتاباً فيه : « أما بعد : فتفقهوا في الدين وتعلموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرّية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب»[2].

ويفهم من هذا الكتاب ، أن (أبا الأسود) ، كان على علم بالنحو وبالإعراب قبل أيام (علي) ، ولهذا طلب الخليفة من عامله أن يكلف (أبا الأسود) بتعليم أهل البصرة الإعراب .

ويظهر من الرواية التي ذكرتها عن التقاء (أبي الأسود) بعبدالله بن عباس، وقوله له : « إني أرى ألسنـــة العرب قد فسدت ؛ فأردت أن أضع شيئاً لهم يقوّمون به ألسنتهم » ومن رد (عبدالله بن عباس) عليه بقوله له : « لعلك تريد النحو »[3] ، أن (ابن عباس) ، كان على علم بالنحو ، ودليل ذلك نصه على اسمه ، مما يدل على أنه كان معروفاً . وذلك إن جاز لنا التصديق بصحـــة هذه الرواية ، التي أرى أنها من المصنوعات .

وكان (أبو الأسود) مثل غيره من العرب الفصحاء يكره اللحن واللحانين . روي عنه أنه ذكر اللحن ، فقال : « إني لأجد للحن غمزاً كغمز اللحم »[4] .

ولأبي الحسن أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ للهجرة ، وهو كما نعلم من مشاهير علماء اللغة ، رأي طريف في منشأ هذا العلم خلاصته : ان أبا الأسود كان

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٨) ، الكشاف ، للزمخشري (١٩١/٢) .
٢ القفطي ، انباه الرواة على انباه النحاة (١٦/١) ، خورشيد أحمد فارق ، حضرت عمركي سركاري خطوط (دهلي ١٩٥٩) ، (ص ١٣٩ ومـــا بعدها) ، (القسم العربي) ، John A. Haywood, Arabic Lexicography, p. 14.
٣ القفطي (١٦/١) .
٤ عيون الاخبار (١٥٨/٢) .

أول من وضع العربية ، لكن هذا العلم قد كان قديماً ، وأتت عليه الأيام ،وقلّ في أيدي الناس ، ثم جدده هذا الإمام[1] . فأبو الأسود الدؤلي هو مجدد هذا العلم وباعثه ، وليس موجده ومخترعه .

فنحن اذن أمام رأي جديد ، رأي يرجع علم العربية الى ما قبل الاسلام وكفى لكنه لم يفصل ولم يشرح ولم يتعرض لموضوع متى كان ظهور هذا العلم في القديم وكيف وجد وهل كان للألسنة الأعجمية كاليونانية أو السريانيـــة أثر في ظهوره ونشوئه ؟ ثم انه لم يتعرض للأسباب التي جعلت الأيام تأتي عليه حتى قـــلّ في أيدي الناس ، الى أن ظهر أبو الأسود فأعاده الى الوجود ، ولم يذكر كيف عثر أبو الأسود على هذا العلم ومن لقنه به حتى بعثه وجدده ؟

تعرض (ابن فارس) لبحث منشأ علم النحو في أثناء كلامه على الخط العربي فقال : « وزعم قوم ان العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وانهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً »[2] . وهو يرى ان رأيهـــم باطل ، وان بين العرب من كان يقرأ كما كان بينهم من كان أمياً ،وجاء بأمثلة في تفنيد دعواهم ، ثم خلص الى هذه النتيجة : « فإنا لم نزعم ان العرب كلها — مدراً ووبراً — قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم ، فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة »[3] . ثم قال : « والذي نقوله في الحروف ، هو قولنا في الإعراب والعروض،والدليل على صحة هذا وان القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرىء قصيدة الحطيئة التي أولها :

شاقتك أظعان الليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئـــة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها ، لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية،

---

١ الصاحبي (ص ٣٧ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (ص ٣٥) .
٣ (ص ٣٦) .

وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول: إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأتت عليهما الأيام وقلاّ في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان . وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب[1] .

وقال (ابن فارس) : « ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم العربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء ، والهمز ، والمد ، والقصر ، فكتبوا ذوات الياء بالياء وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة اذا كان ما قبلها ساكناً في مثل : الخبء ، والدفء ، والملء »[2] .

وقد استخدم (ابن فارس) لفظة (العربية) في معنى : الإعراب . وذكر لفظة (النحو) قبل كلمة : (الإعراب) ، حيث قال كما ذكرت ذلك قبل قليل : « وانهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً ». وذكر غيره أيضاً ان (أبا الأسود) « أول من وضع العربيـــة ، و « أول من نقط المصحف ووضع العربية »[3] . وقد استنتج المرحوم (أحمد أمين) من ذلك الاستعمال انهم يعنون بالعربية هذه العلامات التي تدل على الرفع والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون والتي استعملها أبو الأسود في المصحف،وان هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعد وسمّوا كلامهم (نحواً) سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبـي الأسود وقالوا : انه واضع النحو للشبه في الأساس بـــين ما صنع وما صنعوا ، وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً »[4] . ففرق (أحمد أمين) بين (العربية) و (النحو) ، وجعل للعربية سابقة على علم النحو ، وجعل النحو وليداً ولد من العربية . وهو رأي لا يتفق مع رأي (ابن فارس) ، الذي نص على النحو بذكر اسمه ، كما نص على الإعراب من بعده .

هذا هو المشهور المعروف المتداول بين أكثر الناس عن منشأ علم النحو . وقد تعرض (ابن النديم) لهـــذا الموضوع فقال : « قال محمد بن اسحاق : زعم أكثر العلماء ان النحو أخذ عن أبـي الأسود الدؤلي ، وان أبا الأسود أخـذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب عليه السلام » ، ثم روى روايات أخرى ،

---

١ الصاحبي (ص ٣٧ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (٣٩) .
٣ ضحى الأسلام (٢/٢٨٧) ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
٤ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧) .

تذكر ان غيره قام برسم النحو ، إذ قال : « وقال آخرون رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلي ، ويقال الليثي . قرأت بخط أبي عبدالله بن مقلة عن ثعلب ، انه قال : روى ابن ابي لهيعة عن أبي النضر ، قال : كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية ، وكان أعلم الناس بأنساب قريش وأخبارها وأحد القراء »[1].

وقد رد (ابن الأنباري) على من ذهب الى أن علم النحو من صنع رجل آخر غير (أبي الأسود) ، إذ قال : فأما زعم من زعم ان أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ونصر بن عاصم فليس بصحيح ، لأن عبد الرحمن بن هرمز ، أخذ النحو عن أبي الأسود ، وكذلك أيضاً نصر بن عاصم أخذه عن أبي الأسود ، ويقال عن ميمون الأقرن »[2] . وكان قد ذكر ما ورد في الأخبار من قيام (أبي الأسود به) ، ثم رجحها على غيرها بقوله : « والصحيح ان أول من وضع النحو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لأن الروايات كلها تُسنِد الى أبي الأسود ، وأبو الأسود يسند الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فإنه روي عن أبي الأسود انه سئل فقيل له : من أين لك هذا النحو ؟ فقال : لَقَّنْتُ حدوده من علي بن أبي طالب رضي الله عنه »[3] .

ويلاحظ ان الذين رجعوا سبب وضع النحو الى الخطأ في قراءة الآية : « إن الله بريء من المشركين ورسوله »[4] ، قد اختلفوا فيما بينهم في العهد الذي لحن فيه قارىء الآية في قراءتها ، فمنهم من جعله في عهد (عمر)[5] ، ومنهم من صيره في عهد (علي)[6] ، ومنهم من رجعه الى أيام (زياد بن أبيه) ، فأنت أمام رواية واحدة ، لكنك تراها وقد نسبت الى ثلاثة عهود،ومثل هذا الاختلاف أمر غير غريب بالنسبة الى مراجعي الموارد الاسلامية ، إذ نجد فيها أمثلة كثيرة من أمثاله ، ويظهر ان الرواة تلاعبوا في الخبر ، فنسبه كل واحد منهم الى عهد لغاية أرادها ، من هذا التحريف والتغيير .

---

١ الفهرست (ص ٦٥) .
٢ نزهة الالباء (١٠) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) .
٣ المصدر نفسه (١١) .
٤ التوبة ، الآية ٣ .
٥ نزهة (٨) .
٦ الخصائص (٩/٢) .

وقد رجح (أحمد أمين) نسبة النحو الى أبي الأسود ، اذ يقول : « ويظهر لي ان نسبة النحو الى أبي الأسود لها أساس صحيح ، وذلك ان الرواة يكادون يتفقون على ان أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط ،وانه ابتكر شكل المصحف ... وواضح ان هذه خطوة أولية في سبيل النحو تتمشى مع قانون النشوء ، ويمكن أن تأتي من أبي الأسود ، وواضح كذلك ان هذا يلفت النظر الى النحو .... وعلى هذا فمن قال ان أبا الأسود وضع النحو ، فقد كان يقصد شيئاً من هذا ، وهو انه وضع الأساس يضبط المصحف حتى لا تكون فتحة موضع كسرة ، ولا ضمة موضع فتحة ، فجاء بعدُ من أراد أن يفهم النحو على المعنى الدقيق ، فاخترع تقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف ، والاسم الى ظاهر ، ومضمر ، وغير ظاهر ولا مضمر ، وباب التعجب وباب إن »[1] .

وقال : « فالذي يظهر انهم يعنون بالعربية هذه العلامات التي تدل على الرفع والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون والتي استعملها أبو الأسود في المصحف ، وان هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعد وسموا كلامهم نحواً سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود ، وقالوا : انه واضع النحو للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنعوا ، وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً ... فالظاهر ان عمله كان في أول الأمر ساذجاً بسيطاً ، وهو وضع علامات الرفع والنصب وما اليها ولم يزد على ذلك ، فلما سمى العلماء بعدُ بعض ضروب الرفع فاعلاً ، وبعض ضروب النصب مفعولاً ، قالوا : ان أبا الأسود وضع باب الفاعل والمفعول ، وان كان أبو الأسود نفسه لم يعرف فاعلاً ولا مفعولاً ، بل ربما لم يعرف أيضاً رفعاً ولا نصباً ، فإنهم يروون انه قال لكاتبه : اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه ، وإن ضممت فمي فانقط بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت . وهو تعبير ساذج يتفق وزمن أبي الأسود »[2] .

ولإبراهيم مصطفى ، رأي قريب من رأي (أحمد أمين) . فهو يرى ان المصطلحات والقواعد التي ذكر ان (أبا الأسود) وضعها بأمر (علي) لا يمكن

---

١ ضحى الاسلام (٢٨٦/٢ وما بعدها) .
٢ ضحى الاسلام (٢٨٧/٢ وما بعدها) .

أن تتفق وزمنه ، لأن المصطلحات النحوية انما ظهرت في وقت متأخر . ويذكر ان الآراء النحوية ، لم تظهر أيضاً في عهده ، بدليل اننا لا نجد في كتاب سيبويه ولا في كتب النحو الأخرى رأياً له . ويستنتج من ذلك ان عمل أبي الأسود ، كان وضع الإعراب وضبط المصحف[1] .

وقد درس المستشرقون موضوع نشأة علم النحو وأصله ، فمنهم من قال انه نقل من اليونان الى بلاد العرب ، وقال آخرون برأي علماء العربية،من انه عربي الأصل والنجار ، وقد نبت كما تنبت الشجرة في أرضها . وتوسط آخرون ، فقالوا : انه كان من إبداع العرب ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق ، تعلموا أيضاً شيئاً من النحو ، وهو النحو الذي كتبه (ارسطوطاليس) ، وبرهان هذا ان تقسيم الكلمة مختلف ، قال (سيبويه) : « فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل » ، وهذا تقسيم أصلي، أما الفلسفة فيقسم فيها الكلام الى اسم وكلمة ورباط ، أي الاسم هو الاسم ، والكلمة هي الفعل ، كما يقال له في اللغات الأوروبية Verb ، والرباط هو الحرف، كما يقال له في اللغة الأوروبية Conjunction أي ارتباط ، وهذه الكلمات اسم وفعل ورباط ، ترجمت من اليوناني الى السرياني ، ومن السرياني الى العربي ، فسميت هكذا في كتب الفلسفة لا في كتب النحو ، أما كلمات اسم وفعل وحرف فإنها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت[2] .

ثم ان (القياس) هو من أهم الأسس والأصول في المنطق اليوناني ، وحيث انه كان من أهم أدوات علماء النحو في تفريع علم النحو ، حتى صار من مميزات مدرسة البصرة ، والبصرة غير بعيدة عن (جنديسابور) وعن مدارس نصرانية ، كان فيها علماء يدرسون علوم اليونان ، ومنها المنطق والنحو ، فلا يستبعد تأثر (أبي الأسود) الدؤلي ومن جاء بعده بهذه الدراسات ، ودليل ذلك ، هو ظهور هذا العلم في البصرة دون سائر المدن الأخرى ، ومنها مدن الحجاز مهد الاسلام .

ويرى (فون كريمر) ، ان ما يقال من أن ظهور اللحن ، كان السبب في

---

١ مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر (ص ٧١) ، (دسمبر ١٩٤٨ م) .
٢ ضحى الاسلام (٢٩٢/٢ وما بعدها) .

وضع النحو ، دعوى لا يعول عليها ، ولا أساس لها ، وانما هو وليـد الحاجة التي أحس بها الأعاجم من آراميين وفرس ، لتعلم العربية ، وللتكلم بها على وجه صحيح[1] .

وقد ألّف بعض المستشرقين بحوثاً في موضوع النحو العربي ومدارسه ، منهم المستشرق (فلوكـل)[2] ، و (هول)[3] ، و (رايت)[4] ، وغيرهم ، وقـد تطرقوا فيها الى قواعد العربية وآراء علمائها فيها .

وقد ذهب بعض المحدثين مذهب المستشرقين القائلين بتأثر النحو العربي بالنحو اليوناني ، وذلك لأمور ، منها : ان تقسيم الكلم المألوف المتبع في النحو ، هو تقسيم يوناني ، واعتبار القياس أصلاً من أصول النحو ، ووجود مدارس سريانية كانت تدرس علوم النحو في مدارسها عند ظهور الاسلام ، ووجود يونان وأديرة في العراق ، فهذه الأسباب وأشباهها تحمل الانسان عـلى القول ان النحو العربـي قد تأثر بالنحو اليوناني وبمنطق (ارسطو) خاصة ، لا سيما وان النحو قد ظهر في العراق ، وهو ملتقى الحضارات . وقد تأثر خاصة في عهد (الخليل بن أحمد) الذي كانت له صلات وثيقة مع العلماء السريان ، مثل حنين بن اسحاق وأضرابه ، حتى ذهب بعض الباحثين الى وقوف (الخليل) على اللغة اليونانية .

وقد ذهب (مصطفى نظيف) الى أن (يعقوب) الرهاوي ، كان من معاصري (أبي الأسود) الدؤلي ، وكان من تلامذة (سويرس سيبخت) ، ومن البارعين في الفلسفة والنحو والتأريخ ، ومن المؤلفين في النحو السرياني ، ومن الذين أدخلوا التنقيط والحركات . وكان في البصرة ، والبصرة ملتقى الثقافة ، وحولهـا أديرة ومدارس ، وهي غير بعيدة عن (جنديسابور) ، فلا يستبعد اذن تأثر (أبـي الأسود) بهذه التيارات اليونانية التي كانت هناك[5] .

---

١ فون كريمر ، الحضارة الاسلامية ، (٩٠) ، (تعريب مصطفى بدر) .

٢ Flügel G., Die Grammatischen Schulen der Araber, 1862.

٣ M. S. Howell, Grammer of the Classical Arabic Language, 7 Vols., Allahabad, 1880-1911.

٤ W. Wright, Arabic Grammer, Cambridge, 1896-8.

٥ مجلة المجمع اللغوي ، المجلد السابع (ص ٢٤٨) ، عبد العال سالم مكرم ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٥) .

وأنا على رأي (ابن فارس) القائل ان الإعراب كان قديماً عند العرب ، قدم معرفتهم بالحروف ، وان علم العربية كان قديماً ، ثم جدده (أبو الأسود الدؤلي) على نحو ما حكيته من قوله في ذلك قبل قليل[1]. وعندي ان علم (العربية) كان معروفاً في العراق ، وانه كان يدرس في مدارس الحيرة وعين التمر والأنبار وربما في مواضع أخرى ، كانت غالبية سكانها من العرب النصارى، كان يدرسه لهم رجال الدين ، الذين كانوا يتقنون الإرمية ، وكانوا قد أخذوا علومهم في النحو من اليونان ، بتأثير النصرانية ودراسة الأناجيل والكتب الدينية المؤلفة باليونانية . ولما كان أهل المواضع المذكورة من العرب ، فلا يستبعد ظهور جماعة من رجال الدين النصارى العرب ، اتخذت من مبادىء النحو التي وضعت للسريانية والمنقولة عن اليونانية ، قواعد لضبط العربية بموجبها ، كما ضبطوا الكتابة بها بالأبجدية التي صارت الأبجدية التي انتشرت بين أهل مكة ويثرب وأماكن أخرى. وبين هذه الأبجدية وبين العربية ، من حيث هي قواعد صلة متينة . فلا يستبعد قيام رجال الدين بتعليم العربية والخط للعرب ، لأنهم كانوا يقومون بالتبشير ، وكان من مصلحتهم نشر الكتابة بين من يبشرون بينهم ، وتعليمهم أصول اللغة، ليكون في وسع من يعتنق النصرانية تثقيف المشركين ، وكانت هذه طريقتهم في التبشير في المواضع الأخرى من العالم .

وأنا لا أستبعد احتمال وقوف (علي بن أبي طالب) ، أو (أبو الأسود) الدؤلي على تقسيم الكلم الى اسم وفعل وحرف . وقفا عليه باتصالهم بالحيرة أو بعلماء من أهل العراق كانوا على علم النحو وعلوم اللغة في ذلك العهد ، وقد كان ذلك في الأسس والمبادىء ، فلما جاء الاسلام ، وأخذ المسلمون علم العربية عن المتقدمين ، زادوا فيه وفرّعوا واستقصوا وقاسوا ، وأخذوا من كلام العرب ومن الشعر ، حتى تضخم النحو فبرز على الصورة التي نجدها في (كتاب) سيبويه وفي الكتب التي وضعت بعده .

ومما يؤسف له كثيراً ان المؤرخين اليونان واللاتين والسريان لم يذكروا أي شيء عن علوم العربية عند العرب ، وفي ضمنهم المؤرخون الذين أرخوا تأريخ الكنيسة والنصرانية ، بسبب انهم لم يكونوا يحفلون كثيراً بأمور العرب، وأكثر ما ذكروه

---

١ الصاحبي (٣٨ وما بعدها) .

عنهم انما تناول الغزوات التي كانت تقوم بها القبائل على حدود الانبراطوريتين ، فأضاعوا علينا بذلك فوائد كبيرة ، كان يمكن الاستفادة منها في تدوين تأريخ ظهور الكتابة وعلوم العربية عند العرب . أما الموارد الاسلامية ، فقد رأينا رأيها في أول ظهور النحو ، وقد رأيناه حاصل روايات مضطربة ، يكتنفها غموض ، ثم هي عاجزة في النهاية عن بيان كيفية توصل الإمام (علي) أو (أبو الأسود) الى استنباط هذا التقسيم الثلاثي للكلم ، ثم البحث في (العطف) و (النعت) والتعجب والاستفهام ، وباب إن وأخواتها ، والفاعل والمفعول ، ونحو ذلك من قواعد ، لا يمكن لإنسان استنباطها بمفرده من غير علم سابق له بقواعد اللغات ، مهما أوتي ذلك الانسان من ذكاء خارق وقوة إبداع !

وأنا لا أستطيع أن أتصور ان انساناً يستطيع أن يجلس بمفرده ثم يجيل النظر في محيط اللغة التي يتكلم بها قومه ، وهو غير مسلح بعلم سابق باللغات ولا بمعرفة مسبقة بقواعدها . ثم تتثال عليه المعرفة ويستخرج منها بنفسه القواعد المذكورة ، ثم يضع لأبوابها تلك الأسماء التي لا يمكن لأحد وضعها إلا اذا كان ذا علم بقواعد اللغات عند الأمم الأخرى ، لأنها مصطلحات علمية منطقية ، لا يمكن أن تخرج من فم رجل لا علم له بمصطلحات علوم اللغة والمنطق، ولأنها ليست من الألفاظ الاصطلاحية البسيطة التي يمكن أن يستخرجها الانسان من اللغة بكل سهولة وبساطة حتى نقول انها حاصل ذكاء وعقل متقد . وكيف يعقل أن يتوصل رجل الى استنباط ان الكلمة إما اسم ، أو فعل ، أو حرف ، ثم يقوم بحصرها هذا الحصر الذي لم يتغير ولم يتبدل حتى اليوم ، بمجرد إجالة نظر وإعمال فكر ، من دون أن يكون له علم بهذا التقسيم الذي تعود جذوره الى ما قبل الميلاد . ثم كيف يتوصل الى إدراك القواعد المعقدة الأخرى التي لم يبتدعها انسان واحد ، وانما هي من وضع أجيال وأجيال ، اذا لم يكن له علم بفلسفة الفعل وعمل الفاعل وما يقع منه الفعل على المفعول ، وكذلك الأبواب المذكورة التي لا يمكن أن يتوصل اليها عقل انسان واحد أبداً .

لقد كان للبابليين ولغيرهم من أهل العراق علم باللغات ، وكان لهم أساس في النحو وفي دراسة اللغة ، كما كان لليونان ولغيرهم علم بالمنطق والنحو واللغات ، وصل الى العراقيين قبل النصرانية وبعدها ، بطرق لا مجال للتحدث عنها في هذا المكان . وبقي هذا العلم العراقي اليوناني الى الاسلام ، ومنه جاء في نظري علم

النحو وعلوم العربية ، وبسببه صار العراق القطر الاسلامي الأول الذي نبت فيه علم العربية والنحو ، لا بسبب لحن وقع من أعاجم ، أو من أعراب جهلاء ، ولا بسبب تلك القصص التي ساقوها في أسباب اختراع النحو ، وانما بسبب وجود علم سابق في العربية عند أهل الحيرة والأنبار والقرى العربيـــة الأخرى ، وبسبب ظهور الحاجة اليه ، لتعليم العرب وغيرهم أصول لغتهم وكيفية صيانة اللسان من الوقوع في الخطأ ، فكان ما كان من وقوف (علي) أو (أبو الأسود) ، وهما من أصحاب الذكاء الخارق والتعطش الى البحث والاستقصاء ، فأخذا به ، وتوسع من جاء بعدهما في تفريعه وفي تثبيته في كتب ، كملت وتمت بالتدريج ، فهي من حاصل ذلك التراث العربي الجاهلي .

ولسابقة العراق هذه في الجاهلية بزّ سائر الأقطار الاسلامية في علوم العربية ، حتى (يثرب) و (مكة) ، وهما موطنا الاسلام ومهبطه ، لم ينافساه فيها . قال (السيوطي) : « فأما مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا نعلم بها إماماً في العربية . قال الأصمعي : أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة . وكان بها ابن دأب ، يضع الشعر وأحاديث السمر ، وكلاماً ينسبه الى العرب ، فسقط وذهب علمه ، وخفيت روايته »[1] . « وممن كان بالمدينة أيضاً عليّ الملقب بالجمل ، وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً[2]. وأما مكة ، فكان بها رجل من الموالي يقال له : ابن قسطنطين ، شذا شيئاً من النحو ووضع كتاباً لا يساوي شيئاً » . وفي انفـــراد العراق ، وتفوقه على غيره من الأمصار في هذه العلوم ، دلالة على وجود البذور القديمة لها في هذه الأرض قبل الاسلام ، فلـــما دخل العراق في الاسلام أينعت واتسعت ، فكـــان ما كان من ظهورها فيه .

وقد تأثر النحاة والمناطقة في الاسلام بمنطق (أرسطو) . هذا الإمام (الشافعي) يشير الى تأثر القوم بمنطقه، إذ قال: « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ، وميلهم الى لسان أرسطوطاليس »[3] . وقد توفي الشافعي سنة (٢٠٤)

---

١ المزهر (٢/٤١٣ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢/٤١٤) .
٣ السيوطي ، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام (١٥) ، (علي سامي النشار)، (مطبعة السعادة) .

الهجرة[1] ، فلا بد اذن من أن يكون ميل الناس الى هذا المنطق قد كان هـذا العهد . ولعله قصد بـ (لسان أرسطوطاليس) العلوم اللسانية التي كان قد برع بها اليونان . فتكلموا عن أقسام الكلمة وعن بناء التركيب القياسي وعن الموضوع والمحمول وأنواع الإعراب بحسب لغتهم وعن النعت والضمائر والأفعال وما الى ذلك من قواعد .

و (أبو الأسود) الدؤلي ، هو (ظالم بن عمرو بن سفيان) ، أو (عمرو ابن ظالم بن سفيان) أو (عويمر بن ظليم) ، من أشياع (علي بن أبـي طالب) ومن أصحابه . استعمله (عمر) و (عثمان) على البصرة ، ثم استعمله (علي) عليها بعد (ابن عباس) . وقد ذكر (أبو عبيدة) ، انه كان كاتباً لابن عباس على البصرة ، وكان (ابن عباس) يكرم (أبا الأسود) لما كان عاملاً بالبصرة لعلي ويقضي حوائجه . وقد اشترك مع (علي) في وقعة صفين . ويذكر انـه توفي في وباء سنة (تسع وستين) ، وقيل مات بعـد ذلك ، توفي بالبصرة . قال عنه (الجاحظ) : « أبو الأسود الديلي ، معدود في طبقات الناس ، وهو فيها كلها مقدم ، ومأثور عنه الفضل في جميعها . كان معدوداً في التابعين والفقهاء والمحدثين والشعراء والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحويين ، والحاضري الجواب ، والشيعة ، والبخلاء ، والصلع الأشراف »[2] . وله أجوبة مسكتة مـع معاوية ، ومع أشخاص آخرين أرادوا التحرش به[3] ، تدل على بديهة وذكاء .

ولأبـي الأسود الدؤلي شعر ، وقد طبع شعره في ديوان ، وقد استشهد بـه في شواهد اللغة والنحو ، ونجد نتفاً منه في الكتب التي تعرضت لسيرته[4] ، وليس

---

١ الفهرست (٣٠٩) .

٢ وقد اختلف في اسمه ، فقيل أيضا « عمرو بن عمران » ، و « عثمـان بن عمرو » ، الاصابة (٢٣٣/٢) ، رقم ٤٣٢٩ ، أدب الكاتب ، لابن قتيبة (٦١١) ، الخزانـة (١٣٦/١) ، (بولاق) ، الاغاني (١٠٥/١١ وما بعدها) ، انباه الرواة (١٢/١ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٢٤٠) ، السمط (٦٦) ، تهذيب ابـن عساكـر (١٠٤/٧) ، الشعر والشعراء (٦١٥/١) .

٣ أمالي المرتضى (٢٩٣/١ وما بعدها) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٥٤٢/٢ وما بعدها ، ٩٣٤) ، الخزانة (١٣٦/١ وما بعدها) ، كتاب خلق الانسان ، لابي محمد ثابت بن ثابت (٢٤١) ، (الكويـت ١٩٦٥) ، (عبد الستار أحمد فـراج) ، خلـق الانسان ، للاصمعي (٢١٢) ، المخصص (١٨/٢) .

شعره على مستوى رفيع من الوجهة الفنية ، ولا يتعرض للأحداث التأريخيـــة التي وقعت في أيامه[1] .

وقد أخذ عن أبي الأسود جماعة من التلامذة ، صاروا من مؤسسي علم النحو عند العرب ، ومن مبوبيه ومصنفيه . منهم ابنه (عطاء) . وكان قد بعج العربية وبرز بها[2] . ومنهم (يحيى بن يعمر) وهو من عدوان بن قيس ، وكان عدده في (بني ليث بن كنانة) ، ولقي ابن عباس وابن عمر ، وروى عنه قتادة . ومنهم (عنبسة بن معدان) ، المعروف بـ (عنبسة الفيل) ، ويقال ان (نصر ابن عاصم) أخذ عن أبي الأسود[3] ، وأخذ عن (نصر) (أبو عمرو بن العلاء) البصري ، وأخذ عن (أبي عمرو) (الخليل بن أحمد) ، وأخذ عن الخليل (سيبويه) ، وأخذ عن سيبويه (الأخفش)[4] . وممن أخذ عن أبي الأسود : (ميمون الأقرن) ، و (عبد الرحمن بن هرمز)[5] .

وفي رواية : ان الذي برع بعد أبي الأسود ميمون الأقرن ، وبعـــد ميمون عنبسة الفيل ، وبعده عبدالله بن أبي اسحاق ، فقاس وأكثر ، ثم بـــرع بعده أبو عمرو بن العلاء ، ولحقه الخليل بن أحمد ، إلا أن نظر أبي عمرو أقدم من نظر الخليل .

ثم أتى الخليل في النحو بما لم يأت بمثله أحد قبله في تصحيح القياس، واللطافة والتصريف .

وكان يونس في عصر الخليل ، وبقي بعده مدة طويلة ، ويقـــال ان سيبويه مات قبل يونس .

وكان عيسى بن عمر في عهد أبي عمرو وعهد الخليل ، وكان بارعاً أيضاً[6] .

وكان (عنبسة) الفيل ، من أبرع أصحاب (أبي الأسود) الذين كانوا

---

١ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١٧٢) .
٢ القفطي ، انباه الرواة (١/٢١) .
٣ الفهرست (٦٨) ، (تسمية من أخذ النحو عن أبي الاسود الدؤلي) .
٤ القفطي (١/٦) .
٥ ابن الانباري ، نزهة (١١) ، طبقات ، لابن سلام (٥) .
٦ العسكري ، المصون (١١٩) .

يتعلمون منه العربية[1] . وذكر ان الناس اختلفوا اليه بعد (أبي الأسود) ، وكان من بينهم (ميمون الأقرن) الذي كان من أبرع أصحابه . وقد ذكرت رواية تنسب الى (أبي عبيدة) اسم (ميمون الأقرن) قبل عنبسة[2] .

وأما (نصر بن عاصم) الليثي (٨٩ هـ) (٩٠ هـ) ، فإنه كان فقيهاً عالماً بالعربية ، فصيحاً قرأ القرآن على (أبي الأسود) ، وقرأ (أبو الأسود) على (عليّ) ، فكان (أبو الأسود) أستاذه في القراءة[3] .

و (ابن أبي اسحاق) الحضرمي ، هو (أبو بحر عبدالله بن أبي اسحاق) (١١٧ هـ) ، وكان قيّماً بالعربية والقراءة ، شديد التجريد للقياس . ويقال انه كان أشد تجريداً للقياس من (أبي عمرو بن العلاء) ، وكان (أبو عمرو ابن العلاء) أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها . ويقال انه أول من علل النحو . وكان قد قرأ على (يحيى بن يعمر) ، وعلى (نصر بن عاصم) ، وزعم انه كان أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل[4] .

وأما (يحيى بن يعمر) العدواني ، (١٢٩ هـ) ، فكان عالماً بالعربية والحديث ، لقي (عبدالله بن عمر) ، و (عبدالله بن عباس) وغيرهما من الصحابة . وكان يستعمل الغريب في كلامه[5] . وقد لحق بخراسان ، وكتب ليزيد ابن المهلب ، ألحقه بها (الحجاج)[6] .

وكان (عيسى بن عمر) الثقفي (١٤٩ هـ) ، ثقة عالماً بالعربية والنحو والقراءة ، وصنف كتابين في النحو ، يسمى أحدهما : الجامع ، والآخر الإكمال ، وقد ذكرهما (الخليل بن أحمد) بقوله :

---

١ ابن الانباري ، نزهة (١٢ وما بعدها) ، انباه الرواة (٢/٣٨١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢/٢٣٣) .

٢ ابن الانباري ، نزهة (١٣ ، ٤٠٦) .

٣ ابن الانباري ، نزهة (١٤) ، انباه الرواة (٣/٣٤٣) ، بغية الوعاة (٣/٣١٣ وما بعدها) .

٤ ابن الانباري ، نزهة (١٨ وما بعدها) ، انباه الرواة (٢/١٠٤ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢/٤٠) ، المزهر (٢/٣٩٨ ، ٤٢٣) ، طبقات ، لابن سلام (٦) .

٥ بغية الوعاة (٢/٣٤٥) ، المزهر (٢/٣٩٨ وما بعدها) ، ابن الانباري ، نزهة (١٦ وما بعدها) .

٦ طبقات ، لابن سلام (٦) .

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عُمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر[1]

وبلغ النحو درجة كبيرة من التقدم ، حين انتقلت الزعامة فيه الى (الخليل ابن أحمد) الفراهيدي ، الذي « كان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس »[2] . « فهو الذي بسط النحو ومدّ أطنابه وسبب علله ، وفتق معانيه ، وأوضح الحِجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده . ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً أو يرسم منه رسماً ... واكتفى في ذلك بما أوحى الى سيبويه من علمه ، ولقنه من دقائق نظره ونتائج فكره ، ولطائف حكمته ، فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلده ، وألّف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدم قبله ، وامتنع على من تأخر بعده »[3] : وقد كان علم الخليل ، في جملة المنابع التي غرف منها (سيبويه) في كتابه : الكتاب . وقد ذكر (سيبويه) اسمه في (٤١٠) مواضع من كتابه ، وأشار الى آرائه دون أن يذكر اسمه في (١٧٤) مكاناً آخر ، وهو وان لم يشر الى اسمه ، لكن العلماء ذكروا انه قصده[4] .

وأورد (سيبويه) له في كتابه آراء استاذه في إعراب آيات من القرآن الكريم ، وتأويلها ، كما جاء له بشواهد من الشعر في شرح قواعد نحوية ، منها أشعار نص على أسماء قائليها ، مثل أمية بن أبي الصلت ، وطرفة والنابغة والأعشى ، وغيرهم . ومنها أشعار لشعراء مخضرمين واسلاميين ، ومنها أشعار لم يذكر أسماء أصحابها[5] .

ونعت بأنه « نحوي عروضي ، استنبط من العروض وعلله ما لم يستخرجه أحد ، ولم يسبقه الى علمه سابق من العلماء كلهم . وقيل انه دعا بمكة أن يرزق

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٢١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (١/٢٣٧ وما بعدها) .
٢ الفهرست (٧٠) .
٣ « كلما قال سيبويه سألته ، أو قال : قال من غير أن يذكر قائله ، فهو الخليل » ، ابن الانباري ، نزهة (٥٥) ، السيوطي ، بغية (٢٤٤) .
٤ Wofgang Reuschel, Al-Halil ibn Ahmad der Lehrer Sibawaih's, Als Grammatiker, Berlin, 1959, S. 9.
وسأرمز اليه بـ : Reuschel.
٥ Reuschel, S. 55, 59.

علماً لم يسبق اليه أحد ، ولا يؤخذ إلا عنه ، فرجع من حجه ، ففتح عليه بالعروض »[1] . وذكر انه كان « الغايه في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله » ، « وكان أول من حصر أشعار العرب » . دخل عليه ولده وهو يقطع العروض ، فخرج الى الناس وقال : إن أبي قد جنّ ، فدخل الناس عليه فرأوه يقطع العروض ، فأخبروه بما قال ابنه ، فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنتَ تعلم ما تقولُ عذلتكا
لكن جهلتَ مقالتي فعذلتني وعلمتُ أنك جاهل فعذلتكا[2]

ويظهر من دراسة (كتاب) (سيبويه) ان أثر (الخليل) عليه كان كبيراً، لا يدانيه أثر أي عالم آخر عليه ، وان علم الخليل بالنحو ، كان غزيراً جداً ، يؤيده استشهاد (سيبويه) بآرائه أكثر من استشهاده برأي أي عالم آخر من علماء هذا العلم ، مثل (أبو عمرو بن العلاء) (١٥٤ هـ) ، و (عيسى بن عمر الثقفي) ، (١٤٩ هـ) ، و (يونس بن حبيب) ، (١٨٢ هـ) . ويظهر ان (الخليل) لم يدون علمه بالنحو في رسائل أو كتب ، وانما كان يعلم من يقصده مشافهة[3] ، فكان تلامذته يسمعونه ويحملون العلم عنه ، وذلك على طريقة أكثر العلماء في ذلك العهد .

وللخليل بعد ، آراء خاصة في النحو ، ونجد (الخوارزمي) يتكلم في الفصل الثاني من فصول النحو ، بقوله : « في وجوه الإعراب وما يتبعها على ما يحكى عن الخليل بن أحمد »[4] ، مما يشير الى وجود آراء خاصة له به ، أشير اليها في كتب النحو ، وربما وضعها بعضهم في مؤلفات خاصة بآرائه في النحو . ومن آرائه استعماله مصطلح الرفع في الاسم المضموم المنون ، ومصطلح الخفض في الاسم المجرور المنون ، والنصب في الاسم المفتوح المنون، على حين يسمي بقية الحركات

---

١ القفطي ، انباه الرواة (١/٣٤٢) .
٢ ابن الانباري ، نزهة (٤٥ وما بعدها) ، انباه الرواة (١/٣٤١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (١/٥٥٧ وما بعدها) ، المزهر (٢/٤٠١ وما بعدها) ، مراتب النحويين (٢٧ وما بعدها) .
٣ Reuschel, S. 63. f, John Sib, Sibawaihs Buch über die Grammatik, Berlin, 1884 — 1900, Bd., I, 2, I, 2.
٤ مفاتيح العلوم (٣٠) .

العارية من التنوين في الأحوال والصيغ المختلفة بأسماء الحركات العامة ، أي : الضم ، والكسر ، والفتح ، كما انه يسمى بالجر حركة الكسر التي تربط بين آخر الصيغة الفعلية وبين همزة الوصل . ولا يوجد عنده ما يدل على تأثير النظرية القائلة بأن اختلاف حركات الكلمات المتصرفة متوقف على العامل النحوي ، إلا في التفرقة التي جعلها بين التوقيف ، أي عدم الحركة في أواخر الحروف وما شاكلها، والجزم ، أي سكون الفعل المجزوم[1] .

وكان سند علماء العربية ومنبعهم الذي أخذوا منه علمهم في وضع قواعد العربية كتاب الله والشعر وكلام العرب . ويكون كلام العرب ، المنبع الأول الذي استمدا منه علمهم في اللغة وفي وضع القواعد ، وهو ما أخذ عن القبائل والأفراد ، ونجد للهجات أهل الحجاز وتميم أهمية كبرى في كتب الشواهد والقواعد[2] . ونظراً لاعتماد العلماء على هذا المورد أكثر من غيره ، وقعوا في مشاكل ، جعلتهم يتحايلون في حلها ، ويرجعون الى التأويل والتفسير ، من ذلك ما وقعوا فيه من عدم تمكنهم من التوفيق بين القواعد التي وضعوها ، وبين ما جاء في القرآن أو الشعر من أمور لا تنسجم مع هذه القواعد . وكل هذه الموارد المذكورة ، هي موارد أخذ منها بالسماع ، وهناك قواعد وضعها العلماء قياساً على كلام العرب ، استنبطوها بطريق (القياس) . و (القياس) من أهم الميزات التي ميزت البصرة على الكوفة في وضع قواعد اللغة .

والقياس ركن من ركنين مهمين ، قام عليهما علم النحو . أما الركن الأول ، فهو السماع . وللدور الخطير الذي قام به القياس في تكوين أصول وقواعد النحو، قال المستشرقون وغيرهم بتأثر النحو العربي بمنطق (ارسطو) . وممن أخذ وعمل به في النحو (عبدالله بن أبي اسحاق) الحضرمي ، قيل عنه « وكان شديد التجريد للقياس . ويقال انه كان أشد تجريداً للقياس من أبي عمرو بن العلاء»[3]. وفرع النحو وقاسه[4] ، وكان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل[5] .

---

١ مفاتيح العلوم (٣٠) ، يوهان فك ، العربية (١١) .
٢ Reuschel, S. 63.
٣ نزهة (١٨) ، مراتب النحويين (١٨) ، بغية (٢/٤٠) .
٤ المزهر (٢/٣٩٨) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٦ وما بعدها) .

وكان (الخليل بن أحمد) رأس العاملين بالقيـاس في فتاوى النحو . كان قياساً بارعاً فيه . قيل عنه « انه سيد قومه ، وكاشف قناع القياس في علمه»[1]. وقد تأثر (سيبويه) بقياس الخليل ، فاستعمله في تثبيت العربيـة . فتجد في كتابـه جملاً مثل : « والقياس كذا » أو « والقياس يأباه » و « سألت الخليـل عن قول العرب ما أميلحه ، فقال : لم يكن ينبغي أن يكون في القياس لأن الفعـل لا يحقر ، وانما تحقر الأسماء »[2].

وقد انقسم علماء اللغة والنحو الى فئتين بالنسبة لاستعمال القياس في اللغة والنحو. ولكن الأغلبية معه ، وقد وقع فعلاً ، وأثّر في وضع القواعد أثراً خطيراً . فبه أوجد النحاة كليات القواعد . « قال ابن الأنباري : اعلم ان انكار القيـاس في النحو لا يتحقق لأن النحو كله قياس ، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو ، ولا يعلم أحد من العلماء أنكره . وينسب الى الكسائي انه قال :

انما النحو قياس يتبـع وبه في كل أمرٍ ينتفع[3]

ولعلماء اللغة ، كلام طويل في مدى جواز استعمال القياس ، وفي حالة ورود السماع ، لأن اللغة في نظر بعض منهم سماع ، فإذا كانت سماعاً ، وجب الأخذ بالسماع ، فإذا ورد السماع بطل القياس[4] . وقـد تحدث العلماء عنه . قال (ابن فارس): « أجمع أهل اللغة – إلا من شذ عنهم – ان للغة العرب قياساً ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض » . غير انه قال : « وليس لنـا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها ، ونكتة الباب ان اللغة لا تؤخـذ قياساً نقيسه الآن نحن »[5] .

ولابن جني رأي في القياس . قال : « واعلم انه اذا أداك القياس الى شيء ما ، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره ، فدع ما كنت

---

١ الخصائص (١/٣٦٦ وما بعدها) .
٢ ضحى الاسلام (٢/٢٩٢) .
٣ ضحى الاسلام (٢/٢٨١) .
٤ البغدادي ، خزانة (٣/٥٥٩) ، أحمد تيمور باشا ، السماع والقياس (١١) .
٥ الصاحبي (٦٧) ، المزهر (١/٣٤٥ وما بعدها) .

عليه الى ما هم عليه ، فإن سمعت من آخر مثل ما أجزته ، فأنت فيه مخير ، تستعمل أيهما شئت ، فإن صح عندك ان العرب لم تنطق بقياسك أنت كنت على ما أجمعوا عليه البتة وأعددت ما كان قياسك أداك اليه لشاعر مولد ، أو لساجع ، أو لضرورة ، لأنه على قياس كلامهم »[1] .

والاجماع ان النحو لم يجمع ولم يرتب ترتيباً علمياً إلا في الاسلام ، وإلا في أيام العباسيين ، حيث أظهر علماء العربية نشاطاً عظيماً في تتبع القواعد واستنباطها من المظان التي أشرت اليها . وقد استقر وثبت ، بعد أخذ وردّ بين علمائه في المسائل الفرعية التي أثارت الاختلاف فيما بينهم ، فكانت ردود وتخطئة بعض منهم لبعض ، ثم استقر في كتب تمثل اليوم ثروة قيّمة تقدر في هذه اللغة الواسعة الثرية بألفاظها وبقواعدها .

ولا بد في نظري لمن يريد فهم النحو العربي فهماً صحيحاً واضحاً ، من دراسة نحو اللغات الجاهلية من عربية جنوبية ومن ثمودية ولحيانية وصفوية ونبطية ، لأنها وإن فارقت العربية القرآنية في أمور ، إلا انها عربية في النهاية ، ودراستها تفيدنا فائدة كبيرة في الوقوف على تأريخ تطور عربيتنا والعربيات البعيدة عن الاسلام ، وهي كما نعلم من أقدم اللهجات العربية التي أفادتنا في تقديم كتابات مدونة في تلك الأيام ، يعود تأريخ بعض منها الى ما قبل الميلاد . وقد تحدثت عن نحو اللهجات العربية الجاهلية وعن أمور من صرفها في الجزء السابع من كتابي الأول المعروف بتأريخ العرب قبل الاسلام ، المطبوع ببغداد .

هذا وقد عثر حديثاً على آثار في إمارة (أبي ظبي) وفي مواضع أخرى من سواحل الخليج ، قد تقدم لنا علماً جديداً عن لهجات عربية قديمة لا نعرف اليوم من أمرها شيئاً ، وبذلك يتسع علمنا عن لهجات العرب قبل الاسلام ، وقد نستطيع بواسطتها الوقوف على كيفية تطور اللغة العربية القرآنية وعلى حصر المواضع التي كان سكانها يتكلمون بها ، أو بلهجات قريبة منها .

بل أرى ضرورة دراسة اللغات السامية للاستفادة من هذه الدراسة المقارنة في فهم خصائص اللغة العربية ولحل بعض مشاكلها في النحو والصرف والألفاظ . وقد بذل المستشرقون — والحق يقال — جهوداً يشكرون عليها في دراسة هذه اللغات دراسة مقارنة . ولدينا اليوم مؤلفات كثيرة في هذه الدراسة ، تعرضت

---

١ الخصائص (١/١٢٦) .

للحروف بنوعيها، الحروف الصامتة « The Consonant Sounds » ، والحروف المتحركة « The Vowels » ، والضمائر، والأسماء الموصولة وأدوات الوصل، والأسماء، والجموع والأفعال ، والحروف الجر ، وغير ذلك من الموضوعات التي تجدها في الكتب التي بحثت عنها[1] .

ومن أهم الموضوعات التي يجب توجيه العناية اليها ، موضوع : علم الأصوات (Phonology) بالنسبة الى اللغات السامية ، مثل دراسة مخارج الحروف، والحركات، والإمالة، والتفخيم، والإشمام في العربية على وجه خاص ، ثم دراسة صرف هذه اللغات « Morphology » ، مثل جذور الألفاظ التي يغلب عليها الطابع الثلاثي « Triconsonantal » المكون من الحروف الصامتة ، بينما تقل فيها الجذور المكونة من حرفين صامتين أو من أربعة حروف صامتة . ومثل دراسة كيفية تكون الأسماء ، وأبنيتها ، ودراسة الجنس في هذه اللغات ، والعلامات التي تميز الجنس : المؤنث عن المذكر ، ثم العدد : المفرد ، والمثنى ، والجمع . جموع التذكير وجموع التأنيث ، وجموع التكسير ، ثم الظرف ، وحروف الجر ، والعطف ، ودراسة الأفعال بأنواعها ، وحالات الجمل ، وغير ذلك من أمور تخص علم اللغات[2] .

١ E. Renan, Histoire Générale des Langues Semitigues, Paris, 1855, William Wright, Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Amsterdam, 1966, Zimmern Verleichende Grammer D. Semitischen Sprache, Berlin, 1898, De Lacy O'leary, Comparative Grammar the Smitic Languages, London, 1923.

٢ وللوقوف على أسماء المؤلفات الموضوعة في مثل هذه الدراسات أرجع الرجوع الى المصادر الاتية :

H Zimmern, Vergleichende Grammatic der Semitischen Sprachen, Berlin, 1898, Barth J., Sprachwissenschaftliche Untersuchungen zum Semitischen, Leipzing, 1907-11, G. Bergsträsser, Einfuhrung in die Semitischen Sprachen, München, 1928, C. Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, 2 Bande, Semitische Sprachwissenschaft 2 Auflage, Leipzig, 1916, P. Dhorme, Langues et Ecritures Sémitiques, Paris, 1930, Fleisch, Introduction à l'étude des Langues Sémitiques, Paris, 1947, L. H. Gray, Introduction to Semitic Comparative Linguistics, New York, 1934, B. Spuler, Handbuch der Orientalistik, III, Semitistik, Leiden, 1953-54, J. H. Kramers, De Semietische Talen, Leiden, 1949, Levi Della Vida, Linguistica Semitica, Roma, 1961, Nöldeke, Beiträge zur Semitischen Sprachwissenschaft, Strsbourg, 1904, Neue Beiträge zur Semitischen Sprachwissenschaft, Strasbourg, 1910, G. Rolandi, Le Lingue Semitiche, Torino, 1954, Sabatino Moscti, An Introduction to the Comparative Grammer of the Semitic Languages, Phonology and Morphology, Wiesbaden, 1964.

وقد عالج بعض العلماء موضوعات خاصة من موضوعات النحو والصرف، مثل موضوع الفعل في اللغات السامية[1] . وموضوع الصلة بين العربيات الجنوبية وبين اللغة الحبشية[2] . والصلة بين العربية وبين اللغات السامية الأخرى ، أو بين لغة سامية ولغة سامية أخرى من حيث قواعد النحو والصرف[3] .

---

١ G Bertin, Suggestions on The Voice — Formation of the Semitic Verb, In Journal of the Royal Asiatic, vol. XV, 4. Frithiof Rundgren, Erneurung des Verbalaspekts' im Semitischen Funktionell-Diachronische Studien zur Semitischen Verblehre, Upsala, 1963, G. R. Castellino, The Akkadian Personal Pronouns and Verbal System in the light of Semitic and Hamitic, 1962, Barth J., Die Nominalbidung in den Semitischen Sprache, Leipzig, 1894, Hurwitz, Root Determinatives in Semitic Speech, New York, 1913.

٢ A. Murtonen, Early Semitic, A Diachronical Inquiry into the Relationship of Ethiopic to the other So-Called South-East Semitic Languages, Leiden, 1967.

٣ De Lagarde, Ubersicht Uber die im Aramaischen, Arabischen und Hebraischen Ubliche Bildung der Nomina, Gottingen, 1889 Barth, Die Nominalbildung in den Semitischen Sprachen, Leipzig, 1889.

obeikandl.com

الفصل السادس والاربعون بعد المئة

الشعر

الشعر والحكم والكهانة والخطابة وأضرابها ، هي أهم المظاهر التي تحدد لنا معالم العقلية الجاهلية ، وتعطينا فكرة عامة عن العقل الجاهلي .

أما الشعر الجاهلي ، فلم يصل الينا من الجاهلية مدوناً قط ، وانما وصل الينا مدوناً في الاسلام . وأقصد اننا لم نعثر حتى الآن على أي شيء منه مكتوباً بقلم جاهلي ، أو محفوراً على نص جاهلي . وكل ما نحفظه ونعرفه من ذلك الشعر ، هو مما وصل الينا بنقول الاسلاميين .

وللعلماء ، من اسلاميين قدامى ومحدثين ، ومن مستشرقين ، آراء في هـذا الشعر . منهم من يبالغ في اليقين ، فيرى ان كل ما وصل الينا منه صحيح ، ومنهم من يبالـغ في الشك ، فيرى ان أكثر ما وصل هو شعر منتحـل فاسد موضوع ، وضع لأغراض عديدة يذكرونها : دينية وسياسية وجنسية وغير ذلك ، ومنهم من يتوسط فيرى أن فيه الصحيح وفيه الفاسد المدسوس ، وان من الخير البحث فيه من نواحٍ متعددة ودرسه دراسة علمية حديثة ونقده نقداً علمياً لتمييز صحيحه من فاسده ، ولكل فريق حجج وأدلة مدونة ، وكتب أفردوها ، فيها رأيهم وحججهم ، اليها استحسن رجوع من يريد الوقوف على تلك الآراء .

ومن الكتب المؤلفة في الأدب الجاهلي ، واشتهرت خاصة بين أدباء العربيـة بنقد الشعر الجاهلي وبتوجيه الشك الى صحة أكثره ، فأثارت لذلك ضجة كبيرة

كتاب ألفه الدكتور طه حسين في العربية بعنوان : « في الأدب العربي » . وقد ردّ عليه أدباء عديدون في مصر وغيرها من البلاد العربية الأخرى . وقد أوضح الدكتور في كتابه العوامل التي حملته على تكوين رأيه المذكور في الأدب الجاهلي .

وليس مرجع هذا الاختلاف هو في حقيقة وجود شعر جاهلي أصلاً ، أو في عدم وجوده . فوجود شعر للجاهليين ، حقيقة لا يشك فيها أبداً ، لأن الجاهليين هم مثل سائر الناس ، لهم حسّ ولهم شعور ، وما دام الحس موجوداً ، فلا بد أن يظهر على شكل شعر أو نثر . وإنما الاختلاف هو في هذا الشعر المروي لنا ، والمدون في بطون الكتب . هل هو جاهلي حقاً ، أو هو منحول فاسد محمول على الجاهليين ؟ أو وسط بين بين ، وفي كمية الصحيح منه ، بالنسبة الى مقدار الفاسد منه ؟ هذا موضع الاختلاف بين العلماء .

وقد وصف القديس (نيلوس) المتوفى حوالى السنة ٤٣٠ للميلاد غارة بدوية على دير سيناء ، وقعت سنة ٤١٠ م ، وتحدث عن تغني الأعراب بأشعارهم وهم يستقون الماء[1] . كما أشار المؤرخ (سوزيموس) الى تغني العرب بأشعارهم وذلك في المعارك التي وقعت بينهم وبين الروم في حوالى سنة (٤٤٠ م) ، وهي أغانٍ تشبه الأشعار التي كان يتغنى بها الأعراب في حروبهم وغزواتهم ، مثل يوم ذي قار[2] ، والمعارك التي وقعت في فتوح العراق والشأم . ولا زال الأعراب يترنمون بالشعر عند غزوهم بعضهم بعضاً،لأن الشعر عندهم سلاح مهم من أسلحة القتال .

ثم إن شعر المخضرمين ، هو في حد ذاته دليل على وجود شعر سابق جاهلي، فشعر مثل هذا لا يمكن أن يكون قد ظهر فجأة من غير شعر سابق ومن غير شعراء ماضين مهدوا الجادة لمن جاء بعدهم ووضعوا لهم البحور المعروفة ، وقد وجدها المخضرمون ، فنظموا عليها .

وفي القرآن الكريم سورة تسمى (سورة الشعراء)[3] ، وهي تدل على كثرة الشعراء ، وعلى تأثر الناس بهم ، وعلى تأثير شعرهم في النفوس وتلاعبه بأفئدة

---

١ غرونباوم (١٣٣) .
٢ غروبناوم (١٣٤) ، Die Araber, II, S. 330.
٣ رقم السورة (٢٦) .

الجاهليين . وتجاسر بعض الكفار على الرسول ، فوصفوه بأنه شاعر . ووصفه بهذه الصفة دليل على ما كان للشعر من أثر في نفوس القوم . وقد ورد في الحديث : ان الرسول قال : « إن من البيان لسحراً ، وان من الشعر لحكماً » ، أو ان من الشعر لحكمة[1] . وفي الأخبار انه كان يرفع أناساً ويُذل آخرين ، وان من الناس من كان يشتري ألسنة الشعراء . وورد في الحديث ، ان الرسول ذكر الشعر فقال : « إن من الشعر لحكمة ، فإذا ألْبَسَ عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإنه عربي »[2] . ووردت عنه أحاديث أخرى في حق الشعر[3] .

وورد في خبر آخر ان (العلاء بن الحضرمي) ، لما وفد على رسول الله ، قال له الرسول : أتقرأ شيئاً من القرآن ؟ فقرأ سورة عبس ، ثم زاد فيها من عنده : وهو الذي أخرج من الحبلى نسمة تسعى بين شراسيف وحشى ، فقال رسول الله كف فإن السورة كافية ، ثم قال : أتقول شيئاً من الشعر ؟ فأنشده:

وحيّ ذوي الأضغان تسبِ قلوبهم ... تحيتك الأدنى فقد يدبغ النعل
فإن دحسوا بالكره فاعفُ تكرماً ... وإن أخنسوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذي يؤذيك منه اسماعه ... وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي : إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكماً[4] .

وورد أن الرسول كان يسأل الصحابة أن يسمعوه شعراً ، سأل مرة (الشريد ابن سويد) الثقفي أن ينشده شيئاً من شعر أمية بن أبي الصلت ، فأنشده مائة بيت ، فقال الرسول : كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم ، أو ان كاد ليسلم[5]. وكان الرسول يقول : أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : ألا كل شيء

---

١ بلوغ الارب (٣/١٣٤) .
٢ اللسان (٤/٤١٠) ، (شعر) ، العمدة (ص ٢٧) ، (اذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فاطلبوه في الشعر) ، مجالس ثعلب (٣١٧) .
٣ العمدة (ص ٢٧) .
٤ بلوغ الارب (٣/١٣٣ وما بعدها) ، (ان من الشعر حكما ، وان من البيان سحرا) وفي هذه الابيات روايات متباينة ، عيون الاخبار (٢/١٨) ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، كنز العمال (٢/١٧٨) .
٥ ارشاد الساري (٩/١٠٠ وما بعدها) ، الاصابة (٢/١٤٦) ، (رقم ٣٨٩٢) ، المزهر (٢/٣٠٩) ، (مائة قافية) ، ابن سعد ، (٥/٣٧٦) . صحيح مسلم (٧/٤٨) ، (كتاب الشعر) .

ما خلا الله باطل ، أو ان أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيـد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل[1] .

وورد أنه استشهد ببيت شعر لطرفة بن العبد ، هو :

ستبدي لك الأيام مـا كنت جاهلاً ويـأتيك بالأخبـار من لم تزود[2]

وورد أنه جلس في مجلس من الخزرج ، فاستنشدهم شعر : (قيس بن الخطيم) ، فأنشدوه بعض شعره[3] . وللرواة أخبار عديـدة تشير الى سماع الرسول الشعر والى وقوفه عليه وعلمه به ، وأنه كان يكلف الصحابة بأن ينشدوه من شعر الشعراء ، وذكر أنه نهى من رواية رثاء (أمية بن أبـي الصلت) قتلى قريش في معركـة بدر ، لما فيها من رثاء لمشركين ومن تحريض عـلى الإسلام[4] . وورد أن الشاعر (العباس بن مرداس) ، شهد مع النبي حنيناً على فرسه (العُبيد) ، فأعطـاه النبي أربع قلايص ، فقال :

أتجعل نهبي ونهب العبيـد بين عيينـة والأقرع
وكانت نهاباً تلافيتها بكري على المهر في الأجرع

فقال الرسول : اقطعوا عنا لسانه[5] . ولسانه هو شعره .

وروي عن (عمر) قوله : « نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم ، مع ما للشعر من عظم المزية ، وشرف الأبية ، وعزّ الأنفة ، وسلطان القدرة[6] » .

وقديماً قال ابن عباس : « إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه في

---

١ ارشاد الساري (١٠١/٩ وما بعدها) ، صحيح مسلم (٤٩/٧) ، (كتاب الشعر)
٢ معجم الشعراء (٢٠٢) .
٣ الاغاني (٧/٣) .
٤ الاغاني (١٢٢/٤ وما بعدها) ، الفائق (٥٢/٣) ، الاغاني (٢٤٣/٨) ، ابـن سعد (٣٧٦/٥) ، المزهر (٣٠٩/٢) .
٥ الشعر والشعراء (٦٣٤/٢) ، الاشتقاق (١٨٨) .
٦ بلوغ الارب (٨٢/٣) .

الشعر ، فإنه ديوان العرب »[1] . وقيل إنه — أي ابن عباس — ما فسر آية من كتاب الله ، إلا نزع فيها بيتاً من الشعر . وروي أن غيره كان يحفظ شيئاً وافراً من الشعر ، الشعر المروي عن أناس عاشوا قبل الاسلام وأناس أدركوا الاسلام، وأنهم كانوا يتداولونه ويتطارحونه ويحفظونه لصلته بكل فرد منهم . ففيه أخبار القبائل وأيام العرب وما قيل فيهم من مدح أو ذم ، والحق أننا بفضل هذا الشعر حصلنا على كثير من هذا القصص المنسوب الى أهل الجاهلية ، وبفضله عرفنا أخبار الشعراء والقبائل والأيام والحروب ، فهو كما قلت في الجزء الأول من هذا الكتاب مورد مهم رئيسي يرد منه المؤرخ في تدوينه تأريخ العرب قبل الإسلام .

ونحن لا نكاد نقرأ قصة من قصص (أيام العرب) ، إلا ونجد فيها شعراً، ينسب الى بطل من الأبطال الذين ساهموا فيها ، أو من شاعر يذكر قومه أو خصوم قومه أو خصومه بالأيام التي انتصروا فيها على خصومهم . وقد ساعد هذا الشعر على تثبيت تلك الأيام في ذاكرة رواتها ، حتى وصلت الى أيام التدوين فدونت ، على نحو ما نقرأها في هذا اليوم .

ثم ان كتب الأدب بأنواعها مملوءة بأخبار المساجلات والمطارحات التي وقعت بين الشعراء قبيل الاسلام وفي أيام الرسول والخلفاء. وقد رويت فيها أشعار وقصائد لشعراء جاهليين ، ولشعراء مخضرمين . وقد تحدث معظم المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام عن ذكرياتهم في الجاهلية ، ورووا ما نظموه فيها من أشعار وما وعوه من المناسبات التي نظموا فيها . ثم ان هذه الكتب مملوءة أيضاً بأخبار مجالس سمر تناولت الحوادث والأيام والشعر والشعراء ، وفيها نقد ومفاضلات لما ذكر في تلك المجالس من شعر . وقد روي : ان الرسول كان يجالس أصحابه ويتحدث معهم ويصغي اليهم ، ويستمع الى ما يروونه وما يتذاكرونه من الشعر[2]. وروي : ان الحطيئة ، وهو شاعر معروف ، كان يتذاكر الشعراء ويحفظ أشعارهم[3].

وقيل للحسن البصري : « أكان أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

---

١ المزهر (٢/٤٧٠) ، الاخبار الطوال (٣٣٢) ، طبقات الشعراء ، للجمحي (ص ١٠) بلوغ الارب (٣/٨٢) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٣٦) ، العمدة (٣٠) ، التبريزي ، شرح الحماسة (١ وما بعدها) .

٢ الاغاني (١٥/٥٥) .

٣ الاغاني (١٥/٩٤) .

يمزحون ؟ قال : نعم ويتقارضون ، أي يقولون القريض وينشدونه . والقريض الشعر »[1] . وروي أن أصحاب رسول الله ، كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر جاهليتهم ، وأن رسول الله كان يجالسهم في المسجد ، وهم يتناشدون الشعر وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم[2] . وعن (أبي سلمة) : « لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متحزقين ولا متماوتين، كانوا يتناشدون الأشعار، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحدهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون »[3] .

وقد ذُكر أن من الأعاجم من تعلم الشعر العربي ورواه وعشقه ، فزعم (ابن الكلبي) مثلاً أن (خُرَّخسرة) ، وهو ابن (المروزان) ، كان قد تعرب ، أعجبته العربية فتعلمها وروى الشعر ، وكان والياً على اليمن في عهد (كسرى) ، ثم بلغ (كسرى) تعربه ، وروايته الشعر ، وتأدبه بأدب العرب، فعزله ، وولى باذان[4] .

وللشعر أثر خطير في نفوس العرب ، كان يهز عواطفهم هزاً ، ويفعل فيهم فعل السحر ، فلا عجب اذا ما قرن (رؤبة) الشعر بالسحر ، وجعله مثله في التأثير لتلك العلة :

لقد خشيتُ أن تكون ساحرا راوية مَرّا ومَرّا شاعرا[5]

قال (الجاحظ) : « وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم اليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم،فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر[6] .

وقد بقي أثر الشعر هذا في نفوس الناس حتى بعد زوال الجاهلية ودخول الناس في الاسلام . فكان مدح الشاعر لقوم ، من المآثر والمفاخر ، وكان ذمه

---

١ اللسان (٧/٢١٩) ، الفائق (٢/٣٣٩) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٢ ص ٩٥ وما بعدها) .
٣ الفائق (١/٢٥٧) .
٤ الطبري (٢/٢١٥) ، (دار المعارف) .
٥ العمدة (١/٢٧) .
٦ البيان والتبيين (٤/٨٣) .

مما يشين ويسيء الى المهجو . فلما هجا (جرير) (بني نمير) بقوله :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

أخذ بنو نمير ينتسبون الى (عامر بن صعصعة) ، ويتجاوزون أباهم نميراً الى أبيه ، هرباً من ذكر (نمير) وفراراً مما وسم به من الفضيحة والوصمة . مع انهم كانوا قبل ذلك اذا سئل أحدهم ممن الرجل فخم لفظه ومدّ صوته وقال : من بني نمير ، وكانوا جمرة من جمرات العرب . وكان أحدهم اذا رأى نميرياً وأراد نبزه والإساءة اليه قال له : غمض وإلا جاءك ما تكره ، وهو انشاد هذا البيت[1] . وصار الرجل من بني نمير اذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني عامر[2] !

قال الجاحظ : « وفي نمير شرف كثير. وهل أهلك عنزة ، وجرماً ، وعُكلاً ، وسلولَ ، وباهلة ، وغنياً ، إلا الهجاء ؟!

وهذه قبائل فيها فضلٌ كثيرٌ وبعض النقص ، فمحق ذلك الفضل كله هجاء الشعراء . وهل فضح الحبطات ، مع شرف حسكة بن عتاب ، وعبّاد بن الحصين وولده ، إلا قول الشاعر :

رأيت الحُمر من شر المطايا كما الحبطات شر بني تميم[3]

وقد هُجيت فزارة بأكل أير الحمار ، وبكثرة شعر القفا . وكان (حذف) الفزارى قد أطعم جُردان الحمار ، فقتل الذي أطعمه . وقال : طاح مرقــه ، فذهبت مثلاً . ففزارة تعير بذلك الى اليوم . قال الشاعر :

إنّ بني فزارة بن ذبيــان قد سبقوا الناس بأكل الجُردان

وقال آخر :

أصيحانيــة عُلّت بزُبـد أحب اليك أم أير الحمار[4] ؟

---

١ الخزانة (١/٣٥ وما بعدها) ، (بولاق) ، البيان والتبيين (٤/٣٥) .
٢ البيان والتبيين (٤/٣٥ ، ٣٨) .
٣ البيان والتبيين (٤/٣٦ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (١/١٧٣ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٤/٣٨ وما بعدها) ، الخزانة (١/٣٩٥) ، سمط اللآلئ (٨٦٠) .

وبين الشعر والسحر صلة ، حتى ذهب بعض الباحثين في الشعر الى أن الشعر هو فن من الفنون التي كـــان يمارسها السحرة في التأثير في مشاعر الناس ، إذ كانوا يتخذونه وسيلة من وسائل التأثير في النفوس ، لما يستعملونه فيه من كلام مؤثر ساحر يترك أثراً خطيراً في نفس سامعه . ولهذا عدّوا السحرة في جملة أوائل من كان ينظم الشعر من القدماء ، كما ذهب بعض الباحثين الى أن الشعراء كانوا (أهل المعرفة) والفهم ، لما كان لهم من ذكاء وصفاء ذهن في فهم تجـــارب الحياة ، وفي نظم خلاصة تلك التجارب على شكل علم أو حكم تفيد في التهذيب وفي التوجيه وفي وعظ الناس،ولهذا كان لهم رأي في السياسة في السلم وفي الحرب.

وفي كتب الأدب والأخبار أمثلة كثيرة عن أثر الشعر في القبائل وفي الأشخاص من مدح وذمّ ، يرينا كيف كان العرب يتأثرون به ، وكيف كان يلعب دوراً خطيراً في حياتهم ، والعرب قوم عاطفيون ، تلعب العاطفة دوراً خطيراً في حياتهم، وما الشعر إلا نتيجة لهـــذا الطبع المتوارث في العربي . وقد كان أثر الشعر في المغازي وفي الحروب أثر السيف في الخصوم ، يحرض المقاتلين على الاستبسال في القتال . ولما وقعت الوقائع بين المسلمين والفرس ، لعب الشعر والنثر دوراً خطيراً فيها ، ففي يوم (أرماث) مثلاً ، أرسل سعد الى قادة الكلام ، من رجـــال النثر والشعر ، يدعوهم الى استخدام سلاحهم في هذه المعارك ، فكان ممن حضر عنده : (طليحـــة) ، و (قيس بن هبيرة) الأسدي ، و (حذيفـــة) ، و (غالب) ، و (عمرو بن معديكرب) ، و (ابن الهـــذيل) الأسدي ، و (عاصم بن عمرو) ، و (ربيع بن البلاد) السعدي ، و (ربعي بن عامر) وهم من الخطباء ، و (الشماخ) ، و (الحطيئـــة) ، (أوس بن مغراء) ، و (عبدة بن الطيب) وأمثالهم ، وهم من الشعراء ، فلما تجمعوا ، قـــال لهم (سعد) : « قوموا في الناس بما يحقّ عليكم ويحق عليهم ، عند مواطن البأس، فإنكم من العرب بالمكـــان الذي أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا في الناس ، فذكروهم وحرضوهم على القتال»[1]. فالشعر سلاح ماضٍ عند العرب ، مثل الأسلحة الأخرى وربما كان أمضى منها أثراً في نفوسهم لما كان يفعله فيهم ، وكذلك النثر من أثر في النفـــوس يحملهم

---

١ الطبري (٣/٥٣٣) .

على الإقدام وعدم التهيب من الموت .

ونحن لا نعرف حرباً أو غزواً وقع للعرب ، ثم لم يقترن خبره بشعر أو بأبيات منه ، فقد كان المحاربون ، يحاربون خصومهم بألسنتهم وبسيوفهم وبسهامهم ورماحهم في الوقت نفسه ، وقد رأينا أنه قد كان للشعر الفضل الأكبر في كثير من الأحايين في حفظ أخبار الحروب وبقاء ذكرها الى هذا اليوم . ونستطيع القول بأن قسطاً كبيراً من الشعر الجاهلي ، هو من شعر القتال . ولذلك نستطيع جعله صنفاً قائماً بذاته نسميه شعر القتال والحروب .

ومن هذا الأثر الذي كان يعرفه الشعراء حق المعرفة ، كانوا يستعلون ويترفعون به عن غيرهم ، كتب (هوذة بن عليّ) الحنفي ، الى النبي يجيبه على رسالته التي أرسلها اليه : « ما أحسن ما تدعو اليه واجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكانـي ، فاجعل لي بعض الأمـر أتبعك »[1] ، فهو شاعر قومه وخطيبهم ، وله مكانة في العرب ، فهو يرى ان يميز عن غيره بميزات تمنح له، وكان الشعراء يمنّون على قومهم بأنهم ألسنتهم المخرسة الناطقة المهاجمة المدافعة ، فهم من الطبقة المثقفة الممتازة التي حظيت بالتقدير ونالت الاحترام ، بسبب قدرة اللسان ، وأثر الشعر في الناس .

ولا زال الشاعر ينال مكانة محترمة عند أهل الحضر وعند أهـل الوبر ، فهو لسان القبيلة حتى اليوم ، يدافع عنها ، ويهجو أعداءها ، ويردّ على شعراءها ، ويشيد بفعال قومه . وللهجاء عندهم مكانة ، إلا انها أخذت تتزلزل عن مكانها، بفعل التحضر الذي أخذ يغزو البوادي ، وتغير العقلية ، وعدم الاهتمام بالقيـل والقال ، مما أثر على مكانة الشعر والشاعر أيضاً ، فلم يعد النـاس يخشون لسان الشاعر ، كما كانوا يخشونه أيام الجاهلية ، يوم كانوا يسترضون الأعشى والحطيئة، خوفاً من لسانيهما السليطين .

ويطلق على الشعر الذي قيل قبل الاسلام : الشعر الجاهلي، لأنه قيل في الجاهلية التي شرحنا معناها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وأصحابه كلهم ممن عاشوا وماتوا قبل الاسلام . أما الذين أدركوا الاسلام وأسلموا ، فهم الشعراء المخضرمون

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٢) ، (ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل يكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام) .

لأنهم أدركوا عهدين ، فعاشوا ردحاً من عمرهم في الجاهلية، وقضوا البقية الباقية من حياتهم في الاسلام .

واذا قلنا الشعر الجاهلي ، أو شعر الجاهليين ، فلا نريد أو يريد أحد منا الغض من شأنه ، أو الحط من قدره ، فإننا على العكس ، نجد علماء الشعر والأدب ، يرفعون من قدره ، ويرون انه الأوج الذي بلغه العرب في الشعر ، ولا سيما الشعر المختار منه مثل المعلقات ، فقد بلغ القمة في نظرهم ، وقد بلغ من تقدير بعضهم للشعر الجاهلي ، انهم كانوا « أحياناً يذهبون بعيداً في تدقيقهم الى حد التهوين من قيمة شاعر لا يمكن إنكار تفوقه ، لمجرد أن ولادته كانت بعد ظهور الاسلام »[1] .

وروي أن عمر قال : « الشعر علم قوم لم يكن لهم علمٌ أعلم منه » وأنه كتب الى (أبي موسى الأشعري) : « مُر مَنْ قِبَلَك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب »[2] . ولقد قال الجاحظ : « وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها ، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى،وكان ذلك هو ديوانها ، وعلى أن الشعر يُفيد فضيلة البيان ، على الشاعر الراغب ، والمادح ، وفضيلة المأثرة ، على السيد المرغوب اليه ، والممدوح به »[3] . وقال العسكري : « لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها ، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبط آدابها ومستودع علومها »[4] ، والشعر هو ديوان تسجيل من لا تسجيل له ، لجأت اليه الشعوب القديمة حين لم تعرف الكتابة ، ليقوم مقام الكتابة في تخليد المآثر والأحداث وما يستجد لها من أمور عظام ، بما فيه من أثر على القلب ، ومن نغم يساعد على الحفظ ، فقام الشعر عند العرب مقام الكتابة ، قبل أن تتفشى الكتابة بينهم[5] .

والواقع ان هذا الشعر الجاهلي قد أفاد المؤرخ الباحث في تأريخ الجاهلية فائدة

---

١ بروكلمن (١/٣٦) .
٢ العمدة (٢٨) .
٣ الحيوان (١/٧٢) ، (عبد السلام محمد هارون) ، المحاسن والاضداد (٣) .
٤ كتاب الصناعتين (١٠٤) .
٥ كارلو نالينو (٩٥ وما بعدها) ،

لا تقدر بثمن ، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التأريخية على فائدته من الوجهة الأدبية ، لأنه حوى أموراً مهمة من أحداث العرب الجاهليين ، لم يكن في وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر[1] .

ولكن كثيراً من هذا التراث الذي أريد تخليد عمل العرب به قد ضاع ، قبل الإسلام ، بسبب عدم تدوينه وتخليده في كتاب واعتماد الناس في روايته على الحافظة وحدها ، والحافظة لا تحفظ المحفوظ لأمد طويل ، فضاع منه ما ضاع، ووصل بعض منه بصورة يرتاب منها ، وآفة كل ذلك هو المرض الذي يصيب الذاكرة : مرض النسيان . « قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اكتب شعري ؛ فالكتاب أحب إليّ من الحفظ . لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناسَ ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »[2] .

والشعراء الجاهليون كثيرون ، ونجد في كتب اللغة والمعاجم ، أسماء شعراء ، لم يرد لهم خبر في موارد أخرى ، ذكروا لمناسبة الاستشهاد بشعرهم ، ونجد في كتب السير والرجال أسماء رجال لهم شعر ، لم يرد اسمهم في كتب الشعر . قال (ابن قتيبة) : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام،أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم ؛ واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[3] .

وأنت اذا قرأت بعض الكتب مثل كتاب : (الاشتقاق) ، و (المحبر) ، وكتب المجالس والأمالي والشواهد ، تجد أمامك أسماء عدد كثير من الشعراء الجاهليين ، لم يرد اسمهم في كتب الشعر الجاهلي ، ولم يحفل بهم علماء الشعر مع انهم كانوا في أيامهم من الشعراء المعروفين ، وقد نص على انهم كانوا من الشعراء .

---

١ Charles James Lyall, Ancient Arabian Poetry, London, 1930, p. Introduction.

٢ الحيوان (١/٤١) ، (نعت الكتاب) .

٣ الشعر والشعراء (١/٨) .

ولا أجد في كلام قدماء العلماء القائل ان الذي وصل الينا من أمر الشعر الجاهلي والشعراء الجاهليين ، هو قليل جداً من كثير جداً ، وأن الذي فات عن علم العلماء من أمر الشعراء الجاهليين أكثر بكثير مما بقي ، أية مبالغة أو تهويل ، لأننا نجد في الموارد التي تتحدث عن الصحابة أو عن الأخبار ، أسماء رجال كانوا شعراء، لا نجد لها وجوداً في كتب الشعر ، ثم ان علماء الشعر أنفسهم يعترفون في كتبهم ودفاترهم ، انهم لم يدونوا من أسماء الشعراء إلا من اشتهر أمره وعرف بغزارة شعره ، أما من كان دون هؤلاء ، فإنهم لم يتحرشوا بهم ، إذ لو تعرضوا بهم لاحتاجوا الى تدوين كتب ضخمة في الشعر والشعراء. أضف الى ذلك موت ذكر كثير من الشعراء ، بسبب عدم وجود التدوين قبل أيام التدوين وعجز الذاكرة عن المحافظة على أسماء الشعراء وعلى شعرهم الى أمد طويل . ثم ان الشعر سليقة عند العرب ، وبديهة ، وقلما نقرأ اسم رجل من أهل الجاهلية ، إلا وقد نسب له أهل الأخبار البيت أو البيتين ، أو أكثر من ذلك من الشعر .

ونحن لا نذكر هنا من الشعراء إلا من نبه منهم،وترك أثراً في الأدب العربي الى يومنا هذا .

وقد جرت العادة بأن يدرس الشعر الجاهلي على أسلوب الجادة القديمة ، بالاعتماد على الروايات المدوّنة عنه في الموارد الإسلامية القديمة ، وهي روايات لاقت رواجاً كبيراً بين المعنيين في الشعر الجاهلي ، حتى صارت في درجة القضايا البديهية المسلم بصحتها ، مع أنها في الواقع أخبار آحاد ، وردت في كتب اسلامية قديمة نقلها عنها المؤلفون المتأخرون عن المؤلفين القدماء . مع أن الصحيح هو في وجوب درس الشعر الجاهلي ، على ضوء شعر المخضرمين والشعراء الاسلاميين الذين عاشوا في صدر الاسلام ، وعلى ضوء الدراسات المعروفة عن الشعر عند الساميين ، مثل شعر السريان الذي يأخذ أيضاً بالوزن والقافية وله مصطلحات قديمة في الشعر تعود الى ما قبل الاسلام ، ثم الشعر العبراني والشعر البابلي وشعر بقية الساميين .

وفي دراسة شعر القبائل الحاضرة المنزوية في جزيرة العرب ، فائدة كبيرة في تشخيص الشعر الجاهلي ، لأنها — ولا سيما القبائل القابعة في العربية الجنوبية — لا زالت تنظم الشعر متأثرة بالقوالب القديمة وببحور جاهلية لم يحفل بها (الخليل) أو أنه لم يقف عليها ، ففات أمرها على العلماء ، وعدت من الشعر العامي المبتذل .

الذي لا يليق بالعالم المتزن أن يحفل به . وقد تفيدنا دراسة شعر القبائل العربية ، الناطقة بلهجات بعيدة عن عربيتنا بعض البعد ، فائدة كبيرة في الحكم على طبيعة ونوع الشعر عند العرب الجنوبيين قبل الاسلام ، فألسنة هذه القبائل هي من وحي الألسنة العربية الجنوبية الجاهلية ، ونظم الشعر بها بأسلوب خاص وببحور متميزة ، هو دليل قاطع على وجود الشعر عند العرب الجنوبيين ، وهو شعر لا نعرف اليوم من أمره أي شيء ، لعدم وصول نماذج مدوّنة منه الينا حتى الآن، ولعدم اهتمام العلماء القدامى به ، لاختلافه عن عربية القرآن الكريم ، وفي الشعر اليماني القديم الذي نجد نماذج منه في المؤلفات اليمانية ، مثل مؤلفات (الهمداني) ، فائدة في تشخيص الشعر اليماني الجاهلي ، وإن كان هذا الشعر قد صيغ وفقاً للشعر العربي القرآني ، بفعل دخول أهل العربية الجنوبية في الاسلام ، وأخذهم بلغة القرآن الكريم .

ولا استبعد احتمال ترك علماء الشعر واللغة كثيراً من الشعر الجاهلي ، لأنه شعر لم ينظم وفق عربية القرآن الكريم أو وفق البحور (الكلاسيكية) المعروفة التي اعتبرت الصور الرفيعة لبحور الشعر العربي الصحيح ، نبذوه لأنه كان في أعينهم من الشعر العامي المبتذل الذي لا يليق بالعالم المدقق توجيه عنايته اليه ، على نحو ما فعلوه بالنسبة الى اللهجات العربية الأخرى التي كانت تختلف عن العربية المألوفة التي أخذوها من أفواه القبائل التي اعتبروا لسانها هو اللسان العربي الفصيح ، وأما ما سواها فألسنة رديئة لا يؤخذ بها ولا يحتج بما ورد فيها من نثر أو نظم .

خبر شعراء الجاهلية :

وقد حصلنا على أسماء شعراء الجاهلية من الموارد الاسلامية ، فقد ذكرتْ ان النصوص الجاهلية لم تتعرض لأمر الشعر الجاهلي ولا للشعراء الجاهليين . ونجد أسماء هؤلاء الشعراء في مختلف الموارد ، في كتب الأدب وفي ضمنها دواوين الشعر ، وفي كتب النثر الباحثة عن الشعر ، وفي كتب التفسير والحديث واللغة والمعاجم ، بل وفي الشعر الجاهلي كذلك ، إذ ذكر بعض اسماء الشعراء. ونجد في شعر بعض الشعراء الذين ظهروا في العصر الأموي أسماء شعراء جاهليين ، فنجد في شعر للفرزدق أسماء شعراء جاهليين ، إذ يقول :

وهبَ القصائد لي النوابغُ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول
والفحل علقمةُ الـذي كانت له حلل الملوك كلامه لا ينحل
وأخو بني قيسٍ وهن قتلنـه ومهلهل الشعراء ذاك الأول
والأعشيـان كلاهمـا ومرقش وأخو قضاعة قوله يتمثـل
وأخو بني أسدٍ عبيدٌ إذ مضى وأبو دُواد قولـه يتنخـل
وابنا أبـي سلمى زهير وابنه وابن الفريعة حين جدّ المقول
والجعفـري وكان بشر قبلـه لي من قصائده الكتاب المجمل
ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقاً كالسم خالط جانبيه الحنظل
والحارثي أخو الحِماس ورثته صدعاً كما صدع الصفاة المعول[1]

ونجد في شعر (جرير) الذي نقض على الفرزدق قصيدته المذكورة ، وفي شعر (سراقة) البارقي ، ذكراً لأسماء بعض الشعراء الجاهليين إذ يقول :

ولقد أصبت من القريض طريقةً أعيت مصادرها قرين مُهلهل
بعد امرىء القيس المُنوّه باسمه أيام يَهْذي بالدخول فحومل
وأبو دُواد كان شاعر أمةٍ أفلَتْ نجومهم ولمّـا يأفل
وأبو ذؤيب قد أذل صعابـه لا ينصبنّك رابض لم يذلل
وأرادهـا حسان يوم تعرضت بردى يصفق بالرحيق السلسل
ثم ابنه من بعـده فتمنعت وإخالُ أنّ قرينه لم يخذل
وبنو أبـي سُلمى يقصر سعيهم عنّا كما قصرت ذراعاً جَرول
وأبو بصير ثم لم يُبصر بها إذ حلّ من وادى القريض بمحفل
واذكر لبيداً في الفحول وحاتماً يلومك الشعراء إن لم تفعل
ومُعقّرا فاذكر وإن ألوى به ريب المنون وطائر بالأخيل
وأميّـة البحر الـذي في شعره حكم كوحي في الزبور مُفصل
واليذمري عـلى تقادم عهـده ممن قضيتُ له قضاء الفيصل

---

١ ديوان الفرزدق (٧٢٠) ، النقائض (١/١٨٩ وما بعدها) .

واقذف أبا الطمحان وسط خوانهم وابن الطرامة شاعر لم يُجهل
لا والذي حجت قريش بيته لو شئت إذ حدثتكم لم آثل
ما نال بحري منهم من شاعرٍ ممن سمعت به ولا مستعجل[1]

وجمع رواة الشعر شعر الشعراء الجاهليين وأخبارهم من موارد متعددة ، من الشعراء أنفسهم ، مثل الحطيئة الذي أدرك الاسلام ، ومثل حسان وبقية الشعراء المخضرمين ، فقد أمدّوا الخلفاء وعشاق الشعر بأخبار من تقدم عليهم من الشعراء، وبما حفظوه من شعرهم ، وبما استحسنوه من أشعارهم ، كما موّنوهم بأخبارهم التي بقيت عالقة في أذهانهم عن الجاهلية ، وعن أيامهم في الإسلام . كما جمعوا أخبارهم من أبنـاء الشعراء الجاهليين ومن ذوي رحمهم وآلهم ، ونجد في كتب الأخبار والأدب أخباراً كثيرة من شعراء جاهليين ، نقلها الرواة من أبناء أولئك الشعراء ، أو من ذوي قرابتهم ، فقد جاء قسط كبير من شعر الشاعـر (تميم ابن مقبل) عن ابنته أم شريك ، وجاء جزء من شعر (حـاتم) وأخباره عن ابنه (عدي)[2] .

وأخذ الرواة شعر الشعراء الجاهليين من قبائلهم كذلك ، فقد كان في القبيلة من يحفظ شعر شعرائها أو شعر البارزين منهم . وقد رأينا كيف استعزت تغلب بقصيدة (عمرو بن كلثوم) فكانت ترددها دوماً حتى عيبت على ذلك[3] ، وكان في القبائل الأخرى من حفظ شعر شعرائها ، ونجد كتب الأدب والأخبار تنص على أسمائهم ، فتذكر اسم الشخص ، وتنص على اسم قبيلته ، وقد تذكر جملاً مثل « سمع أشياخاً من طيء »[4] ، أو « حدثني الطائيون »[5] ، وأمثال ذلك ، من جمل تنص عـلى اسم المورد الذي استقى منه الرواية خبره أو شعر الشاعـر من القبيلة .

ونجد في كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سـلام الجمحي (٢٣١هـ) ، وفي

---

١ ديوان سراقة (٦٤ وما بعدها) .
٢ ديوان حاتم (٣١) .
٣ الاغاني (٥٤/١١) .
٤ المعمرون (٧٢) .
٥ ديوان حاتم (٣٠) .

كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، أسماء شعراء جاهليين ، وقد أخذا علمها بهم ممن تقـدم عليهم فألف قبلهم في موضوع الشعر والشعراء ، ودوّن (اليعقوبي) في تأريخه جريدة بأسماء شعراء العرب ، وقد جعل أولهم (امرىء القيس) ، وذكر (النابغة) الذبياني بعده ، وانتهى بالمخضرمين[1] ، ولكنـه لم ينص على اسم المورد الذي أخذ تلك الأسماء منه .

ولا نجد بين أسماء الشعراء الجاهليين اسم شاعر واحد نظـم شعره وعاش في العربية الجنوبية أو نظم بلهجة متأثرة باللهجات العربية الجنوبية،فأكثر من ذكروهم من الشعراء انما هم من الشعراء الذين قضوا أكثر حياتهم خارج العربية الجنوبية، وقد كان في هذه العربية شعراء ولا بد ، فليس من المعقول خلوها من الشعـر والشعراء ، ولكن علماء العربية لم يعتنوا إلا بشعراء القبائل التي احتكوا بها والتي أخذوا العربية عنها ، والتي اعتبروا لسانها من أفصح ألسنة العرب ، فضاع بسبب ذلك شعر القبائل التي كانت بعيدة عنهم أو التي كان لسانها بعيداً بعض البعد عن العربية التي ارتضوها والتي نزل بها القرآن الكريم .

ولا نجد في الشعر الجاهلي الواصل الينا شعراً نظم في أغراض دينيـة وثنية ، أي في عبادات القوم قبل الاسلام ، اللهم إلا ما نسب الى بعض الشعراء الأحناف من شعر فيـه تحنف ، وإلا ما نسب الى بعض آخر من شعر فيه اشارات عابرة الى عقائد يهودية أو نصرانية . أما شعر وثني خالص، من شعر فيه ترنيم بالأصنام والأوثان ، وتحميد لها وتقديس ، أو وصف لطقوس دينية وثنية ، فهو شعر لم يصل الينا منه شيء ، وسبب عدم وصوله الينا هو الاسلام ، الذي اجتث كـل ما يمت الى الوثنية بصلة قريبة ، وقضى عليه ، فامتنع المسلمون من روايـة هذا النوع من الشعر .

الشاعر :

والشاعر متعاطي الشعر ومحترفه ومن يقوله ، أو يكثر القول منه . ذكر علماء اللغة أنه إنما سمي شاعراً ، لأنه يشعر ما لا يشعر غيره ، أي يعلم ، أو لفطنته[2].

---

١ اليعقوبي (١/ ٢٣٠ وما بعدها) ، (شعراء العرب) .
٢ تاج العروس (٣/ ٣٠١) ، (شعر) ، العمدة (١/ ١١٦) .

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

ومن هنا قال البعض ان الشعراء في الجاهلية كانوا أهل المعرفة ، يعنون أنهم كانوا من أثقف أهل زمانهم ، وأنهم كانوا على مستوى عالٍ في الفكر والرأي وفي فهم الأمور[1] .

وجعلوا للشعراء مزايا ، ومنحهم العلماء امتيازات خاصة ، وقالوا عنهم : « الشعراء أمراء الكلام ، يقصرون الممدود ، ويمدّون المقصور ، ويقدمون ويؤخرون ، ويؤشرون ويُشيرون ، ويختلسون ويُعيرون ويَستعيرون . فاما لحن في إعراب ، أو إزالة كلمة عن نهج صواب ، فليس لهم ذلك »[2] .

وفي كتب أهل الأخبار أخبار تدل على اعتداد الشعراء بأنفسهم من ناحية الرقي العقلي ، وعلى تقدير الناس لمدارك الشعراء . جاء أن « الطفيل الدوسي قدم مكة ورسول الله بها ، فحذره رجال من قريش من سماع النبي حتى لا يتأثر بقوله . قال الطفيل : فما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ، ثم قلت في نفسي : واثكل أمي ! والله إني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني من أن أسمع هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وان كان قبيحاً تركته »[3] ، وجاء في خبر آخر ، « ان الطفيل لما قدم مكة ، ذكر له ناس من قريش أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وسألوه أن يختبر حاله فأتاه فأنشده شعره ، فتلا النبي الإخلاص والمعوذتين فأسلم »[4] . وفي هذا الخبر ان صح دلالة على تقدير الناس لفطنة الشاعر ولسمو مداركه . وقد رأينا ما كتبه (هوذة بن علي) الحنفي ، للرسول من أنه شاعر قومه وسيدهم ، ونجد في خبر (جلاس بن سويد) الصامت الأنصاري، أن قومه أتوا عليه « فقالوا: إنك امرؤ شاعر ..»[5] ، وفي هذه الأخبار وغيرها دلالة على أن الشعراء كانوا يرون أنفسهم فوق الناس في الفطنة والفهم ، وأن الناس كانوا يرون هذا الرأي فيهم ، لما يجدونه فيهم من فطنة وذكاء .

---

١ فجر الاسلام (٥٥ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢/٤٧١) .
٣ ابن هشام ، سيرة (١/٢٣٥) ، فجر الاسلام (٥٦) .
٤ الاصابة (٢/٢١٧) ، (رقم ٤٢٥٤) ، الاستيعاب (٢/٢٢٣) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الاصابة (١/٢٤٣) ، (رقم ١١٧٦) .

ولا يعني هذا ان الشعراء كانوا كلهم من أرقى الناس عقـلاً ، ومن أفهم الناس إدراكاً ، ومن أعلمهم بالأمور وأبصرهم بالمعرفة ، فبينهم ولا شك تفاوت في الإدراك ، وفي مجتمعهم من هو أرقى منهم عقلاً وأكثر منهم إدراكاً ، وهم مع ذلك لا يقولون الشعر أو لا يمارسونه ، مثل الحكام والكهنة ،وأصحاب الآراء. وانما الشعر ، ملكة ، لا تكون إلا عند صاحب حس مرهف ، ولا تظهر إلا في انسان ذكي فطن لبيب ، يذل الألفاظ والأبيات ، لتنصاع لإرادته ، فيخرجها أبياتاً وقصائد تعبر عن مشاعره ومداركه . فالشاعر من هنا من أذكى النـاس ، ومن أهل الإدراك والمعرفة .

والشعراء ككل البارزين من طبقات مختلفـة تباينت في السويات ، منهم من نبت من عائلة شريفة ، ومنهم من نبت من عائلة أعرابية ، ومنهم من نبغ من بيت فقير . وقد سمى أهل الأخبـار شعراء بأسمائهم كانوا من أشراف قومهم ، وسمّوا شعراء كانوا من أوساط أقوامهم ، أو من النابتة . فالنبوغ لا يختص بجماعة دون جماعة ، ولا بطبقة دون طبقة .

وشعر الشاعر هو دليل عقليته ومقدار مداركه ، ولهذا تباين واختلف ، فنجد في شعر شعراء البادية الروح الأعرابية والخشونة تتجسم في المعاني وفي الألفاظ ، ونجـد في شعر الحضر أثر النفس الحضريـة ، ونرى في شعر الجوابين القاصدين للملوك ، والذاهبين الى الحضر والأعاجم ، أثر اختلاطهم بهم في شعرهم ، كما هو في شعر الأعشى .

والشعراء الجاهليون ، هم من قبائل متعددة ذات لهجـات وحروف في الكلام مختلفة ، ولكننا نرى أن لغة شعرهم وطريقة نظمهـم واحدة ، لا فرق فيها بين قحطاني وعدناني ، ولا بين شاعر من عرب العراق أو بلاد الشأم وشاعر من أهل اليمن أو الحجاز أو نجد . ومعنى هذا ان الشعراء كانوا اذا نظموا شعراً، نظموه ببحور معروفة مقررة ، وبلغة عالية ، سمت فوق لهجات القبائل، على نحو ما نفعل في الزمن الحاضر من استعمال لغة عربية فصيحة هي لغة القرآن الكريم في النظـم والنثر والاذاعة وما شابه ذلك من وسائل الإيضاح والإعلان ، ومن استعمال لهجات محلية في الحياة اليومية الاعتيادية في مثل البيت والسوق والتفاهم بين الناس .

ولكن هـذا لا يعني أن الشعراء لم يكونوا ينظمون الشعر بألسنتهم القبلية ،

ووفق قواعد منطقهم ، فقد ثبت من أقوال علماء الشعر ، ومن أخبار أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا ينظمون بلهجاتهم ، وكان نظمهم مفهوماً عند غيرهم ، وقد تحتاج الاذن الى تأمل وتفكير ، لإدراك كلمات ومعاني ذلك الشعر . قال (ابن هشام) في شرح الشواهد : « كانت العربُ ينشد بعضهم شعرَ بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات »[1] . فالشاعر التميمي ، ينظم بلهجته ، والشاعر الأسدي ينظم بلهجة بني أسد قومه الذين ولد بينهم ، والشاعر الثقفي ينظم بلهجة ثقيف ، ولكنه إذا أنشده في غير قومه ، فهم وعرف معناه ، وان احتيج الى ترقيع أو تعديل في بعض الأحيان .

ودليل ما أقول : هو ما نجده في شعر الشواهد من اضطراب في القواعد ، وخروج على أصول النحو والصرف ، وورود ألفاظ في الشعر الجاهلي دعاها علماء اللغة غريبة أو وحشية ، أو ألفاظ خاصة ذكروا أنها وردت في شعر الشاعر ، لأنها من ألفاظ قبيلته، التي انفردت بها دون سائر القبائل ، ولو كان نظم الشعر بغير لغة القبائل ، لما شاهدنا فيه هذه الخصائص اللسانية التي وجدها علماء اللغة في شعر بعض الشعراء ، ولجاء الشعر كله بلا خصائص قبلية وبلا ألفاظ غريبة ، أما وقد صقل العلماء الشعر وحسنوا في بعض ألفاظه ، ونقحوا منه ما نقحوه ، فإن ذلك دليل في حد ذاته على أن الشعراء كانوا ينظمون الشعر بألسنتهم ، وهي غير متباينة تبايناً كبيراً ، فلما ضبطه العلماء ، ودونوه ، هذبوا ما شذّ منه وفق القواعد التي تثبتت في الاسلام . ففي الأخبار أن رواة الشعر ، كانوا يجرون تغييراً في نصوص الشعر ، لتحسين الشعر وتصليحه ، فقد رووا أن (الأصمعي) رفع لفظة (زنديه) من هذا البيت المنسوب الى (امرىء القيس) :

رب رام من بني ثعلٍ مخرج زنديه من ستره

فجعله كفيه[2] ، ورووا اجراء اصلاحات أخرى ، أدخلها علماء اللغة على شعر امرىء القيس وغيره ، اقتضتها قواعد الاعراب أو البلاغة والبيان[3] .

---

١ المزهر (١/٢٦١) ، (النوع السادس عشر) .
٢ الموشح (٢٢) .
٣ الموشح (٢٢ ، ٢٨ ، ٨٥ ، ٩٥) ، مجالس ثعلب (٤٨١) .

ونجد في (رسالة الغفران) ملاحظة طريفة عن التغيير الذي كان يجريه (المعلمون) في نصوص الشعر ، فقد تصور ان (امرىء القيس) قد سئل عن كيفية وجود (الزحاف) في شعره ، ثم أجاب على لسانه بقوله : « فيقول امرؤ القيس : أما أنا فما قلت في الجاهلية إلا بزحاف :

لك منهن صالحٍ

وأما المعلمون في الاسلام ، فغيّروه على حسب ما يريدون »[1] .

وورد ان رواة الشعر كانوا ينقحون حتى في شعر الشعراء الاسلاميين،وحجتهم في ذلك ان « الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء »[2] . وقد يقوم بذلك رواة الشاعر نفسه . ورد ان رواة الفرزدق كانوا « يعدلون ما انحرف من شعره » ، وأن رواة جرير ، فعلوا مثل فعلهم في إصلاح شعر صاحبهم[3] .

والتصحيح المذكور،وان كان جزئياً ، تناول ألفاظاً في الأكثر، لكنه في الواقع تحريف وتزييف ، وتغيير للنصوص وتبديل لها ، حرمنا من الوقوف على قواعد اللهجات العربية عند الجاهليين ، بسبب ان المعدلين المصححين ، لم يشيروا في كثير من الأحايين الى المواضع التي غيّروها وأجروا التصحيح فيها ، ولو فعلوا ذلك ، لكان الأمر علينا سهلاً هيناً ، إذ يكون في وسعنا إرجاع الأمور الى نصابها والوقوف على النصوص،وإن كان عملهم هذا هو عمل مخالف للذمة وللحق، حتى في هذه الحالة ، لأن من قواعد الأمانة وجوب المحافظة على الأصل .

وعندي أن اللغة التي نظم بها الشعر الجاهلي هي لغة الأعراب ، وهي أصل اللغة العربية ، ولغة أهل البوادي والقرى التي غذتها البادية بالسكان . ولهذا قال (الجاحظ) : « ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابياً »[4] ، دلالة على ما للبادية والبداوة من صلة به . ولهذا أيضاً جعل العلماء مقياس الشعر أن يكون عربياً بألفاظ نجدية ، أي أعرابية خالصة ، وهذه العربية كانت تمتد فتشمل لغة أعراب بادية الشأم ، بما في ذلك قرى الفرات العربية ، التي جاء سكانها العرب

---

١ رسالة الغفران (٣١٨) .
٢ الموشح (١٢٥) .
٣ الاغاني (٤/٢٥٨) .
٤ البيان والتبيين (١/٩٤) .

من البادية . ولهذا أيضاً حفلوا بالشعر الصلب الصلد ، المنظوم بألفاظ بدوية صميمة تمثل الغلظة والشدة والمتانة ، ولم يميلوا الى شعر شعراء أهل القرى ، لأنه شعر سهل سلس ، خال من صلابة البوادي ومن غلظة الشعر الأعرابي .

وشعراء الجاهلية بعد ، إما شعراء ظهروا بين أهل الوبر ، فهم شعراء أعراب يمثل شعرهم نَفَس البادية : وطبيعة البداوة وعقليتها ، وإما شعر أهل مدر ، وهم الحضر ، المستقرون ، وسكان القرى . ولشعر شعرائهم طابع خاص يمثل الطبيعة الحضرية حسب درجاتها ومراتبها واختلاط أهلها بالأعاجم ، أو انعزالهم في مستوطنات حضرية ظهرت في البادية . فمن سافر من شعرائهم واختلط بالأعاجم ، وشاهد بلاد الشأم والعراق ، تأثر بما شاهده ، فبان ذلك الأثر في شعره ، كما يظهر ذلك في شعر الأعشى ، وعدي بن زيد العبادي ، وأمية بن أبي الصلت .

وطبيعي أن يكون بين الشعراء تنافس وتحاسد وتقديم وتأخير وتفضيل . وفي كتب الأدب أمثلة على منافرات ومناظرات جرت بين شعراء ، لبيان رأيهم في شعر شعراء آخرين . وطبيعي أيضاً أن يكون بين شعراء الجاهلية كالذي وقع في كل زمان ومكان ، شعراء فحول ، وشعراء دونهم في المنزلة والدرجة وفي القدرة في الشعر .

وذكر أن شعراء الجاهلية كانوا يتفاخرون بعضهم على بعض ، ويتعارضون في قول الشعر ، ويمالطون . والمالطة : أن يقول رجل نصف بيت ليتمه الآخر ، ويقال لذلك التمليط ، وأن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسيماً وهذا قسيماً ، لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه[1] ، وهو نوع من التفاخر والتنافر والتعجيز وإظهار النفس بالتغلب على المنافس .

وللشعراء بعد منازل في قول الشعر ، فمنهم الشاعر الفحل ، الذي لا يبارى ، ذكر أنهم كانوا لا يسمون الشاعر فحلاً ، إلا إذا كانت له حكمة . ومنهم الشاعر الخنذيذ . والخنذيذ : الفحل ، والشاعر المجيد المفلق ، وتطلق اللفظة أيضاً على الخطيب البليغ المفوه المصقع وعلى العالم بأيام العرب وأشعارهم[2] . وقيل :

---

١ العمدة (٢٠٢/١) ، (٩١/٢) ، « مالط فلان فلانا اذا قال هذا نصف بيت وأتمه الاخر بيتا . يقال ملط له تمليطا » ، اللسان (٤٠٩/٧) ، (ملط) .

٢ تاج العروس (٥٦١/٨) ، (الخنذيذ) ، المزهر (٤٨٩/٢) .

الشاعر الخنذيذ ، هو الذي يجمع الى جودة شعره رواية الجيد من شعر غـيره . والمفلق ، هو الذي لا رواية له ، إلاّ أنه مجود كالخنذيذ في شعره ، وقيل : هو الذي يأتي في شعره بالفلق ، وهو العجب . ثم يليه الشاعر فقط ، وعرّفوا الشاعر ، أنه الذي لم ينعتـه علماء الشعر بنعت من هذه النعوت ومن كان فوق الرديء بدرجة . وأما الشعرور ، فهو لا شيء ، والشويعر ، هو من كان دون الشاعر في الشعر[1] . ويذكرون أن الشعراء أربعة . ذكروا في شعر ، ينسبه بعضهم الى الحطيئة ، هو :

الشعراء فاعلمـن أربعـه فشاعر لا يرتجى لمنفعـه
وشاعر ينشد وسط المعمعـه وشاعر آخر لا يجرى معه
وشاعر يقال خمر في دعـه

وقالوا : رابع الشعراء ، إزدراء وتحقيراً :

يا رابع الشعراء كيف هجـوتني وزعمت أني مفحم لا أنطق[2]

وقسم بعض العلماء الشعراء : ثلاث طبقات : شاعر ، وشويعر ، وشعرور[3] .

ورووا : أن امرأ القيس بن حجر أطلق لفظة (الشويعر) على (محمد بن حمران بن أبي حمران) ، وهو ممن سُمي محمداً في الجاهلية ، وهو شاعر قديم، فقال فيه :

أبلغـا عنّي الشويعر أنّي عمد عـين نكبتهن حزيما

فسمي بهذا البيت الشويعر[4] .

قال (الجاحظ) : « والشعراء عندهم أربع طبقات . فأولهم : الفحل الخنذيذ . والخنذيذ هو التام . قال الأصمعي : قال رؤبة : الفحولة هم الرواة . ودون الفحل

---

١ العمدة (١/١١٤ وما بعدها) .
٢ العمدة (١/١١٤ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢/٩) ، المزهر (٢/٤٩٠ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (٢/١٠) ، الخزانة (١/١٣٠) .
٤ البيان والتبيين (٢/١٠) الآمدي ، المؤتلف (١٤١) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٦) .

الخنذيذ الشاعر المُفلق ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع الشعرور . ولذلك قال الأول في هجاء بعض الشعراء :

يا رابع الشعراء كيف هجوتني وزعمتَ أني مفحم لا أنطق

فجعله سكيتاً مخلفاً ومسبوقاً مؤخراً .

وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعـــراء ثلاث : شاعر ، وشويعر ، وشعرور . قال : والشويعر مثل محمد بن حُمران بن أبي حمران ، سمّاه بذلك امرؤ القيس بن حجر »[1] .

ويظهر من القول المنسوب الى (رؤبة) ، ان الشعراء الرواة ، كانوا في نظره أرفع منزلة من بقية الشعراء ، ولعل ذلك بسبب طول حفظهم للشعر ، مما أكسبهم علماً وخبرة ومراناً به ، فصارت صياغتهم له أعلى من صياغـــة الشعراء الذين لم يكونوا يحفظون شعر غيرهم من الشعراء ، ولم يكن لهم علم بأساليب غيرهم من الشعراء . فبسبب الحفظ ، طوّعوا الشعر والكلم وركبوا ظهره بكل سهولة، حتى صار طوع أيديهم .

والتقسيم المذكور هو تقسيم اسلامي ، كما ان تقسيمهم الشعراء الى سبع طبقات هو تقسيم اسلامـــي كذلك . فقد قسموهم الى أصحـــاب المعلقات ، وأصحاب المجمهرات ، وأصحاب المنتقيات ، وأصحاب المذهبات ، وأصحـــاب المراثي ، وأصحاب المشوبات ، وأصحاب الملحمات[2] .

عدد الشعراء :

وقد أحصى بعض الباحثين المحدثين عدد أسماء الشعراء الجاهليين الذين ذكروا في كتب الأدب ، فبلغ عدد ما أحصوه (١٢٥) شاعراً[3] . وهناك أسماء جاهليين استشهد الرواة ببيت أو بأبيات من شعرهم في كتب الأدب واللغة ، لو أحصوا

---

١ البيان والتبيين (٢/٩ وما بعدها) .
٢ زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٩ وما بعدها) .
٣ زيدان ، (١/٧٧) تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٥) .

واعتبرناهم من ضمن الشعراء ، لاضطررنا إلى تغيير هذا الرقم ، بإضافة هؤلاء عليهم . ومع ذلك ، فإننا لا نستطيع القول بأن هذا الرقم هو رقم نهائي ومضبوط لشعراء الجاهليــة ، فالمنطق يحملنا على تصور وجود عدد آخر من الشعراء فات خبرهم عن رواة الشعر ، لأسباب عديدة ، منها قدم أولئك الشعراء ، بحيث لم تتمكن ذاكرة حفظة الشعر من استيعابهم ، ثم بُعد بعضهم عن الأرضين الـتي حصر علماء الشعر فيها نشاط بحثهم عن الشعر الجاهلي وعن شعرائه ، ثم كـون قسم منهم من الشعراء المحليـين ، أو الشعراء المقلين الذين لم ينتشر شعرهم بين الناس .

وقد فطن الى ذلك القدماء ، فقال (أبو عمـرو بن العلاء) : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[1] ؛ وذكر غيره ان العلماء على حرصهم على العناية بجمع شعر الشعراء ، لم يتمكنوا مع ذلك من جمع أشعار قبيلة واحدة ، فكيف بشعر كل القبائل[2] ! والواقع ان في العرب قابلية على قول الشعر ، وبين الصحابة عدد كبير نظموا شعـراً روي في الكتب،ومع ذلك ، فلم يعدّهم العلماء في جملة الشعراء ، وكذلك الحال بالنسبة الى أهل الجاهلية ، فقد كان بينهم عدد كبير ينظم الشعر .

انشاد الشعر :

وللشعراء طريقة خاصة في انشاد الشعر . يذكرون ان الشاعر منهـم كان اذا أراد إلقاء شعر ، تهيأ لذلك واستعد له ، وأظهر للناس انه يريد إلقاء شعر. ومن أصولهم في الإلقاء أن ينشد الشاعر شعره وهو قائم[3] . وأن يلبس الوشي والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهر[4] .

وذكر أن من عـادة الشعراء في الهجاء ، أن أحدهم كان إذا أراد الهجـاء

---

١ المزهر (٤٧٤/٢) ، ابن سلام ، طبقات (٢٣) .
٢ الشعر والشعراء (٨/١ وما بعدها) .
٣ العمدة (٢٦/١) .
٤ البيان والتبيين (٦٠) ، (انتقـاء الدكتور جميـل جبر) ، (بـيروت ، المطبعـة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، البيان والتبيين (١١٥/٣) ، (هارون) .

« دهن أحد شقي رأسه ، وأرخى إزاره ، وانتعل نعلاً واحدة »[1] . وقد ذكر (المرتضى) ، في خبر وفود العامريين على النعمان بن المنذر ، وكان فيهم (لبيد ابن ربيعة) ، وهو يومئذ غلام له ذؤابة ، وكان القيسيون قد صدوا وجه النعمان عنهم ، فأرادوا تقديم (لبيد) ليرجز بالربيع بن زياد رجزاً مؤلماً ممضاً ، وكان هو الـذي صرف الملك بالطعن فيهم وذكر معايبهم ، فحلقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين وألبسوه حلة وغدوا به معهم ، فدخلوا على النعمان . فقام وقد دهن أحد شقي رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلاً واحدة على فعل شعراء الجاهلية إذا أرادت الهجاء ، ثم أنشد رجزه الذي أثر في النعمان ، حتى صار سبباً في ابعاد (الربيع ابن زياد) عنه[2] .

واذا أراد شاعر انشاد شعر ،وقف وأنشد شعره ، بأسلوبه الخاص في الإنشاد[3]. وقد يترنمون في انشادهم ليكون الإلقاء أوقع أثراً في نفوس السامعين . وقد يلقي راوية الشاعر شعر شاعره إذا كان أقدر منه على الإنشاد . وذكر أن (النشيد) هو الشعر المتناشد بين القوم ينشد بعضهم بعضاً ، ومنه نشد الشعر وأنشده ، إذا رفعه . وأنشد بهم ، هجاهم . « وفي الخبر أن الشيطين قالوا لغسان : هـذا جرير ينشد بنا ، أي يهجونا »[4] . ولا يخلو الانشاد من الترنم على اللحن الذي يتسمح به الطبع ، ومن مدّ الصوت ، ليكون للشعر وقع على نفوس سامعيه ، وتأثير جميل على المنصتين له .

وذكر ان الشعراء كانوا لا ينشدون إلا قياماً ، وقد يعلو أحدهم موضعاً مشرفاً ، أو يركب ناقته ، ليدل على نفسه ، ويعلم انه المتكلم دون غيره، وكذلك كان يفعل الخطيب[5] . وقد استدل بعض المستشرقين من هـذا الوصف على أن الشعراء انما أخذوا تقليدهم هذا من السحرة : الشعراء الأوائل ومن الكهنة ، لأن السحرة والكهنة كانوا ينظمون الشعر وينشدونه على هيأة خاصة،يلبسون فيها أردية خاصة ويقفون في وضع خاص حين إنشاد الشعر .

---

١ أمالي المرتضى (١٩١/١) .
٢ أمالي المرتضى (١٩١/١) ، الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٢٣/٣) .
٣ العمدة (٢٦/١) .
٤ اللسان (٤٢٢/٣ وما بعدها) ، (نشد) .
٥ العمدة (٢٦/١) .

وذكر ان الملوك كانوا يجلسون خلف الستور حين يستمعون الى شاعر . فروي ان (عمرو بن هند) كان يسمع الشعراء من وراء سبعة ستور[1] . وان الشاعر (الحارث بن حلزة) اليشكري لما طلب قومه منه انشاد قصيدته أمام (عمرو بن هند) ، قال لهم : « والله إني لأكره أن آتي الملك فيكلمني من وراء سبعة ستور ، وينضح أثري بالماء ، اذا انصرفت عنه ، وذلك لبرص كان به » . فلما سمع قصيدته أمر برفع الستور سترا سترا ، حتى صار مع الملك في مجلسه ، وأمر أن لا ينضح أثره بالماء .. » « وأمره أن لا ينشد قصيدته إلا متوضئاً »[2] .

ولكن العادة أن الشاعر يقف أمام الملك ، الذي قد يكون جالساً على سرير ، فينشده شعره بعد أن يكون قد استأذنه بذلك . وقد يكون في المجلس جملة شعراء ، أذن لهم بالدخول عليه جملة واحدة ، لينشدوا الملك شعرهم وما جاءوا به من شعر في مديحه . ويكون المجلس عامراً بأهل الحظوة من المقربين الى الملك ومن الشعراء الملازمين له . وكانت مجالس ملوك الحيرة ، عامرة بهذه المناسبات ، أكثر بكثير من مجالس الغساسنة ، لغلبة النزعة الأعرابية على ملوك الحيرة وقلة تأثرهم بالحضارة ، وتغلب الحياة الحضرية على الغساسنة وتأثرهم بالحياة اليومية لأهل الشأم ، وبنزعة الروم في الحكم وفي آداب السلوك ، حتى أنهم كانوا يتلذذون في الاستماع الى غنائهم ، ولهم قيان في قصورهم وبيوتهم يغنين لهم بغناء الروم .

وكان من عادة الأعراب الطواف حول قبة الملك مع رفع الصوت بالرجز ، ليسمع الملك صوت الراجز ، فإذا عرفه أو أعجبه رجزه ، اذن له بالدخول . وكان الملوك يضربون قبة على أبوابهم ، يقعد فيها الناس حتى يؤذن لهم[3] وقد يكون هذا الرجز مقدمة لدخول الشاعر على الملك حتى يلقي عليه ما يكون نظمه في مدحه وفي مدح آله من شعر .

وكان من عادة الملوك وسادات القوم والأشراف انهم اذا سمعوا الشاعر ، واستحسنوا شعره ، طربوا حتى يظهر الطرب عليهم وأظهروا استجادتهم لشعره ، وربما شربوا اذا كانوا في مجلس الشرب ، وأدنوا الشاعر اليهم ، وأسقوه من

---

١ شرح المعلقات ، للزوزني (١٥٤) ، (صادر) .
٢ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٣٧٩ وما بعدها) ، (معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي) .
٣ الخزانة (١٥٨/٤) ، (بولاق) ، (الشاهد الثامن والثمانون بعد السبعمائة) .

شرابهم حتى يطرب . وقد يطلبون من الشاعر إعادة إنشاد الأبيات المستجادة . وكان الشاعر يستأذن صاحب المجلس أولاً ليسمح له بانشاده شعره . ولما استأذن (النابغة) الجعدي رسول الله ، أن ينشده شعره ، قال له الرسول : أجدت لا يفضض الله فاك ، أي لا يكسر أسنانك ، والفم هنا الأسنان[1] . ولا زال الناس يرددون هذه العبارة وعبارة : أعده أحسنت وأجدت ، أو أعد أعد ، يقولونها بحماس وبصوت مرتفع ارتفاعاً يتناسب مع حس الاستحسان اذا قال الشاعر قولاً يستجيده العارفون بالشعر .

سوق عكاظ :

ومن مرويات أهل الأخبار ، ان الشعراء الجاهليين كانوا يفدون الى عكاظ ، « فيتعاكظون ، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، ثم يتفرقون »[2]. وذكر ان (النابغة) الذبياني ، كان ممن يأتيها ، فتضرب له قبة حمراء من أدم ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، وكان ممن تحاكم اليه ، الأعشى ، أبو بصير ، فأنشده ، ثم أنشده (حسان بن ثابت) ، ثم الشعراء ، ثم جاءت (الخنساء) فأنشدته ، فقال لها (النابغة) : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت انك أشعر الجن والإنس . فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك . فقبض النابغة على يده ، ثم قال : يا ابن أخي ، انك لا تحسن أن تقول مثل قولي :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

ثم قال للخنساء : أنشديه ، فأنشدته ، فقال : والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك ، فقالت له الخنساء : والله ولا ذا خصيين »[3] .

---

١ تاج العروس (٥/٦٩) ، (فض) .

٢ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) ، معجم البلدان (٦/٢٠٣) ، البلدان (٣/٧٠٤) ، اللسان (٧/٤٤٧) ، (عكظ) .

٣ الشعر والشعراء (١/٢٦١) ، الاغاني (٨/١٩٤) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٦ وما بعدها) ، تاج العروس (٥/٢٥٥) .

وروي أن (حسان) كان قد أنشده شعره :

لنا الجفنات الغُر يلمعن بالضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق   فأكرم بنا خالاً واكرم بنا ابنما

فقال له (النابغة) : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفناتك وسيوفك،وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك[1] .

وهو خبر مصنوع ، شك فيه العلماء ، « قال أبو علي : هذا خبر مجهول لا أصل له »[2] . وقد روي عن الآمدي قوله : « أجمعت العرب على فضل النابغة الذبياني ، وسألته أن يضرب قبة بعكاظ ، فيقضي بين الناس في أشعارهم لبصره بمعاني الشعر ، فضرب القبة وأتته وفود الشعراء من كل أوب » . ثم ذكر القصة ، وروي أن الذي فَنَّد حساناً وعاب عليه بيته ، هو الخنساء[3] . والقصة مطعون فيها . « حكى ابن جني عن أبي علي الفارسي ، أنه طعن في صحة هذه الحكاية »[4] . فالقصة موضوعة،وما هذا القصص المروي عن (عكاظ)، إلا من روايات أهل الأخبار ، وضعوه مع قصصهم الموضوع عن اختيار قريش للغة ، وتخيرها أحسن الألفاظ ، وتحكيمها في الشعر .

وذكر أن (عمرو بن كلثوم) كان ممن حضر سوق عكاظ ، وقد أنشد فيها قصيدته الشهيرة :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تُبقي خمور الأندرينا

وهي معلقته الشهيرة ، وهي قصيدة طويلة ، ذهب الكثير منها ، قيل إنها كانت تزيد على ألف بيت . وقد ذكر أن الرسول سمع الشاعر ينشد قصيدته هذه بسوق عكاظ[5] .

---

١ العسكري ، المصون (٣ وما بعدها) ، خزانة الادب (٣/٤٣٠ وما بعدها) ، ديوان حسان (٣٧١ وما بعدها) ، الاغاني (٧/١٨٠) .
٢ خزانة الادب (٣/٤٣١) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٦ وما بعدها) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٧) .
٥ الاغاني (١١/٥٤) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٢٢) .

obeikandi.com

ولم نسمع ان أحداً من الشعراء حكم في الشعر في سوق عكاظ قبل (النابغة) ولا بعده . وسوق عكاظ سوق لم تقم إلا قبيل الاسلام ، ولعل هذا التحكيم من القصص الذي أوجده أهل الأخبار ، وقد يكون (النابغة) قد نظر حقاً في شعر (حسان) ، ولكن ذلك لا يمكن أن يعد حكومة دائمة لسوق عكاظ ، اختصاصها النظر والتحكيم في شعر الشعراء الجاهليين ، واذا كان (النابغة) حاكم سوق عكاظ حقاً ، فلمَ لم نسمع بأحكام أخرى له في حق شعر شعراء آخرين ، ما دام كان يحضرها في كل عام ، وتضرب له قبة من أدم ، يجعلهـــا مقراً له ولحكومته ، ولمن يحضر اليه من الشعراء رجاء النظر في شعره .

وذكر ان القبائل كانت تفد الى (عكاظ) وتبحث عن مختلف الأشياء وتتداول أشياء قبيحة أو محمودة ، وان الرسول حضرها ، للدعوة الى الاسلام[1] .

ولم نسمع بأن الشعراء كانوا يتوافدون الى مكة موسم الحج ، لإنشاد شعرهم، على نحو ما ذكر عن سوق عكاظ ، مع أن موسم الحج من المواسم المعهودة بالنسبة الى قريش والى من كان يعيش حولها من قبائل ، وشرف إلقـاء الشعر في موسم الحج أسمى ولا شك من شرف إلقائه بسوق عكاظ وفي الأسواق الأخرى ، فلو كان الشعراء كما زعم أهل الأخبار يقيمون وزناً كبيراً لحكم قريش في أشعارهم ، فلِمَ لا نجد في أخبارهم خبراً يشير الى تجمع الشعراء في مكة للتبـاري في انشاد الشعر وفي الحصول على شرف التقدير والتقيم من قريش ، ليتباهى الفائز بالتقدير على سائر أقرانه الشعراء ؟ ثم لِمَ لم نسمع بأسماء القصائد التي نالت منهم شرف التقدير والتعظيم ، خلا المعلقات السبع ، التي شك في صحة تعليقها حتى المحافظين من أمثال المرحوم (الرافعي) !

يثرب :

واذا كانت سوق عكاظ موضع تحكيم على النحو الذي رأيناه ، واذا كانت مكة ، قد نظرت في شعر شاعر ، أو شاعرين ، فقد كانت يثرب موضع تقدير

---

١ التاريخ الكبير (٣٢٣/١) ، البداية والنهايـــة (١٤١/٣) ، معجـــم البلـدان (٧٠٤/٣) ، الاغاني (٦/١١) ، المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة (١٥١٤/٣ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٥٢) .

وتقييم للشعر كذلك . فقد ذكر أهل الأخبار ان « النابغة قدم المدينة ، فدخل السوق ، فنزل عن راحلته ، ثم جثا على ركبتيه ، ثم اعتمد على عصاه ثم أنشأ يقول :

عرفت منازلاً بعريتنات فأعلى الجزع للحي المبين

حتى اذا انتهى من شعره ، قال ألا رجل ينشد ؟ فتقدم (قيس بن الخطيم) فجلس بين يديه وأنشده قصيدته التي مطلعها : « أتعرف رسماً كاطراد المذهب » حتى فرغ منها ، ثم استمع الى شعر حسان . وذكر انه قال لكل واحد منهما : « أنت أشعر الناس »[1] .

وروي ان (النبي) وضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي[2] ، وذلك لما كان للشعر من أثر في نفوس الناس آنذاك .

وقد تخصص أناس بإنشاد الشعر ، كانوا رواة شعر ، ينشدون شعر غيرهم أو شعرهم بأسلوب مؤثر ، ذكر ان منشداً أنشد يوماً رسول الله :

لا تأمنن وإن أمسيتَ في حرم حتى تلاقي ما يمني لك الماني
فالخير والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان[3]

تطواف الشعراء :

وكان الشعراء يتنقلون من مكان الى مكان ، فكان (الأسود بن يعفر) ، « يكثر التنقل في العرب يجاورهم ، فيذم ويحمد »[4] ، وجاب (الأعشى) معظم أنحاء جزيرة العرب والعراق وبلاد الشأم ، وكان النابغة يتنقل ، فيزور ملوك الحيرة والغساسنة ، ويسافر الى مكة وسوق عكاظ ، وكان (عمرو بن كلثوم) من المتنقلة كذلك ، وقد علمت أمر (امرىء القيس) وتنقله بين القبائل، وأمر

---

١ الاغاني (٣/١٠) ، (دار الثقافة) .
٢ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) .
٣ الفائق (٣/٥٢) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .

(الصعاليك) ، الذين كانوا يتنقلون من مكان الى مكان للحصول على رزقهم ، وأمر (حسان) وقصده ملوك الغساسنة ووصوله الى الحيرة ، بل اننا لا نكاد ندرس حياة شاعر جاهلي ، حتى نراه جواباً ، متنقلاً من مكان الى مكان، حتى صار التنقل من سيماء الشاعر عند الجاهليين ، وكان هدفهم في الدرجة الأولى ملوك الحيرة ثم ملوك الغساسنة ، أما ملوك اليمن ، فقلما نجد في أخبار الشعراء وصولهم اليهم وانشادهم شعرهم أمامهم ، وذلك بسبب أن لسانهم كان لا يشاكل لسان الشعراء ، وأما ما نسب اليهم من شعر ، وما قيل من مدح بعض الشعراء لهم ، فهو من القصص الذي لا يرجع الى أصل ، إلا ما ذكر من شعر في مدح بعض أذواء اليمن،فإن هؤلاء لم يكونوا ملوكاً ، وإنما كانوا سادة مواضع وقبائل تقع شمال اليمن في الغالب ، وقد كانت على صلة بالعرب الشماليين ، وبلغة (ال) في ذلك الحين ، ومع ذلك فإن صلتهم بهم لم تكن على نمط صلة الشعراء بساداة العرب الشماليين .

كان الشاعر يتنقل بين القبائل ، فينزل على ساداتها ويحل في ضيافتهم ، يقصد ملوك الحيرة خاصة ، لما كان لهم من نفوذ في جزيرة العرب ، ولينال عطاياهم، أو ليتوسط في حل ما بين الملوك وما بين قبيلة الشاعر، أو قبائل أخرى من أمور معقدة ومشكلات مستعصية ، كما كان يزور الريف والقرى للميرة ولنيل هبات ساداتها من تمور أو دقيق أو أي شيء آخر يكون عند الحضر . فيمدح ويذم ، وينشد شعره في أسواق القرى وفي نواديها ومجتمعاتها ، فكان سوق (يثرب) ، وهو المحل الذي يتجمع فيه الناس للبيع والشراء الموضع الذي يقصده الشاعر لإنشاد شعره به ، ثم حل مسجد الرسول محله في الاسلام .

وقد ورد في الشعر الجاهلي ذكر بعض المواضع التي نزل بها الشاعر ، أو التي ارتحل اليها ليزورها ، وقد طمست أسماء بعض منها ، وبقيت أسماء بعض آخر . وقد أمدتنا هذه الأسماء بمادة طيبة ، أفادتنا في الحصول على معارف تأريخية وجغرافية عنها . ففي شعر (الأعشى) ، وهو من الشعراء المتنقلة الذين أكثروا من الأسفار ، وتنقلوا من مكان الى مكان ، نجد أسماء أماكن عديدة وردت في شعره ، مثل (عانة) ، و (بابل) ، و (الحيرة) ، ومواضع في اليمامة وفي اليمن . وتطرق في شعره هذا الى أحوال من مر بهم ، وذكر أسماءهم وأسماء قبائلهم ، فصار شعره لذلك مورداً هاماً بالنسبة لنا ، أفادنا في الوقوف على

نواح مهمة من التأريخ الجاهلي .

رحل (الأعشى) الى الغساسنة ملوك عرب الشأم ، والى المناذرة ملوك عرب العراق ، والى (قيس بن معديكرب) ، والى (ذي فائش) في اليمن ، والى (بني الحارث بن كعب) في نجران ، فمدحهم ونال عطاءهم ،وأقام عندهم يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي[1] ، مما يدل — إن صح هذا الخبر — على تأثر سادة نجران بالثقافة الرومية ، التي ربما أخذوها عن طريق ارتباطهم بالروم بروابط النصرانية ، وعلى وجود جالية من الروم في نجران أو رجال دين من الروم ، عينتهم الكنيسة لتعليم الناس أمور الدين ، فقد كان الروم يرسلون رجال دينهم الى هذه المواضع والى غيرها للتبشير ، ولأغراض سياسية في الوقت نفسه .

ونجد في شعر (الصعاليك) أسماء المواضع التي غزوها ، والطرق التي سلكوها في طريقهم الى الغارات ، أو في طرق عودتهم منها الى ديارهم ، ونظراً الى كثرة تنقلهم وخبرتهم بالمواضع ، وبأبعادها وبأصحابها ، لما في هذه الخبرة من العلاقة بنجاح سوقهم وتجارتهم ، أفادتنا إشارتهم الى المواضع والقبائل فائدة كبيرة إذ حصلنا بواسطتها على معارف عن أحوال أهل الجاهلية ، ساعدتنا في سد بعض الثلم الكثيرة من ثلم بنيان التأريخ الجاهلي .

طباع الشعراء :

والشعراء في الطبع مختلفون ، منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من تتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل ، ومنهم من يحسن الوصف ، فإذا صار الى المديح والهجاء ، أو الى الحكم والموعظة ، خانه الطبع ، وتأخر عن غيره من الفحول[2] . ومن هنا لم يبرز فحول الجاهلية ، ومن عدّ في الطبقة العليا من طبقات الشعراء في كل درب من دروب الشعر وطرقه وفنونه . بل ظهروا وبرزوا في أمور ، وتأخروا أو لم يبرزوا في أمور أخرى ، فذكروا مثلاً ان (النابغة) الجعدي ، كان أوصف الناس لفرس[3] . وورد عن (ابن الأعرابي) قوله :

---

١ الاغاني (٦/٣٠) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣٧) ، (الثقافة) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .

« لم يصف أحد قط الخيل إلا احتـاج الى أبي دواد ، ولا وصف الحُمر إلا احتاج الى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد النعامة إلا احتاج الى علقمـة بن عبدة ، ولا اعتذر أحد في شعره إلا احتاج الى النابغة الذبياني[1] .

وقد قال من قدّم (امرأ القيس) على غيره من الشعراء ، انـه « سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعته فيهـا الشعراء ، منه استيقاف صحبه والبكاء في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخـذ ، وشبّه النساء بالظباء والبيض والخيل والعقبان والعصي ، وقيّد الأوابد ؛ وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً »[2] . فهذه هي المزايا التي ميزت شعره عن شعر غيره من الجاهليين .

وقال علماء الشعر الذين قدّموا النابغة على غيره ، انه كان أحسنهم ديباجـة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً ، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف[3] . وأما الذين قدّموا (زهيراً) على غيره ، فقالوا : « كان زهير أحكمهم شعراً وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة في المدح »[4] .

وقلما نجد الشاعر الجاهلي يعنى بوصف الطبيعة أو مظاهرها بشعر خاص ، كأن يصف المطر وحده ، أو الشمس والكواكب والأجرام السماويـة ، أو الجبال أو السهول أو الحيوانات أو النبـات ، وصفاً خاصاً لا يهرب منه الى أمور أخرى لا صلة لها بهذا الوصف ، ثم إنه قلما يتعمق في الوصف ، فيصف الأجزاء والفروع وكل ما في الموصوف من مميزات ، وهو إذا وصف الطبيعة ، أو تعرض لوصف مشهد بارز منها أثر عليه ، فإنه لا يفرد ذلك الوصف في كلمة خاصة به لا يشاركه فيها مشارك بحيث يكون شعره وصفياً خاصاً بالطبيعة ، وإنمـا يقحم الوصف في القصيدة جرياً على العرف الشعري الذي سار عليه الشعراء ، وليس عن عمد وتقصد لوصف ما يراد وصفه بالذات . ثم هو لا يصف من الشيء الموصوف ككل ، وإنما يصف منه ما يلفت نظره ، وما يؤثر على حسه وبصره . فهـو إذا وقف

---

١ الاغاني (١٥/٩٣) .
٢ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .
٣ ابن سلام ، طبقات (١٧) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١٨) .

أمام شجرة لا ينظر اليها ككل ، إنما يستوقف نظره شيء خاص فيها ، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها ؛ وإذا كان أمام بستان لا يحيطه بنظره ، ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه (الفوتوغرافيا) ، إنما يكون كالنحلة يطير من زهرة الى زهرة فيرتشف من كل رشفة .

هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف لك ما ترى في أدب العرب — حتى في العصور الإسلامية — من نقص ، وما ترى فيه من جمال .

فأما النقص فما تشعر به حين تقرأ قطعة أدبية — نظماً أو نثراً — من ضعف المنطق ، وعدم تسلسل الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وقلة ارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، حتى لو عمدت الى القصيدة — وخاصة في الشعر الجاهلي — فحذفت منها جملة أبيات أو قدّمتَ متأخراً أو أخرت متقدماً ، لم يلحظ القارىء أو السامع ذلك — وإن كان أديباً — ما لم يكن قد قرأها من قبل[1] .

« وهذا النوع من النظر هو الذي قصّر نفَس الشاعر العربي ، فلم يستطع أن يأتي بالقصائد القصصية الوافية،ولا أن يضع الملاحم الطويلة كالإلياذة والأوديسا.

أما ما أفادهم هذا النوع من التفكير ، وخلع على آدابهم جمالاً خاصاً، فذلك ان هذا النظر لما انحصر في شيء جزئي خاص جعلهم ينفذون الى باطنه ، فيأتون بالمعاني البديعة الدقيقة التي تتصل به ، كما جعلهم يتعاورون على الشيء الواحد ، فيأتون فيه بالمعاني المختلفة من وجوه مختلفة ، من غير إحاطة ولا شمول ، فامتلأ أدبهم بالحِكم القصار الرائعة والأمثال الحكيمة . وأتقنوا هذا النوع الى حد بعيد ، عَنِيَ به عقلهم ، وانطلقت به ألسنتهم ، حتى لينهض الخطيب فيأتي بخطبته كلها من هذه الأمثال الجيدة القصيرة ، والحِكم الموجزة الممتعة ، فلكل جملة معان كثيرة تركزت في حبّة ، أو بخار منتشر تجمع في قطرة . ولما جاء الاسلام تقدم هذا النوع من الأدب ، واقتبسوا كثيراً من حِكم الفرس والهند والروم »[2] .

وأكثر الوصف الوارد في الشعر الجاهلي ، وصف لم يرد لأن الشاعر قصده وأراده ، وإنما هو وصف ورد عرضاً في القصيدة على النسق الذي زعموا أن (امرأ القيس) وضعه وحاكاه فيه غيره ممن عاصره أو جاء بعده من الشعراء .

---

١ فجر الاسلام (٤٢ وما بعدها) ، (الطبعة العاشرة ١٩٦٥) .
٢ فجر الاسلام (٤٣ وما بعدها) .

فالشاعر يبدأ بتذكر الديار وبالبكاء على الأحبة وعلى من فارقهم ، فيدفعه ذلك الى الوصف ، بأبيات يجعلها مقدمة لغرض آخر ، فهي إذن مقدمة ، وليست غاية ، ثم هو إذا افتخر وأراد الاشادة بنفسه وبما قام به من عمل بطولي،لم يصف نفسه وصفاً شاملاً عاماً ، وإنما يصف من نفسه بعض ما يعجبه وما يريد التبجح به ، من مغامرات عجيبة قام بها ، ومن صبر وتحمل للجوع وللمشقات وللأهوال ومن عدم تهيب من اقتحام الصحارى الموحشة المخوفة ، وحده ، لأنه لا يرهب أحداً ، ولا يخشى وحشاً ، فإذا جابهه وحش ، وصفه وصفاً ، لا يتعدى النواحي الخاصة التي يراها تظهر شخصيته وتبرز شجاعته ثم يبالغ ويبالغ في وصف المخاطر والمهالك التي لم يبال بها ، للوصول الى هدفه[1] . وهو اذا اصطاد صيداً ، بالغ في الجهد الذي صرفه في صيده ، ونوه بجودة حصانه ، وبالطريقة التي صاد بها فريسته .

وهو اذا ما أراد مدح انسان ، قدم لمدحه مقدمة تزيد على شعر المدح في الغالب ، يذكر فيها الأهوال والمخاطر وحرّ الشوق ، والتلهف الشديد وما شاكل ذلك من أمور ، لتكون شرح حال له يبين مبلغ حبه له واخلاصه لمن سيمدحه، ذي الجود والكرم والسخاء ، الذي يجود بماله وبما عنده ، ولا يحسب لنفسه ولأهله حساباً ، يجود خاصة في السنة الجماد ، وفي مواسم القحط والبرد الشديد حيث تموت الماشية والأنعام ، ومع ذلك فإن الممدوح ، لا يعبأ بكل ذلك ، ويسخر من الخوف من العواقب السيئة التي ستحيق به إن بذر ماله . وقد يبالغ الشاعر نفسه في مدح نفسه ، ويشيد بسخائه وجوده ، ويتخذ من ذلك قصص شجار يقع بينه وبين زوجه في الغالب ، يشاركها ولدها فيه ، بسبب تبذير الرجل لما عنده من مال ، وعدم اهتمامه بما سيحيق بأهله من جوع وفقر .

وهو اذا تغزل ، فوصف محبوبته ، فإنما يصف منها ما يلفت نظره ، من أجزاء في الجسد ، أو لون أو ما شاكل ذلك مما يلفت نظره ، وقد يقارن بينها وبين بعض الحيوانات التي تعجبه مثل المها والظباء ، والخيل والعقبان ، وقد زعم

---

١ غرونباوم (١٦٠ وما بعدها) ،
G. E. Von Grunebaum, Die Wirklichkeitweite der Fruh-arabisch Dichtung, Wien, 1937, S. 148. f.

أهل الأخبار ان (امرأ القيس) كان قد سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء ، منها انه شبّه النساء بالأمور المذكورة، فصار تشبيهه هذا لهن سنّة لمن جاء بعده من قالة الشعر[1]. وقد يصف الليل وشدة طوله وسهره فيه ومبلغ ما ألمّ به من أرق لفراق محبوبته ، أو من شدة تذكره لها ، وقد يذكر حزنه على فراقها وكيف انه كان يقضي لياليه ساهراً يناجي نجوم السماء ، ويعدها، ينتظر ذهاب كابوس ليله عنه حتى يتراءى له نور الصباح ، وفيه الأمل والرجاء. ووصفه كله ، ليس وصفاً كلياً عاماً محيطاً ، وانما وصف جزئي ، جاء تعبيراً عن خاطر الشاعر ومحاكاة للطريقة التقليدية التي توارثها الشعراء بعضهم عن بعض.

وقد برز بعض الشعراء في وصف بعض الحيوانات ، كما أشرت الى ذلك في مواضع سابقة ، فقد اشتهر (أبو دؤاد) بوصف الخيل ، حتى صُيّر بطل الشعراء في هذا الميدان ، واشتهر النابغة الجعدي بوصف الفرس ، واشتهر أوس ابن حجر بوصف الحمر ، وعرف علقمة بن عبدة بوصف النعامة[2] . وقد وصف غيرهم من الشعراء هذه الحيوانات وغيرها ، كما نجد ذلك في الأشعار المنسوبة اليهم .

ومن أبرز المواضيع التي تطرق اليها الشعراء في وصفهم لمظاهر الطبيعة: المطر، والنخيل،والسحب ، ومشاهد من فصول الشتاء ، والغدران ومواضع المياه والسيول والنحل والعسل البري ، وبعض الصخور الغريبة ، والطيور ، أما البحر والسفن ، فيردان على لسان الشعراء الساكنين على السواحل ، حيث يرون البحر وسفنه[3] . ولكننا لا نجد وصفاً خاصاً بهما ، يظهر فيه تأثر الشاعر وإحساسه بالبحر ، أو بالسفن ، من حيث هي سفينة ، وإنما ذكر وهما عرضاً على سبيل الفخر ،ولأمور عرضية أخرى . فالوصف الجاهلي لعناصر الطبيعة خالياً من المشاعر الخاصة ، ومن التصورات المعبرة عن إلهام الشاعر الذاتي[4] .

وذكر أن من الشعراء من كان يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ، ولا يستبهر بالفواحش ولا يهتم في الهجاء ، ومنهم من كان ينعي على نفسه ويتعهر ،

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٢٧) ، الاغاني (٩٣/١٥) .
٣ غرونباوم (١٦٢) .
٤ غرونباوم (٦١) .

ومنهم امرؤ القيس والأعشى[1] ، وأن منهم من كان يأتي بالحكم في شعره ، مثل: زهير والأفوه الأودي ، وعلقمة بن عبدة ، وعبيد بن الأبرص ، وعـدي بن رعلاء الغساني وغيرهم . والحكمة عندهم ، هي خلاصة تجارب الشاعر في هذه الحياة ، وما حصل عليه من رأي استوحاه من الواقع أو من أفواه الناس وتجاربهم. وهي بديهة من البديهيات صيغت شعراً . قد يبدع في صياغتها الشاعر فتسير بين الناس مثلاً ، كقول (عدي بن رعلاء) الغساني :

ليس من مات فاستراح بميْتٍ إنما الميّتُ ميّتُ الأحيـاء[2]

ويظهر من بيت ينسب الى (زهير) ، هو :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً أو مُعاداً من لفظنا مكرورا

إن شعراء الجاهلية كانوا قد وصلوا الى حالة جعلتهـم يقلدون من سبقهم في الشعر ويحاكون طرقهم في النظم ، فهم يعيدون ويكررون ما قاله الشعراء قبلهم . وهو كلام يؤيده قول علماء الشعر في القصيدة ، من انها كانت تسير على هدى الشعراء السابقين في نظمها من بدء بذكر الديار والبكاء على الأحبة والأطلال الى غير ذلك من وصف ، حتى صارت هذه الجادة ، جادة يسير عليها كل شاعر، مما أثّر على البراعة والابتكار وجعل الشعر قوالب معروفة معينة ، يختار الشاعر قالباً منها ليعبر به عما يريد أن يقوله نظماً . ومن هنا ثار (أبو نواس) وأضرابه من الشعراء الاسلاميين على (التقليد) في النظم ، لتبدل العقلية وتغير الزمن ، وإن كنت أجد في هذه الثورة مبالغة وإفراطاً في الاتهام . فالقصيدة الجاهلية وإن غلب عليها التقليد والمحاكاة ، مما ضيق عليها المعاني ، إلا انها لم تكن كلها على نمط واحد على نحو ما يقوله علماء الشعر والأدب ، كان الشعراء يراعون الوزن والقافية والرويّ ، وهي أمور ميزت الشعر العربي عن غيره ، ولكنهـم كانوا يتحللون فيما عدا ذلك ، فيأتون بالمعاني التي تدركها عقولهم ، وهي معـان استمدت من المحيط ، وهو محيط واحد ، ألهم الشعراء شعرهم ، فمن ثم تقارب الإلهام وقربت المعاني ، ولو تعددت طبيعته ، لما غلب على شعر أولئك الشعراء ما نأخذه عليهم

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٤) .
٢ الاصمعيات (١٧١) .

وقد كان تغير وتنوع معاني الشعر في الاسلام ، نتيجة حتمية لتغير المحيط .

المغلبون :

ومن الشعراء من كان لا يستطيع الوقوف أمام خصمه ، فيغلب ، فذكر ان (النابغة) الجعدي ، كان مختلف الشعر مغلَّباً . وكانت العرب اذا قالت مغلَّباً فهو مغلوب ، واذا قالب غَلَبَ ، فهو غالب ، وقد غلبت عليه (ليلى الأخيلية) و (أوس بن مغراء) القريعي[1] . وذكروا ان (تميم بن أبي مقبل) وهو شاعر (خنذيذ) مُغَلَّب عليه النجاشي ، ولم يكن اليه في الشعر ، وقد قهره في الهجاء، ثم هاجى النجاشي عبد الرحمان بن حسان فغلبه عبد الرحمان ، وكان « ابن مقبل جافياً في الدين . وكان في الاسلام يبكي أهل الجاهلية ويذكرها ، فقيل له تبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم ، فقال :

وما لي لا أبكي الديار وأهلها وقد زارها زوار عك وحميرا
وجاء قطا الأجباب من كل جانب فوقع في اعطاننا ثم طيرا[2]

ومن المغلبين : الزبرقان ، غلبه عمرو بن الأهتم ، وغلبه المخبل السعدي ، وغلبه الحطيئة ، وقد أجاب الإثنين ولم يجب الحطيئة[3] .

والهجاء فن ، لا يستطيع كل شاعر أن يبرز فيه ، لما يجب أن يكون في الشاعر من ذكاء وسرعة خاطر وقابلية على إسكات الخصوم . ولهذا كان يخشى جانب الهجاء فلا يتعرض له إلاّ من وهب قابلية على الهجاء . وإلا غلب على أمره ، وصار من المغلبين[4] ، وهو من أهم أبواب الشعر عند الجاهليين ، لما له من أثر في حياتهم ، حيث يغض من منزلة المهجو .

وذكر أن الشعراء كانوا ينازعون بعضهم بعضاً على التقدم في الشعر ، فذكر أن (امرأ القيس) نازع (الحارث بن التوأم) اليشكري ، فقال : إن كنت

---

١ ابن سلام ، طبقات (٢٦ وما بعدها) ، العمدة (١/١٠٤) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣٤) .
٣ العمدة (١/١٠٧) .
٤ العمدة (١/١١١ وما بعدها) .

شاعراً ، فأجز أنصاف ما أقول فأخذا يتسابقان في ذلك[1] . وذكر أن (عبيد بن الأبرص) الأسدي ، لقي (امرأ القيس) يوماً ، فقال له عبيد : كيف معرفتك بالأوابد ؟ فقال له : إلق ما شئت ، وأخذا يتسابقان . وكان آخر مـــا أجاب به (امرؤ القيس) هذا البيت :

تلك الموازين والرحمـــان أنزلها ربّ البرية بين الناس مقياسا[2]

وهو بيت مفضوح ، يحدثك عن أصله وفصله ، وعن هذه القصة ، وقـــد فات وضاع القصة أن هذا الشعر لا يمكن أن يقع من شاعر جاهلي ، لا سيما إذا كان على شاكلة امرىء القيس .

والأبيات الجيدة من الشعر ، في نظر نقدة الشعر هي الأبيات التي إذا سمعت صدر البيت فيها ، عرفت قافيته[3] .

بدء الشاعر :

يبدأ الشاعر بالشعر بعد إحساسه بوجود ميول له الى الشعر ، تدفعه دفعاً على الاقبال عليه ، فيبدأ بحفظ الشعر المقال ، وبنظمه ، ويكون هذا النظم نظمـــاً تجريبياً غير متقن في بادىء أمره ، ويقال لهذه المرحلة (الغرزمة) . و (الغرزمة) أن يقول الشاعر الشعر قبل أن يستحكم طبعه وتقوى قريحته[4] . فإذا قوي به وتمكن منه صار من الشعراء المجيدين .

وقد كان الشاعر الجاهلي مثل الشاعر الاسلامي ، يبدأ لكي يكون شاعراً بحفظ شعر غيره ، ولا سيما شعر المشهورين من الشعراء المتقدمين عليـــه ، حتى يرويه رواية ، وقد يتصل بشاعر يعجبه من شعراء قبيلته أو من غيرهم ، فيلازمه ويأخذ عنه شعره ، حتى يصير راوية له ، ومتى شعر هذا الراوية الحافظ لشعر غيره ، ان عوده قد استوى ، وأن له قابلية في النظم ، أظهر شعره للناس ، وربما بعد

---

١ الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر (١٦ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (١٧ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (١/١١٦) .
٤ الخزانة (١/٢٢٠) .

أن يكون قد وجد التشجيع ممن اتصل بهم من الشعراء ومن المتذوقة للشعر ، العارفين به ، ولما كانت الشاعرية موهبة يصقلها المران ومرور الزمن ، فإن كثيراً من الشعراء نظموا الشعر وهم صغار ، ولا سيما أولئك الذين نشأوا في بيت برز به شاعر ، أو في بيوت عرفت بنبوغ جماعة من أفرادها بنظم الشعر،فهناك بيوت معرقة توارثت الشعر أباً عن جد . وقد سبق أن ذكرت قول (رؤبة) : « الفحولة هم الرواة »[1] ، أي ان فحول الشعراء هم الذين كانوا في بادىء أمرهم رواة شعر .

فحفظ الشعر وروايته هو مران كان لا بد منه لتهيئة شاعر فحل . وقد وجدت هذه النظرة عند الفرس كذلك ، قال صاحب (چهار مقالة) : « ولا يبلغ الشاعر هذه المنزلة إلا أن يحفظ في عنفوان الشباب وريق العمر عشرين ألف بيت من أشعار المتقدمين ويجعل نصب عينه عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين ويديم القراءة في دواوين الأئمة ويلتقط منها ليعلم كيف تصرفوا في مضايق القول ودقائق الكلام حتى يرتسم في طبعه صور الشعر وطرائقه ، ويتجلى له مزايا الشعر ونقائصه، فيرتقي قوله ويعلو طبعه . فإذا رسخ طبعه في نظم الشعر ، وانقاد له الكلام عمد الى علم الشعر وقرأ العروض ... وقرأ نقد المعاني والألفاظ والسرقات والتراجم وأنواع هذه العلوم على أستاذ يحذقها ليكون جديراً بالأستاذية »[2] . وهذا الرأي الفارسي الاسلامي ، يمثل ولا شك رأي قدماء الفرس كذلك .

ولم يكن الشاعر الجاهلي يعرف بالطبع هذه العلوم والقيود التي عرفت وشاعت في الإسلام ، بل لم يكن الشاعر العربي الإسلامي ليحفل بالعروض وبعلوم البيان والبديع ، لأن الشعر طبع وموهبة ، وإذا لم تكن الموهبة موجودة في إنسان، فلن يكون هذا الشخص شاعراً موهوباً مرموقاً مهما حفظ من الشعر ، وبلغ من علم العروض ومن علوم الصناعة الأخرى التي لها مساس بالشعر . فقد برز شعراء جاهليون قالوا شعراً وهم بعد أحداث ، واشتهروا به بين قومهم وهم بعد شباب. وطرفة الشاعر المشهور ، كان لا زال شاباً حين قتل ، ومع ذلك ، نجد ترتيبه بعد امرىء القيس في ترتيب المعلقات ، وفي ترتيبه هذا دلالة على تقدير قصيدته، واشتهار أمره بالشعر . وقد نظم (الخليل بن أحمد) شعراً ، وهو صاحب

---

١ البيان والتبيين (٢/٩ وما بعدها) .
٢ غرونباوم (٤٨) .

العروض ، ونظم غيره من فحول هذا العلم ، ومن فحول اللغة شعراً ، لم يعد من عيون الشعر العربي ، ونظم الفقهاء شعراً عرف بين نقاد الشعر ، وأهل البصر به بـ (شعر الفقهاء) ازدراء به . بل نجد الشعراء الإسلاميين يهزأون من قواعد العروض .

ألقاب الشعراء :

ويذكر أهل الأخبار ويؤكدون ان أهل الجاهلية لقبوا شعراءهم بألقاب ،مثل: المهلهل ، والمرقش ، وذا القروح ، والمثقب ، والمنخل ، والمتنخل ، والأفوه، والنابغة . قيل عن المهلهل ، انه انما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره ، أي رقته وخفته، وقيل لاختلافه ، وقيل : بل سمي بذلك لقوله :

لما توقل في الكراع شريدهم هلهلت أثأر جابراً أو صنبلا

وقيل لأنه كان أول من هلهل الشعر وأرقه وألان ألفاظه[1] .

وذكر ان (المرقش) الأكبر ، انما عرف بذلك ، بقوله :

الدار قفر والرسوم كسما رقش في ظهر الأديم قلم

أو لأنه كان قد عني بتنميق شعره ورقشه[2] .

وروي ان لقب (المثقب) العبدي ، انما جاءه من قوله :

رددن تحية وكمن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون[3]

وعرف المتلمس بهذا الاسم بقوله :

فهذا أوان العرض حيّا ذبابه زنابيره والأزرق المتلمس[4]

---

١ العمدة (٨٦) ، (ويروي لماتوغر) و « لما توعر في الكلاب هجينهم » ، و (توعر) ، المزهر (٢/٤٣٤) ، الاغاني (٥/٥٧) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٣٨) ، تابع العروس (٤/٣١٤) ، (رقش) ، البيان والتبيين (١/٣٧٥) ، المفضليات (١/٤١٠ . ٤٨٥) .
٣ الشعر والشعراء (١/٣١١) .
٤ الشعر والشعراء (١/١١٤) ، البيان والتبيين (١/٣٧٥) .

وعرف الممزق بهذا اللقب لقوله :

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولمـا أمزق[1]

وعرف (النابغة) بالنابغة بقوله :

وحلت في بني القين بن جسر وقد نبغت لنا منهم شؤون[2]

وذكر أن (منبه بن سعد) ، إنما عرف بـ (أعصر) ، بقوله :

أعمير إن أباك غيّر لونـه مرّ الليالي واختلاف الأعصر

وان معاوية بن تميم ، إنما عرف بـ (الشقر) بقوله :

قد أحمل الرمح الأصم كُعوبُه به من دماء القوم كالشقرات[3]

وأن (خالد بن عمرو بن مرة) ، إنما قيل له (الشريد) ، بقوله :

وأنا الشريد لمـن يعرفـني حامي الحقيقة ما له مثل

وأن (صريم بن معشر) التغلبي ، إنما عرف بـ (أفنون) بقوله :

منّيتنا الودّ يا مضنون مضنونا أزماننـا إن للشبان أفنـونا[4]

وأن معاوية بن مالك ، سُمي معود الحكام لقوله :

أعوّد مثلهـا الحكّام بعدي إذا ما الأمر في الأشياع نابا[5]

وذكر (الجاحظ) ، أن (عمرو بن رياح) السلمي أبو خنساء ابنة عمرو ، غلب عليه الشريد ، لقوله :

تـولي إخوتي وبقيت فرداً وحيداً في ديارهم شريـدا[6]

---

١ الشعر والشعراء (١/٣١٤) ، البيان والتبيين (١/٣٧٥) .
٢ الشعر والشعراء (١/٩٨) ، المزهر (٢/٤٣٢ ، ٤٣٦) .
٣ المزهر (٢/٤٣٤) .
٤ المزهر (٢/٤٣٥) .
٥ المزهر (٢/٤٣٦) .
٦ البيان والتبيين (١/٣٧٥) .

وعرف (خداش بن بشر) ، (خداش بن لبيد بن بيبة) ، (خداش بن بشر بن خالد بن بيبة) من بني مجاشع بالبعيث ، لقوله :

تبعث مني ما تبعثَ بعدما أمرت حبالي كل مرتها شزارا [1]

وذكروا ان (الفند) ، واسمه (شهل بن شيبان) ، انما سمي الفند ، لأنه قال يوم (قضة) : أما ترضون أن أكون لكم فِنـــداً . وأن طفيلاً الغنوى ، انما عرف بالمحبر ، لتحسينه الشعر [2] ، وأن علقمة بن عبدة ، انما لقب بالفحل، لأنه تزوج امرأة امرىء القيس ، بعد أن حكمت له بتفوقه على زوجها في الشعر أو لأنه كان في قومه علقمة آخر عرف بـ (علقمة) الخصي ، وان (الأعشى) انما عرف بصنّاجة العرب ، لكثرة ما تغنت العرب بشعره [3]،وأن عنترة انما لقب بالفلحاء لفلحة كانت به [4] .

وأما الأغربة من الشعراء ، فهم عنترة ، وخفاف بن ندبة السلمي ، وأبو عمير ابن الحباب السلمي ، وسليك بن السلكة ، وتأبط شراً ، والشنفرى ، وكلهم من الشعراء الجاهليين [5] .

الى آخر ما ذكروه من تعليلات عن أسباب تلقيب الشعراء الجاهليين بألقابهم التي عرفوا بها ، تجد بقيتها مدونة في كتب الأدب واللغة والأخبار [6] .

ولعلماء الشعر بعد ، آراء في أحسن وأجود ما قيل من شعر في فن واحد من فنون الشعر ، فقيل أرثى بيت قيل في الجاهلية ، قول أوس بن حجر :

أيتها النفس اجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

---

١ وقيل : سمى البعيث لقوله :
تبعث مني ما تبعث بعدما استمر فؤادي واستمر عزيمي
البيان والتبيين (١/٢٠٤ ، ٣٧٤) ، المؤتلف (٥٦) .
٢ المزهر (٢/٤٣٠) .
٣ المزهر (٢/٤٣١) .
٤ المزهر (٢/٤٣٢) .
٥ المزهر (٢/٤٣١) .
٦ المزهر (٢/٤٣٦ وما بعدها) .

وهذا على رأي الأصمعي[1] ، وقدم غيره قول عبدة :

فما كان قيسٌ هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدّمـا[2]

ومنهم من قدم شعر الخنساء[3] .

وقيل إن قول امرىء القيس في الماء ، هو أحسن ما قيل فيه[4] . وان وصف (أوس بن حجر) للسحاب ، هو أحسن ما قيل فيه[5] ، وان أهجى بيت قالته العرب ، قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[6]

وأن أمدح بيت قالته العرب قول زهير :

تراه إذا ما جئتـه متهلـلاً كأنك معطيه الذي أنت سائله

وبيت النابغة :

بأنك شمس والملوك كـواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[7]

ولكنك لو أطلت النظر في كتب الأدب ، تراها تختلف في هذا الاختيار وفي اسم الشاعر ، وسبب ذلك اختلاف أمزجة العلماء ، واختلاف وجهات نظرهم في نقد الشعر[8] .

وللعلماء كلام في أوصف الشعراء للدرع ، أو للفرس ، أو للنجوم والكواكب، أو للدنيا الى غير ذلك من أشياء[9]

---

١ ديوان أوس (١٣) ، المصون (١٦) .
٢ المصون (١٦) .
٣ المصون (١٧) .
٤ المصون (١٨) ، ديوان امرىء القيس (١١١) .
٥ المصون (١٩) .
٦ ديوان الاعشى (١٩) .
٧ « كأنك » ، (لانك) ، ديوان النابغة (١٣) ، المصون (٢١ وما بعدها) .
٨ راجع المصون (٢٢ وما بعدها) ، ترى العلماء يختلفون في أمدح بيت ورد في شعر الجاهليين .
٩ المصون (ص ٢٤ فما بعدها) .

وقد عرفت القصائد التي يكون الشاعر فيها منصفاً في شعره ، بالمنصفات ، والمنصفة هي القصيدة التي يكون الشاعر فيها قد أنصفَ من تحدث عنه ، فإذا كان في فخر واستعلاء على قوم ، فخر بقومه ، وذكر في الوقت نفسه فضائل خصوم قومه ، وشجاعتهم واستبسالهم في معاركهم مع قومه . ومن المنصفات قصيدة (العباس بن مرداس) السينية التي قالها في يوم (تثليث) ، حيث غزت (سُليم) مراداً ، فجمع لهم (عمرو بن معديكرب) ، فالتقوا بتثليث ، فصبر الفريقان ، ولم تظفر طائفة منهما بالأخرى ، فصنع العباس بن مرداس قصيدته المذكورة[1] .

وزعم علماء الشعر ، ان الشعراء الجاهليين كانوا في سرقة الشعر مثل الشعراء الاسلاميين ، فقد كان منهم من يسطو على شعر غيره ، فيدخله في شعره ، وينحله نفسه ، أو يضمن شعره من معانيه ، ولهم في ذلك بحوث . وذكروا ان من الشعراء الاسلاميين من سطا على شعر الشعراء الجاهليين ، أو أخذ منه[2] .

الشهرة بالشعر

يقول الرواة والعلماء بالشعر : من أراد الغريب فعليه بشعر هذيل ، ومن أراد النسيب والغزل من شعر العرب الصلب ، فعليه بأشعار عُذرة والأنصار ، ومن أراد طرف الشعر وما يحتاج الى مثله عند محاورة الناس وكلامهم فذلك في شعر الفرسان .

وأشعر الفرسان : دريد بن الصمة ، وعنترة ، وخفاف بن ندبة ، والزبرقان ابن بدر ، وعروة بن الورد ، ونهيكة بن إساف ، وقيس بن زهير ، وصخر ابن عمرو ، والسليك بن سلكة ، وأنس بن مدركة ، ومالك بن نويرة ، ويزيد ابن الصعق ، ويعدّ من الفرسان الأشراف ، ويزيد بن سنان بن أبي حارثة[3] .

---

١ العمدة (٢/٢١٧) .
٢ المصون (٦٦ وما بعدها) .
٣ المصون (١٧٣ وما بعدها) .

التكسب بالشعر

يذكر أهل الأخبار أن العرب كانت لا تتكسب بالشعر ، أنفة وتعززاً ، وإنما يصنع أحدهم ما يصنع مكافأة عن يد لا تستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها . بقوا على ذلك دهراً ، حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وقد كان أشرف بني ذبيـــان ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته ، وله مال يكفيه ، فسقطت منزلته ، وكسب مالاً جزيلاً حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيهما من عطايا الملوك . وذكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر ما فيه قبح من مجاعلة الحاجب ومجاملتـــه والتودد اليه تقرباً وتزلفاً ليوصله الى النعمان ، ومن دس الندماء على ذكره بين يديه ، وما أشبه ذلك[1] . هذا ، وإنما امتدح ملكاً، فكيف بشاعر يمدح من هم دون الملوك والأشراف من السوقـــة وسواد الناس ، طمعاً في صلة وعطاء[2] !

وتكسب زهير بن أبي سُلمى يسيراً مع (هرم بن سنان) ، ونال (أميـة ابن أبـي الصلت) عطايا (عبدالله بن جدعان) لمدحه اياه ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلاد ، وقصد حتى ملك العجم فأثابه ، لعلمـه بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه ، على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له ، بل استخف به واستهجنه لكنه حذا حذو ملوك العرب[3] .

ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمة فيه ، حتى مقت وذل أهله ، واستصغر شأنه ، وعرف بتكسبه بشعره[4] .

وقد عيب « من تكسب بشعره والتمس به صلات الأشراف والقادة ، وجوائز الملوك والسادة ، في قصائد السماطين »[5] . وانما المقبول ما جاء بما لا يزري بقدر ولا مروءة ، مثل الفلتة النادرة ، والمهمة العظيمـة ، وعن باب التودد والتلطف

---

١ بلوغ الارب (٣/٩٠ وما بعدها) ، العمدة (١/٨٠) .
٢ العمدة (١/٤٠ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/٩١) ، العمدة (١/٨١) .
٤ العمدة (١/٨١) .
٥ البيان والتبيين (٢/١٣ وما بعدها) .

والتذكر ، فأما من وجود الكفاف والبلغة فلا وجه لسؤاله بالشعر[1] .

ومن هنا زعم أهل الأخبار ان أشراف أهل الجاهلية ، كانوا يأنفون من قول الشعر ، وكانوا ينهون أولادهم من قوله ، فلما خالف (امرؤ القيس) ، وهو شريف وابن ملك ، أمر والده من وجوب ترك الشعر ، واستمر على قوله ، طرده بسببه من بيته ، وأخرجه من داره ، فصار من الضلّيلين ، وهو زعم عارضه (ابن رشيق) وردّ عليه بقوله : « وقد غفل أكثر الناس عن السبب ، وذلك انه كان خليعاً ، متهتكاً ، شبب بنساء أبيه ، وبدأ بهذا الشر العظيم ، واشتغل بالخمر والزنا عن الملك والرياسة ، فكان اليه من أبيه ما كان ، ليس من جهة الشعر ، لكن من جهة الغي والبطالة ، فهذه العلة ، وقد جازت كثيراً من الناس ومرت عليهم صفحاً »[2] . فلم يكن طرد امرىء القيس من بيت أبيه اذن بسبب قوله الشعر ، وإصراره عليه ، وانما بسبب أعماله من خلاعة وتهتك واستهتار ، وهي أعمال تنافي أخلاق الأشراف .

وقد قيل في الشعر إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل ، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل . وإنه أسنى مروءة الدني ، وأدنى مروءة السري . وقيل ان الشريف كان يتحاشى قول الشعر ، ويمنع أولاده من قوله . لأن قول الشعر مثلبة للرجل الشريف . وقد فسر هذا الزعم بعض العلماء بقوله : « إن الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل إذا مدح به ، مثل ما يضع من قدر الشريف إذا اتخذه مكسباً ، كالذي يؤثر من سقوط النابغة الذبياني بامتداحه النعمان بن المنذر ، وتكسبه عنده بالشعر ، وقد كان أشرف بني ذبيان ، هذا ، وانما امتدح قاهر العرب ، وصاحب البؤس والنعيم »[3] . مدحه ولم يكن في حاجة اليه ، وكان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك . وبين الشعراء الجاهليين من كان من السادة الأشراف ، ولم يجد مع ذلك غضاضة في قوله الشعر ،

---

١ بلوغ الارب (٣/٩١ وما بعدها) .

٢ العمدة (١/٤٣) .

٣ في قول « ابن رشيق » « وصاحب البؤس والنعيم » هفوة ، لان صاحب البؤس والنعيم ، هو « المنذر بن ماء السماء » ، وصاحب النابغة هو « النعمان بن المنذر » ، العمدة (١/٤١) ، البيان والتبيين (١/٢٤١) .

ومن غض من قدره ، هو من استجدى بشعره ، واتخذ شعره سبباً من أسباب التكسب .

وما يقوله أهل الأخبار عن التكسب بالشعر يمثل وجهة نظرهم حسب ، وهو رأي لا أساس له ، بسبب أن علمهم بالشعر لا يستند الى دليل جاهلي مكتوب، وإنما هو من رواية ولدت في الإسلام لاكتها الألسن ، وتناولتها الكتب ، حتى صارت في حكم الإجماع ، يردده الخلف عن السلف الى هذا اليوم . والشعراء في نظرنا قبل النابغة وبعده بشر ، فيهم المترفع وفيهم المستجدي الذليل ، الذي لا يبالي أن تمتهن كرامته في سبيل الحصول على مال . وإذا كان في هذا اليوم شعراء يمدحون ويذمون لغاية الكسب والحصول على مغنم ، فلم نجعل شعراء ما قبل أيام النابغة الذبياني ملائكة ، لا يمدحون إلا الشريف المستحق للمدح ، ولا يذمون إلا الحقير الذي يستحق الذم ، وما شعراء تلك الأيام ، إلا كشعراء أيام النابغة ، وما بعده ، فيهم الشاعر المترفع ، وفيهم الشاعر المترذل ، وفيهم من لا يبالي بشعره ، يمدح اليوم هذا ، ثم لا يبالي من ذمه بعد حين . وفي حقهم جميعاً جاء في القرآن : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون »[1] ، ونحن نظلم (النابغة) ان جعلناه أول المتكسبين بالشعر ، ونخرج عن المنطق ان ذهبنا هذا المذهب .

وذكر ان ممن رفعه الشعر من القدماء : (الحارث بن حلزة) اليشكري ، وكان أبرص ، فلما أنشد الملك (عمرو بن هند) قصيدته :

آذنتنا ببينها أسماء رُبَّ ثاوٍ يملّ منه الثواء

وبينه وبينه سبعة حجب ، فما زال يرفعها حجاباً فحجاباً لحسن ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينها حجاب ، ثم أدناه وقربه . وأمثاله ممن رفع من قدرهم الشعر كثير[2] .

ورووا ان المحلق كان ممن رفعه الشعر بعد الخمول،وذلك ان الأعشى قدم مكة

---

١ سورة الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .

٢ العمدة (١/٤٣ وما بعدها) .

وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ، وقيل بل أم ، وكان المحلق فقيراً خامل الذكر ، ذا بنات ، فأشارت عليه ، أن يكون أسبق الناس اليه في دعوته الى الضيافة ، ليمدحهم ، ففعل ، فلما أكل الأعشى وشرب ، وأخذت منه الكأس ، عرف منه انه فقير الحال ، وانه ذا عيال ، فلما ذهب الأعشى الى عكاظ أنشد قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشق

ثم مدح المحلق ، فما أتم القصيدة إلا والنـاس ينسلون الى المحلق يهنئونه ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه جرياً يخطبون بناته ، لمكان شعر الأعشى[1].

هذا ما يرويه أهل الأخبار عن أثر الشعر في الناس . وروي أن الأعشى أنشد قصيدته المذكورة (كسرى) ، فقال : « إن كان سهر من غير سقمٍ ولا عشق فهو لص »[2] .

« قال أبو عمرو بن العلاء : كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يُقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة ، وتسرعوا الى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » « ولقد وضع قولُ الشعر من قدر النابغة الذبياني ، ولو كان في الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة البيان »[3] .

ويذكر الرواة أن القبيلة كانت إذا نبغ فيهـا شاعر احتفلت به ، وفرحت بنبوغه ، وأتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر ، وتباشروا به لأنه حماية لهم ، ولسانهم الذاب عنهم المدافع عن أعراضهم وأحسابهم وشرفهم بين الناس . وكانوا لا يهنأون إلا بغلام يولد أو فرس تُنتج

---

١ العمدة (١/٤٩) .

٢ الشعر والشعراء (١/١٨٠) .

٣ البيان والتبيين (١/٢٤١) ، العمدة (١/٨٢ وما بعدها) .

أو شاعر ينبغ فيهم[1] . فالشاعر هو صحيفة القبيلة و (محطة إذاعتها) ، وصوته يحط ويرفع ويخلد لا سيما إذا كان مؤثراً ، فيرويه الناس جيلاً بعد جيل .

وكان أثره في الناس أثر السيف في الحروب ، بل استخدمه المحاربون أول سلاح في المعارك . فيبدأ الفارس بالرجز ، ثم يعمد الى السيف أو الرمح أو آلات القتال الأخرى . ولأثره هذا ، ورد في الحديث عن الرسول قوله : « والذي نفسي بيده ، لكأنما تنضحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر »[2] مخاطباً بذلك شعراء المسلمين ، الذين حاربوا الوثنيين بهذا السلاح الفتاك ، سلاح الشعر . وقد كان الوثنيون قد أشهروه أيضاً وحاربوا به المسلمين .

وطالما قام الشعراء بدور السفارة والوساطة في النزاع الذي كان يقع بين الملوك وبين القبائل ، أو بين القبائل والقبائل ، فلما أسر (الحارث بن أبي شمر) الغساني (شأس بن عبدة) في تسعين رجلاً من (بني تميم) ، وبلغ ذلك أخاه (علقمة بن عبدة) ، قصد (الحارث) ، فمدحه بقصيدته :

طحا بك قلبٌ بالحسان طروب بُعيد الشباب عصر حان مشيب

فلما بلغ طلبه بالعفو عن أخيه وعن بقية المأسورين ، قال الحارث : نعم وأذنبة ، وأطلق له شأساً أخاه ، وجماعة أسرى بني تميم ، ومن سأل فيه أو عرفه من غيرهم[3] .

ولم يقلّ أثر الشاعر في السلم وفي الحرب عن أثر الفارس ، الشاعر يدافع عن قومه بلسانه ، يهاجم خصومهم ويهجو سادتهم ، ويحث المحاربين على الاستماتة في القتال ، ويبعث فيهم الشهامة والنخوة للإقدام على الموت حتى النصر ، والفارس يدافع عن قومه بسيفه ، وكلاهما ذاب عنهم محارب في النتيجة . بل قد يقدم الشاعر على الفارس ، لما يتركه الشعر من أثر دائم في نفوس العرب، يبقى محفوظاً في الذاكرة وفي اللسان ، يرويه الخلف عن السلف ، بينما يذهب أثر السيف ،

---

١ بلوغ الارب (٨٤/٣) ، العمدة ، (٤٩/١ ، ٦٥) ، المزهر (٢٣٦/٣) ، العقد الفريد (٩٣/٣) .

٢ الاغاني (٢٦/١٥) .

٣ العمدة (٥٧/١) ، (أسرة الحارث بن أبي شمر الغساني مع سبعين رجلا من بني تميم) ، الشعر والشعراء (١٤٧/١ وما بعدها) .

بذهاب فعله في المعركة ، فلا يترك ما يتركه شعر المديح أو الهجاء من أثر في النفوس ، يهيجها حين يذكر ، وكان من أثره ان القبائل كانت اذا تحاربت جاءت بشعرائها ، لتستعين بهم في القتال . فلما كان يوم (أحد) ، قال (صفوان ابن أمية) لأبي عزة عمرو بن عبد الله الجمحي : « يا أبا عزة انك امرؤ شاعر فأعنّا بلسانك ، فاخرج معنا . فقال : إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه . قال : فاعنا بنفسك فلك الله علي إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو بني كنانة » شعراً الى السير مع قريش لمحاربة المسلمين[1] .

وكان للرسول شاعره (حسان بن ثابت) يدافع عن الإسلام والمسلمين ، وكان للمشركين من أهل مكة شاعرهم (عبدالله بن الزبعرى) يرد عليه ويهاجم المسلمين في السلم وفي المعارك ، وقد دوّنت كتب السير والأخبار والتواريخ أشعارهم وما قاله أحدهم في الآخر ، وقد فات منه شيء كثير ، نص رواة الشعر على أنهم تركوه لما كان فيه من سوء أدب وخروج على المروءة. وكان الى جانب الشاعرين شعراء آخرون ، منهم من ناصر المسلمين لأنه كان منهم ، ومنهم من ناصر المشركين لأنه كان منهم . بل كان المحاربون إذا حاربوا ، فلا بد وأن يبدأوا حربهم بتنشيطها وبتصعيد نارها برجز أو بقريض .

ومن خوفهم من لسان الشاعر ، ما روي من فزع (أبو سفيان) ، لما سمع من عزم (الأعشى) على الذهاب الى يثرب ومن اعداده شعراً في مدح الرسول ، ومن رغبته في الدخول في الإسلام . فجمع قومه عندئذ ، وتكلم فيما سيتركه شعر هذا الشاعر من أثر في الاسلام وفي قريش خاصة إن هو أسلم ، ولهذا نصحهم أن يتعاونوا معه في شراء لسانه وفي منعه من الدخول في الإسلام بإعطائه مائة ناقة فوافقوا على رأيه وجمعوا له ما طلبه ، وتمكن أبو سفيان من التأثير عليه ، فعاد الى بلده (منفوحة) ومات بها دون أن يسلم[2] .

قال (الجاحظ) : « ويبلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السبّ عليهم ، وتخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب ، ويسبّ به الأحياء والأموات ، انهم

---

١ الروض الانف (٢/١٢٦ وما بعدها) ، (غزوة أحد) .
٢ الشعر والشعراء (١٣٦ وما بعدها) ، زيدان ، آداب (١/١١٩) .

اذا أسَروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق ، وربما شدوا لسانه بنسعة ، كما صنعوا بعبد يغوث بن وقّاص الحارثي حين أسرته بنو تيم يوم الكلاب[1] . و (عبد يغوث ابن وقاص) شاعر قحطاني ، كان شاعراً من شعراء الجاهلية ، فارساً سيد قومه من (بني الحارث بن كعب) ، وهو الذي قادهم يوم الكـــلاب الثاني فأسرته بنو تيم وقتلته . وهو من أهل بيت شعر معروف في الجاهلية والاسلام ، منهـــم (اللجلاج) الحارثي ، وهو طفيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه (مسهر) فارس شاعر ، ومنهم من أدرك الاسلام : (جعفر بن علية بن ربيعة بن الحارث ابن عبد يغوث) ، وكان شاعراً صعلوكاً[2] .

ولما مدح (الحطيئة) (بغيض بن عامر بن لاي بن شماس بن لاي بن أنف الناقة) ، واسمه (جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم) ، وهجا (الزبرقان) ، واسمه (الحصين بن بـدر بن امرىء القيس بن خلف بن عوف بن كعب) ، صاروا يفخرون ويتباهون بأن يقـال لهم (أنف الناقة) ، وكانوا يعيرون به ويغضبون منه ، ويفرقون من هذا الاسم ، حتى ان الرجل منهم كان يسأل ممن هو فيقول من (بني قريـــع) فيتجاوز جعفراً أنف الناقة ، ويلغي ذكره فراراً من هذا اللقب ، الى أن قال (الحطيئة) هذا الشعر فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهارة ، إذ قال :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يُسوّي بأنف الناقة الذنبا[3]

وقد تعزز الأعشى على قومه ، وبين مكان فضله عليهم ، إذْ كـان لسانهم الذاب عنهم المدافع عن أعراضهم ، الهاجي لأعدائهم بشعر هو كالمقراض يقرض أعداء قومه قرضاً .

وادفع عن أعراضكم وأعـــيركم لساناً كمقراض الخفاجي ملحبا[4]

---

١ البيان والتبيين (٤/٤٥) .
٢ الخزانة (١/٣١٧) ، (بولاق) .
٣ قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا
البيان والتبيين (٤/٣٨) ، (هارون) ، الاشتقاق (١٥٦) ، زهر الاداب (١/١٩)، الخزانة (١/٥٦٧) ، العمدة (١/٥٠) .
٤ ديوان الاعشى (١١٧) ، القصيدة ١٤ ، البيت ٣١ .

وذكر أن (بني تغلب) كانوا يعظمون معلقة (عمرو بن كلثوم) ويروونها صغاراً وكباراً ، حتى هجاهم شاعر من شعراء خصومهم ومنافسيهم : بكر بن وائل ، إذ قال :

ألهى بني تغلب عن كلّ مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مُذْ كان أولهم يا للرجال لشعرٍ غير مسئوم[1]

ولسلاطة ألسنة بعض الشعراء ، ولعدم تورع بعضهم من شتم الناس ومن هتك الأعراض ، ومن التكلم عنهم بالباطل ، تجنب الناس قدر امكانهم الإحتكاك بهم ، وملاحاتهم والتحرش في أمورهم ، خوفاً من كلمة فاحشة قد تصدر منهم ، تجرح الشخص الشريف فتدميه ، و « جُرْح اللسان كجرح اليد » ، كما عبر عن ذلك (امرؤ القيس) أحسن تعبير[2] . ولأمر ما قال طرفة :

رأيت القوافي تتلجن موالجاً تَضَايَقُ عنها أن تَوَلجها الإبر

وفي هذا المعنى دوّن (الجاحظ) هذه الأبيات :

وللشعراء ألسنةٌ حدادٌ على العورات موفية دليله
ومن عقل الكريم اذا اتقاهم وداراهم مداراةٌ جميله
اذا وضعوا مكاويهم عليه ـ وإن كذبوا ـ فليس لهنّ حيله[3]

و « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عالماً بالشعر ، قليل التعرض لأهله : استعداه رهط تميم بن أبي مقبل على النجاشي لما هجاهم ، فأسلم النظر في أمرهم الى حسان بن ثابت ، فراراً من التعرض لأحدهما ، فلما حكم حسان أنفذ عمر حكمه على النجاشي كالمقلد من جهة الصناعة ، ولم يكن حسان ـ على علمه بالشعر ـ أبصر من عمر رضي الله عنه بوجه الحكم ، وان اعتل فيه بما اعتل »[4].

---

١ الاغاني (١١/٥٤) ، الاشتقاق (٢٠٤) ، وقد روى هذا الشعر بأوجه مختلفة ، البيان والتبيين (٤/٤١) .
٢ العمدة (١/٧٨) .
٣ العمدة (١/٧٨) .
٤ العمدة (١/٥٢ ، ٧٦) ، (باب تعرض الشعراء) .

« وكذلك صنع في هجاء الحطيئة الزبرقان بن بدر : سأل حسان ، ثم قضى على الحطيئة بالسجن »[1] ، وقد كان عمر قد كره أن يتعرض للشعراء ، فاستشهد حساناً ، فلما بيّن حسان رأيه في الشعر ، انفذ حكمه ، فتخلص (عمر) بعرضه سليماً[2] .

و (تميم بن مقبل بن عوف بن حنيف) العجلاني ، من الشعراء الذين أدركوا الاسلام فأسلم ، وكان يهاجي (النجاشي) ، فهجاه (النجاشي) يوماً ، فاستعدى (تميم) (عمر) عليه . فلما قرأ (النجاشي) على (عمر) ما قاله في (تميم) أمر بضربه وحبسه . وكان يبكي أهل الجاهلية[3] .

« وسئل أبو عبيدة : أي الرجلين أشعر : أبو نُواس ، أم ابن أبي عيينة؟ فقال : أنا لا أحكم بين الشعراء الأحياء ، فقيل له : سبحان الله كأن هذا ما تبين لك ! فقال : أنا ممن لم يتبين له هذا ؟! »[4] وذلك خوفاً ولا شك من لسان الشاعر الحي . « ولسير الشعر على الأفواه هذا المسير تجنب الأشرافُ ممازحة الشاعر خوف لفظة تسمع منه مزحاً فتعود جداً »[5]

وكانوا يهابون الشاعر الهجّاء البذيء اللسان المتمكن من شعر الهجاء ، أكثر من غيره من بقية الشعراء ، لما كان يتركه هجاؤه من أثر فيهم ، حتى الشعراء البارزون كانوا يتقون شر الشاعر الهجاء ويبتعدون عنهم . فلما هجا (عبدالله بن الزبعرى) ، بني قصيّ ، خاف قومه من هجاء (الزبير بن عبد المطلب) ، فرفعوه برمته الى (عتبة بن ربيعة) ، فلما وصل اليهم أطلقه (حمزة بن عبد المطلب) وكساه ، وكان (الزبير) غائباً بالطائف ، فلما وصل مكة وبلغه الخبر هجا قوم (ابن الزبعرى) هجاء مرّاً[6] ، يقوله :

فلولا نحن لم يلبس رجال ثيابَ أعزة حتى يموتوا

---

١ العمدة (١/٧٦) ، ابن سلام ، طبقات (٢٥) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٤٠) .
٣ الاصابة (١/١٨٩) ، (رقم ٨٦٢) ، البيان (١/٢٣٩) ، الخزانة (١/١١٣) .
٤ العمدة (١/٧٦) .
٥ العمدة (١/٧٧) .
٦ العمدة (١/٦٥ وما بعدها) .

ثيابهم سمالٌ أو طمارٌ بها دسم كما دسم الحميت
ولكنّا خلقنا إذ خلقنا لنا الخبرات والمسك الفتيت

وكان عبدالله بن الزبعرى قد قال حين أطلقه حمزة :

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فودّ جناة الشرّ أن سيوفنا بأيماننا مسلولة لا نشيمها
فإن قصيّاً أهل عزّ ونجدة وأهل فعالٍ لا يرام قديمها
هُمُ منعوا يومي عُكاظ نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها[1]

ونظراً لأثر شعر الهجاء في الناس ، من أفراد وقبائل ، صاروا يصطنعون الشعراء ويحسنون جهدهم اليهم خشية ألسنتهم ، يفعلون ذلك بشعرائهم وبشعراء القبائل الأخرى ممن يخشون سلاطة ألسنتهم . يفعلون ذلك حتى اذا كان الشاعر قد أساء اليهم ، على أمل التكفير عن ذنبه ، بمدحهم بشعر ينفي أثر ما قاله فيهم من هجاء . حتى انهم كانوا يعفون عن شاعر قد يقع أسيراً في أيديهم ، اذا أعطاهم العهود والمواثيق ألا يعود الى هجوهم ، وألا يقول شعراً في ذمهم . وقد يغدقون عليه بالهدايا والألطاف تأليفاً للسانه ، وأملاً في مدحه لهم ، والقاعدة عندهم ان أثر الهجاء يمحوه المدح .

وبين الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي فروق واضحة في الأسلوب وفي الاتجاه وفي الجزالة واختيار الكلمات ، اقتضتها طبيعة اختلاف الزمان وتغير الحال واتصال العرب بغيرهم ، وخلود أكثرهم الى الحضارة ، الى غير ذلك من أسباب .

ومما امتاز فيه الشعر الجاهلي عن الشعر الاسلامي ، هو أن شعراءه كانوا من العرب ، إلا بضعة شعراء ، كانوا من أصل خليط ، مثل الأغربة ، الذين كانت أمهاتهم من أصل افريقي . ولا أعلم اسم شاعر جاهلي ، يرجع أصله الى فارس أو الروم ، إلا ما ذكره (ابن الكلبي) من أمر (خرخسرة) . أما في الاسلام فقد زاحم الفرس بصورة خاصة العرب على تراثهم التليد ، وهو الشعر ، برّز منهم فيه فحول ، طوروا الشعر ولوّنوه ، وأضافوا اليه معاني جديدة ، اقتضتها

---

١ بلوغ الارب (٣/٨٤ وما بعدها) .

طبيعة الامتزاج بين العقليتين والتطور الاجتماعي الجديد الذي ظهر في المجتمع الجديد، مجتمع العرب والموالي .

ولعلماء الشعر آراء في الشعر الجاهلي وفي شعراء الجاهليـــة ، وفي شعرهم وفي الاستشهاد بالشعر الجاهلي . ولهم آراء في ذلك دوّنوها في كتبهم . من ذلك أن للعرب كانت لا تروي شعر شاعر ، أو لا تعجب به إذا كانت ألفاظـه ليست نجدية . ذكروا أن « العرب لا تروي شعر أبـي دواد وعدي بن زيـد . وذلك لأن ألفاظهما ليست بنجدية »[1] . وذكروا عن شعر (عدي بن زيد العبادي)، أن « العرب لا تروي شعره ، لأن ألفاظه ليست بنجدية . وكان نصرانياً من عباد الحيرة قد قرأ الكتب »[2] . وقالوا عنه أيضاً « وكان يسكن بالحيرة ، ويدخـل الأرياف ، فثقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جداً ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة »[3] .

وجزالة الألفاظ وشدة وقعها على الأسماع وغرابتها ، هي من أهم المعايير التي اتخذها علماء الشعر في تقدير قيم الشعر الجاهلي، والقصيدة الجيدة الحسنة هي القصيدة الجزلة الفخمة الألفاظ التي لا تتسم بالسهولة والليونة ، والتي لا تفهم إلا بالرجوع الى الشروح والتعليقات والايماءات والإشارات . ومن هنا فوّقـوا شعر الأعراب على شعر الحضر ، لوجود لين في شعر أهل المدر ، ولسهولته ، ومن هنا قالوا: إن في شعر قريش ليناً وسهولة ، وفي شعر أهل الحيرة وأهل القرى مثل ذلك .

وقد تعرض (ابن رشيق) لموضوع الشعر الجاهلي القـديم والشعر الإسلامي المحدث ، فقال : « إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رَجُلين ابتدأا هـذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزيّنه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن »[4] .

الخمر والشعر :

وقد كان الشعراء يقبلون على شرب الخمر ، إقبال أكثر الجاهليين على شربها

---

١ الشعر والشعراء (١٢١) .
٢ الشعر والشعراء (١١٥) ، الاغاني (٩٣/١٥) .
٣ الشعر والشعراء (١١١) .
٤ العمدة (٥٧/١) .

لتنسيهم همومهم وفقرهم ، حتى أن منهم من كان يبيع ما عنده ليشتري الخمر . وقد كان الشعراء يشربون ليستوحوا الوحي من الشرب ، حتى ان الأعشى لما قدم ليسلم ، فقيل له ان الاسلام يحرم الخمر ، توقف ، ولم يسلم ، إذ شق عليه هذا التحريم ، ولم يتمكن بعضهم من تركها ، فحدّوا على شربها . وقد هرب (ربيعة بن أمية بن خلف) الجحمي ، من بلاد الاسلام ولحق بالروم ، لأن عمر جلده الحدّ في الخمر ، وكان من آنف العرب وأسخاهم ، فحلف أن لا يقيم بأرض حد فيها ولا يدين من حده ، فحمله الأنف الى أن أتى الروم فمات بها نصرانياً[1] . ويروى انه قال :

لحقت بأرض الروم غير مفكر بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركوني من صبوح مدامة فما حرم الله السلاف من الخمر
اذا أمرت تيم بن مرة فيكم فلا خير في أرض الحجاز ولا مصر
فإن يك اسلامي هو الحق والهدى فإني قد خلّيته لأبي بكر

ويذكر (المعري) انه قد جرى له مع (أبي بكر) خطب ، فلحق بالروم[2].

شيطان الشاعر :

ولا بد لي هنا من أن أشير الى ما كان يعتقده الجاهليون من أن الشعراء كانوا يستلهمون وحيهم بالشعر من (شيطان) ، كنّوا عنه بـ (شيطان الشاعر) . فقالوا : « لكل شاعر شيطان » . وهم يعبرون بذلك عن الحس الذي يصيب كل انسان حساس شاعر عندما يهز مشاعره وإحساسه شيء ما يؤثر عليه فيستولي على عقله وشعوره ويستهويه ، ولا يتركه يستقر ويهجع حتى يعبر عن شعوره هذا الذي سيطر عليه وملكه ، بشعر يأتيه وكأنه وحي ينزل عليه تنزيلاً ، وعندئذ فقط يستقر ويهجع ، بعد أن يكون قد نسب هذا الشعور المرهف الذي ألمّ به الى وحي (شياطين الشعر) .

---

١ الاشتقاق (٨٠ وما بعدها) ، الاغاني (١١٢/١٣) .
٢ رسالة الغفران (٤٤٠ وما بعدها) .

وكان الكهناء ، يقولون في الجاهلية : إن الشياطين كانت تأتيهم[1] ، فهم مثل الشعراء يعتقدون بأن وحياً يوحى اليهم بما يقولونه للناس ، يتجلى لهم على صورة (رئي) ، الرئي يقول سجعاً ، والشيطان ينظم شعراً .

وقد بلغ من اعتقاد بعضهم بوجود (شياطين الشاعر) أن رووا قصصاً تذكر كيف أن (شياطين الشعر) كانوا يعلمون الشعراء قول الشعر حين ينحبس الشعر عنهم وحين تقف قريحتهم حتى ليصعب على الشاعر أن ينظم بيتاً واحداً ، حتى إذا حار في أمره ، استجار بشيطانه وتوسل اليه لإنقاذه من محنته ، فيرق شيطانه عليه ، ويلقي عليه الشعر إلقاء فيأتي على لسان الشاعر وكأنه سيل متدفق . ولاعتقاد الشعراء هذا بوجود قرين لهم من الشياطين،أو من الجن ، سموا شياطينهم بأسماء ، فكان اسم شيطان الأعشى (مسحلاً) ، وقيل هو تابعه وجنّيه الذي كان يوحي اليه بالشعر . كما أشار هو اليه في شعره :

دعوت خليلي مسحلاً ، ودعوا له جهنام ، جدعاً للهجين المذمّم[2]

وللأعشى أشعار أخرى ذكر فيها فضل شيطانه عليه في قول الشعر . من ذلك قوله :

وما كنت ذا قولٍ ولكن حسبتني إذا مسحل يبري لي القول أنطق
خليلان فيما بيننا من مودةٍ شريكان جنّيٌ وإنس موفق[3]

وجنّيه هو الذي حباه بموهبة الشعر ، وبفيض الخواطر ، ينظمه كلاماً محبوكاً، فهو يشكره ويفديه بنفسه :

حباني أخي الجنّيّ نفسي فداؤه بأفيح جيّاش العشيّات مرجم[4]

واسم هاجس الأعشى وشيطانه (مسحل بن أوثالة) ، وكان هو الذي يلقي الشعر على لسان الأعشى . وقد رآه (الأعشى) ودخل خباءه وهو من شَعَر ،

---

١ مجالس ثعلب (٢٠) .
٢ اللسان (١١/٣٣١) ، ثمار القلوب (٧٠) ، (جهنام جدعا) الحيوان (٦/٢٢٦) .
٣ ثمار القلوب (٧٠) .
٤ ثمار القلوب (٧٠) ، الحيوان (٦/٢٢٦) .

وكان الأعشى في أول أرض اليمن يريد الذهاب الى (قيس بن معدي كرب) بحضرموت . فضل طريقه ، فأبصر هذا الخباء ، فذهب اليه ، وسأله الشيخ أن ينشده شعراً ، فكان اذا تلا عليه مطلع القصيدة أوقفه ، واستدعى جارية من جواريه لتتلو عليه بقية القصيدة ، حتى سقط في يدي الأعشى وتحير ، واغتشته رعدة ، فلما رأى الشيخ ما حل به ، قال : « ليفرج روعك أبا بصير ، انا هاجسك مسحل بن أوثاثة الذي ألقى على لسانك الشعر » . ثم ودعه وأرشده الطريق[1] .

وكان للأعشى شيطان ، اسمه (جهنّام) ، وهو تابعة ، أي شيطانة أنثى . وكان لقب (عمرو بن قطن) من (بني سعد بن قيس بن ثعلبة) ، وكان يهاجي الأعشى ، وقال فيه الأعشى :

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنام جدعاً للهجين المذلل[2]

وقيل إن (جهنام) كان شيطان الأعشى الأول ، ثم اتخذ الأعشى مسحلاً بعده[3] .

وزعم ان (امرىء القيس) كانت له قصائد ومطارحات مع (عمرو الجني). وان اسم شيطان (امرىء القيس) هو (لافظ بن لاحظ) . وان اسم شيطان (عبيد بن الأبرص) هو (هبيد) ، وهو اسم شيطان (بشير بن أبي خازم ؟) (بشر بن أبي خازم) كذلك . وان اسم شيطان (النابغة) الذبياني ، هو (هاذر بن ماهر) . وان اسم شيطان (المخبل) السعدي ، هو (عمرو)[4] .

وقد بقي هذا الاعتقاد في شياطين الشعراء الى الإسلام ، فكان الشيطان الذي يلقي الشعر الى (جرير) ، هو (ابليس الأباليس) ، وكان اسم شيطان الفرزدق (عمرو) ، واسم شيطان بشار بن برد (شنقناق) . وكان جني (حسان) وصاحبه الذي يوحي اليه الشعر من (بني شيصبان) ، « وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر ، وتلقّنها إياه ، وتعينها عليه ، وتدعي أن

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩٦٨ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٨/٢٣٥) ، (جهنام) .
٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥٠) .
٤ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥١) ، الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر (٨) .

لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه ، فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود »[1] ، وورد أن (الفرزدق) كان يرى أن للشعر شيطانين ، يدعى أحدهما (الهوبر) والآخر (الهوجل) ، فمن انفرد به (الهوبر) جاد شعره وصح كلامه ، ومن انفرد به (الهوجل) فسد شعره[2] .

وقد زعم (أبو النجم) أن شيطانه الذي يوحي اليه الشعر شيطان ذكر ، أما شياطين بقية الشعراء فأناث :

إني وكلّ شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
فما يراني شاعر إلا استتر فعلَ نجوم الليل عينٌ القمر[3]

وقال آخر :

إنّي وإن كنتُ صغير السنّ وكان في العين نبوّ عني
فإن شيطاني أميرُ الجنّ يذهبُ بي في الشعر كلّ فنّ[4]

وروي ان السعلاة لقيت (حسان بن ثابت) في بعض طرقات المدينة ، وهو غلام قبل أن يقول الشعر ، فبركت على صدره ، وقالت أنت الذي يرجو قومك أن تكون شاعرهم ؟ قال : نعم . قالت : فأنشدني ثلاثة أبيات على روي واحد وإلا قتلتك ، فقال :

اذا ما ترعرع فينا الغلام فما أن يقال له من هوه
اذا لم يسد قبل شد الازار فذلك فينا الذي لاهوه
ولي صاحب من بني الشيصبان فحيناً أقول وحيناً هوه[5]

فخلت سبيله . فهذه الأبيات هي على زعم أهل الأخبار أول شعر حسان . قالها بوحي من شيطانه : (الشيصبان) .

---

١ ثمار القلوب (٦٩ وما بعدها) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥١) .
٣ الحيوان (٦/٢٢٩) ، ثمار القلوب (٧١) ، ديوان المعاني (١/١١٣) ، الراغب ، محاضرات (١/٢٨٠) .
٤ ثمار القلوب (٧٢) . الخصائص (١/٢٢٥) .
٥ الخزانة (١/٤١٨ وما بعدها) ، (بولاق) .

وليس هذا الشيطان الذي تصوره الجاهليون ، يلهم الشعراء وحيهم ويلقي اليهم الشعر إلقاء بقذفه في قلوبهم ، ليخرج على ألسنتهم ، هو من وحي الجاهليين ومن تخيلاتهم وتخرصاتهم وحدهم ، بل هو شيء معروف عند غيرهم أيضاً . فقد تصور اليونان أن للشعر آلهة تقذف الشعر في نفوس الشعراء ، فينطلق على ألسنتهم[1]. والرئي الذي يوحي الى (الكاهن) علمه بالكهانة ، هو ضرب من هذه الشياطين التي تخيلوها للشعراء ، فبفضل (الرئي) يقول الكاهن سجعه لمن يطلب منه أن يتكهن عن أمر سأله عنه ، وهو يجيب السائل بما يلقيه رئيه عليه . يلقيه سجعاً، أما شيطان الشاعر ، فيلقيه على شاعره شعراً ، ومن هنا وقع الفرق بين قول الشاعر وبين قول الكاهن .

وكانوا يسمون الشعراء (كلاب الحي) ، وهم الذين ينبحون دونهم، ويحمون أعراضهم . وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

وقد هرّت كلاب الحيّ منّا وشذبنا قتادة من يلينا[2]

وأما (كلاب الجن) ، فشعراؤهم ، وهم الذين ينبحون دونهم ويحمون أعراضهم[3] .

---

١ B. Snell, Die Entdeckung des Geistes, Hamburg, 1946, S. 117. ff.

٢ الحيوان (١/٣٥٠) .

٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥٢) .

الفصل السابع والاربعون بعد المئة

حد الشعر

عرّف علماء العربية الشعر بقولهم : « الشعر : منظوم القول ، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية ، وإن كان كل علم شعراً من حيث غلب الفقه على علم الشعر » . وعرّف (الأزهري) الشعر بقوله : « الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، والجمع أشعار ، وقائله شاعر ، لأنه يشعر ما لا يشعر غيره ، أي يعلم »[1] . وعرّفه (ابن خلدون) بقوله : « الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العربية المخصوصة به » . فهو يجعل التقفية والوزن من شروط الشعر ، ويشترط أيضاً استقلال كل بيت منها بغرضه[2] .

وعرف بأنه الكلام المقفى الموزون قصداً ، والتقييد بالقصد مخرج ما وقع موزوناً إتفاقاً ، فلا يسمى شعراً[3] . وقد قصد بهذا التعريف الإسلامي ، إخراج من قال الشعر إتفاقاً لا عن قصد واحتراف . بل عفواً وسجيّة . ولما جاء في القرآن الكريم ، من رمي المشركين للرسول بأنه شاعر بقول الشعر ، فنزل الوحي

---

١ اللسان (٤/٤١٠) ، (صادر) ، (شعر) ، الصاحبي ، (٢٧٣) .
٢ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/٥٩) .
٣ ارشاد الساري (٩/٨٨) .

بنفي ذلك عنه . وحدد العلماء صفة الشاعر بأنه الذي يحترف الشعر ويقوله قصداً، حتى لا تنطبق هذه الصفة على من يقول سطراً بوزن اتفاقاً من غير قصد[1] .

وقد عرفه بعضهم بقوله : « الشعر كلام موزون مقفى ، دال على معنى ، ويكون أكثر من بيت »[2] . وهو تعريف وضعه علماء الشعر في الإسلام ، وهو لا ينطبق بالطبع على وصف الشعر عند الأعاجم من الآريين والساميين ، لأن للشعر عند هذه الأمم مفاهيم أخرى ، تختلف باختلاف وجهة نظرها الى الشعر . فقد يكون الشعر سجعاً عند الأمم الأخرى ، وتعدّ الأمثال عند بعض الشعوب في جملة أبواب الشعر[3] ، كما أنه لا يمكن أن ينطبق على الشعر الجاهلي القديم ، إذ ليس في استطاعة أحد حق التحدث عن الشعر الجاهلي المتقدم على شعر أقدم من وصل اسمه إلينا من الشعراء الجاهليين ، لعدم وجود نصوص مدوّنة أو مروية عن ذلك الشعر ،وما دمنا لا نملك نصوصاً منه ، فلا حق لنا اذن في التحدث عنه.

وعندي ان الشعر الجاهلي المروي والمدون في المؤلفات الاسلامية ببحوره المعروفة انما يمثل المرحلة الأخيرة من مراحل تطور هذا الشعر ، أي مرحلة الكلام الموزون المقفى الدال على معنى ، ولكننا لا نستطيع كما قلت سابقاً الزعم بأن الشعر الجاهلي الأقدم كان على نفس هذه البحور ، أي انه كان متمسكاً بالوزن والقافية إذ من الجائز أن يكون قد كان على شاكلة الشعر القديم الذي نظمه الشعراء الساميون ، من عدم تقيد بالقافية وبوزن الأبيات ، كما نجد ذلك في العبرانية وفي اللغات السامية الأخرى وانما كانوا يراعون فيه النغم ، بحيث يتغنى به ، أو التأثير في العواطف ، بمراعاة نسق الكلام المبني على البلاغة . ولهذا عدّ السجع نوعاً من أنواع الشعر ، لأن في السجع من الوصف والعاطفة والحس ومعالجة الموضوع ، ما يجعله شعراً ، وفي بعضه نغم يجعله صالحاً لأن يتغنى به ، وبين الغناء والشعر صلة ونسب . وقد جعل بعض العلماء الشعر وليداً من أولاد الغناء ، لأن الشعوب القديمة كالبابليين ، والمصريين ، واليونان ، والعبرانيين ، كانت تقرن شعرها بالموسيقى ، وعرف هذا الشعر بالإنشاد ، وقد كان الإنشاد في المعابد ، نوعاً من

---

١ الصاحبي (٢٧٣) .

٢ المزهر (٤٦٩/٢) ، (النوع التاسع والاربعون : معرفة الشعر والشعراء) .

٣ The Bible Dictionary, II, p. 305.

التراتيل الموجهة الى الآلهة ، كما كان يستخدم في الحروب . ولهذا رأى العلماء ان الموسيقى ، أولدت الإنشاد ، والإنشاد هو والد الشعر .

والشعر معروف عند كل شعوب العالم ، معروف موجود حتى عند الشعوب البدائية ، لأنه نوع من أنواع التعبير عن الحس . والإنسان مهما كانت ثقافته ومنزلته لا بد له من التعبير عن إحساساته بمختلف الصور ، وبشتى الوسائل ، من كلام أو تدوين أو نقش أو صراخ أو غناء أو رمز ، الى غير ذلك من الأنواع ، وفي جملتها الشعر . فهو لا يخص إذن شعباً معيناً ، ولا جنساً خاصاً ، إنما هو تعبير إنساني ، يؤديه كل إنسان ، متى كانت عنده المواهب ووجد عنده الحس المرهف الذي يدفعه الى تأليف الشعر دفعاً ، يؤديه على نحو ما يتأثر به إحساسه وذوقه ، في أسلوب يختلف عن الكلام المعتاد المألوف ، ولكنه ليس على نمط واحد عند جميع البشر ، فقد يكون الشعر شعراً عند أمة ، وهو ليس شعراً عند أمم أخرى ، والمصطلح العربي الذي ذكرته للشعر ، يختلف عن المصطلح المفهوم للشعر عند اليونان مثلاً أو عند الرومان أو عند البابليين ، كما أن أبوابه وأنواعه قد تختلف بين أمة وأخرى .

فقد كان العبرانيون يحبون الشعر ، حب العرب له ، ويقولون له : (هـ ـ ش) ، أي الشعر وكانوا ينظمون أشعاراً رتلوها في مختلف المناسبات، في الأفراح وفي الأتراح في المدح وفي الهجاء ، وفي الغزل وفي الوصف ، وفي تمجيد الرب، وكانوا يستعينون بالشعر في القتال ، ينشدونه في قتالهم ويجعلونه عوناً لهم في شحذ الهمم وفي تقوية العزائم للنصر ، كما نرى ذلك في أسفار التوراة[1] . ونجد ثلث التوراة شعراً ، لا سيما في أسفار أيوب والمزامير والأمثال والجامعة ونشيد الانشاد . وفي مواضع من (التكوين) وكتب الأنبياء . ولكن شعرهم ليس وزناً وقافية ، على نمط الشعر العربي، بل هو شعر من طراز آخر . هو شعر بالنسبة للعبرانيين ، وهو ليس بشعر بالنسبة لمصطلحنا المحدد للشعر .

وقد بدأ الشعر بداية متحررة ، فلم يكن الإنسان في بادىء أمره بالشعر يتقيد بالوزن والقافية ، وإنما كان يميز بينه وبين النثر بالنغم الذي يجعله فيه ، وبالنبرات

---

١ الخروج ، الاصحاح ١٥ ، والقضاة ، الاصحاح الخامس وفي المزامير .

التي يخرجها مخارج الغناء ، ولهذا نجد المقطوعات الشعرية القديمة التي وصلت الينا مدوّنة في كتابات مختلف الشعوب لا تشبه الشعر المعروف ، إذ فيه تحرر ، وفيه اعتماد على الترنم والإنشاد وعلى فن الإلقاء ، أما الاعتبارات الفنية المعروفة ، فهي من عمل الشعراء المتأخرين الذين أحلّوا الوزن محل الإلقاء ، ووضعوا قواعد فنّية في نظم الشعر . فلم تكن الأبيات الشعرية في الشعر القديم متساوية ، ولم تكن هناك قوافي بالضرورة ، حتى أنك لا تستطيع تمييز القطعة الشعرية عن غيرها ، إلا بالإنشاد[1]

والشعر من أقدم الأحاسيس التي عبر بها الانسان عن نفسه ، فهو يعبر عن عواطفه وعن أحاسيسه ، من سرور أو حزن ، أو ألم ، وعن اهتمامه بالأمور وعن تصوراته ، وعن كل ما يدور في رأسه من أمور تسترعي حسه ، فيشعر عندئذ بالترفيه عنه بإخراجها كلاماً فيه نغم « Rhythm » ، أي إيقاع ووزن ، وفيه توازن ونظام بين أجزائه ، على غرار ما يفعله الراقص في رقصه ، من اقران رقصه بحركات موزونة . وهو من العواطف المولودة في الانسان . ولهذا تعدّ العواطف التي يعبر بها الانسان عن نفسه شعراً ، وإن خرجت بغير بحور ، وبدون وزن ولا قافية . ففي كلام (سارة) : « وقالت سارة قد أنشأ الله لي فرحاً فكل من سمع يفرح لي ، وقالت من كان يقول لإبراهيم إن سارة سترضع ابناً . فقد ولدت ابناً في شيخوخته »[2] ، وفي الآيات : « ثم أخذت مريم النبية أخت هارون الدفّ في يدها وخرجت النساء كلهن وراءها بدفوف ورقص . فجاوبتهن مريم : سبّحوا الرب ، لأنه قد تعظم بالمجد . الفرس وراكبه طرحهما في البحر »[3] ، وفي مباركة يعقوب أبنائه عند شعوره بدنو أجله ، وفي كلام موسى حين قهر (فرعون) ، معان شعرية ، وتعد من أقدم أنواع الشعر السامي التصويري .

وذلك لأن الشعر السامي القديم ، لم يكن يتقيد بالقافية (Rhyme) ، ولا بالتفعيلات (Feets) أو بالمقاطع القصيرة «Short Syllables» ، وإن حاول ولا سيما

---

١ Hastings, Dictionary of the Bible, Vol., IV, p. 7.

٢ التكوين ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ٦ وما بعدها .

٣ الخروج ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٢٠ وما بعدها .

فيما بعد ، أن يضع في كل شطر أو بيت عدداً من الكلمات أو المقاطع ، يعادل ما يضعه في الشطر أو البيت الثاني منها ، ليتولد من ذلك الوزن[1] .

ويقسم الغربيون الشعر عادة الى « Epic » ، وهو شعر الملاحم ، حيث يمتاز بطول قصائده وفخامة أسلوبه،وبقصصه الذي يدور حول أبطال الملحمة والأحداث التي تعرض لها هذا النوع من الشعر . وشعر يقال له « Dramatic » ، وهو شعر مسرحي ، أي تمثيلي . وشعر يقال له « Lyric » ، وهو شعر غنائي . وشعر يقال له « Didactic » ، وهو شعر تعليمي ، أريد به التعليم ووعظ الانسان . ونجد النوع الأول منه عند اليونان والرومان والهنود والفرس والألمان وهم من الشعوب الهندوأوروبية ، أي الشعوب الآرية .

ولا نجد من شعر الملاحم ، ومن شعر (الدراما) في التوراة ، ولكننا نجد ما يشبه (الدراما) « Semi Dramatic » في سفر أيوب . ويكثر الشعر (الغنائي) المعدّ للترتيل والترنيم Lyric فيه . ففي كلمات موسى على البحر الأحمر ، التي تمثل غناء النصر « Triumphal Odes » ، وفي غناء (دبوره) « Deborah » ، وفي المزامير ، أشعار غنائية معدة للترتيل[2] .

وقد أشير إلى إنشاد الشعر جماعة في التوراة ، فلما وصل العبرانيون الى (البئر) التي قال الرب فيها لموسى اجمع الشعب حتى أعطيهم ماءً ، «حينئذ ترنم اسرائيل بهذا النشيد : اصعدي يا بئر تجاوبوا لها . بئر احتفرها الرؤساء ، احتفرها أشراف الشعب بمخصرة عصيهم »[3] . وقد لازم الترنم الشعر منذ أوائل أيامه ، ففي الترنم به تقوية له . وما النغم سوى (ايقاع) يجعله نوعاً من أنواع الغنـاء (نوطته) التفعيلات التي تكون بحوره في الأدب العربي . ولهذا نجد الشعر قد رافق الغناء بل هو نوع منه منذ نشأته .

ونجد القديس (نيلوس) « Nilus » (المتوفى حوالى سنة ٤٣٠ م) ، يصف غارة بدوية على دير سيناء وقعت سنة ٤١٠ م ، وتحدث في أثناء حديثه عنها عن إنشاد الأعراب أناشيـد بترانيم عندما كانوا يأخذون المـساء ، وهي ترانيم لم يشر

---

١ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, London, 1958, p. 616.
٢ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616.
٣ العدد ، الاصحاح ٢١ ، الآية ١٦ وما بعدها .

القديس الى نوعهـــا ، ولكني لا استبعد أن تكون من الرجز ، الذي يقـال في المناسبات ، في استنباط الماء ، وفي حفر الآبار ، أو رفع الأثقال ، أو في بناء، وأمثال ذلك مما لا يزال مألوفاً ، ويشاهد حتى بين أهل القرى . وان كان بعضها ترانيم غير فنية ولا مصقولة ، ولكنها ذات ايقاع على كل حال[1] .

ومن هذا القبيل الأشعار التي أنشدها العرب في انتصارهم على الرومان سنـــة ٣٧٢ م ، والتي أشار اليها المؤرخ (سوزومن) في كتابه (تأريخ الكنيسة) ، فقد ذكر أن العرب كانوا ينشدون الشعر في قتالهم هذا مع الرومـــان[2] . والواقع أننا لا نكاد نقرأ خبر معركة إلا ونجد الشعر فيها في مقدمة الأسلحة التي تستخدم فيها ، وقد يسبق السيف في الضرب ، حيث يخرج الفارس وهـو يرتجز رجزاً يشيد فيه بنفسه ، وبقومه ، مهوناً من أمر من سينازله ثم يقابله من يتبارى معه برجز آخر ، يشيد فيه بنفسه ، رداً على خصمه .

والشعر العبراني القديم نوعان : النوع المعدّ للترتيل ، والنوع التعليمي . ومن النوع الأول المزامـــير ، ومن النوع الثاني الأقسام الشعريـــة من كتب الأنبياء . والمزامير « Psalms » ، هي من أفصح الأشعـار الدينيـة في التوراة ، وهي تعبر عن الحس الديني عند الانسان ، وعن شعور البشر تجاه خالقهـــم ، وهي تمجيد وحمد له ، واعتراف بضعف الانسان تجاه خالقه ، فهو يرتل فيها حمد الله والثناء عليه . أما الأمثال والجامعة ، وبعض أقسام كتب الأنبياء ، فهي وإن كانت دينية في الأصل ، إلا انها وضعت لغايات تعليمية ، لإرشاد الناس وتقديم النصح لهم .

ولا توجد القوافي والبحور في هذا الشعر ، ومع ان بعض الأشعار العبرانية قد نظمت أحياناً على الحروف الأبجدية ، لكن أشطرها لم تتضمن عدداً مماثـــلاً من المقاطع ، ليتولد منها الوزن ، أي النغم . وانمـــا نظمت على مقابلة الأفكار في الشطر الأول والثاني ، أو في الشطرين الأولين والثالث . وقد يشرح فكر الشاعر على نوع مقابلة فكرين ، إما لوجه المشابهـة بينهما ، وإما لوجه المخالفـة بينهما . ومن أمثلة أوجه المشابهة :

---

١ غرونباوم (١٣٣ وما بعدها) .

٢ غرونباوم (١٣٤) .

فمن هو الانسان حتى تذكره
أو ابن آدم حتى تفتقده[1]

وما جاء في المزمور التاسع عشر من قوله :

السموات تحـدث بمجد الله
والفلك يخبر بعمل يديـه
يوم الى يوم يذيع كلامـا
وليـل الى ليل يبدي علما[2]

ومن أوجه المخالفة بينهما :

لأن عامـلي الشر يقطعون
والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض[3]

وما جاء في الأمثال :

الجواب اللين يصرف الغضب
والكلام الموجع يهيج السخط
لسان الحكماء يحسن المعرفـة
وفم الجهـال ينبع حماقـة[4]

وقد ذهب بعض العلماء الى وجود (التفاعيل) « Feet » و(الوزن) « Metre » في الشعر العبراني،وذهب بعض آخر الى عدم وجود التفاعيل فيه ، وذهب بعض الى وجود القافية « Rhyme » والوزن « Rhythm » في الشعر العبراني . وهـو شعر يختلف عن شعرنا المألوف ، وهو وإن أمكن تقسيمه الى أشطر وأبيـات ، إلا أن له خصائص يختلف بها عن الشعر العربي . فنرى مثلاً أن الأبيـات في

---

١ المزامير ، المزمور الثامن ، الآية ٤ .
٢ الآية ١ وما بعدها .
٣ المزمور ٣٧ ، الآية ٩ .
٤ الامثال ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١ وما بعدها .

القصيدة العبرانية غير متساوية ، فقد يطول فيها بيت ، وقد يقصر فيها بيت آخر . وقد ترتب الأبيات على ترتيب حروف الهجاء ، كما في الأمثال وفي المزامير[1] .

ومن أهم أبواب الشعر العبراني، باب يقال له : « Parallelism » في الانكليزية ، أي التطابق . وهو أنواع . وقد بحث فيه العلماء[2] .

وقد يكون الشعر على صورة أفكار متسلسلة متتابعة ، فتتقدم الفكرة تدريجياً، وتوضح الأبيات التالية السابقة مثل :

ناموس الرب كامـــل يرد النفس
شهادات الرب صادقة تصير الجاهل حكيماً
وصايا الرب مستقيمة تفرّح القلب
أمـــر الرب طاهـــر ينير العينين
خوف الرب نقي ثابت الى الأبد
أحكـــام الرب حق عادلة كلهـا
أشهى من الذهب والابريز الكثير
وأحلى من العسل وقطـــر الشهاد[3]

ومن أنواع الشعـــر في التوراة ، ما نقول له (ترادف المتطابقـــات) « Synonymous Parallelism » ، وذلك أن تكون فكرة الشطرين مترادفة ، وكذلك المصطلحات الواردة فيها ، فترتبط فكرة الشطر الأول بالشطر الثاني من البيت ، مثل : « وقال لآمك لامرأته عادة وصيلة : اسمعا قولي يا امرأتي لآمك واصغيا لكلامي . انني قتلت رجلاً لجُرحي وفتى لشدخي »[4] ، فالشطـــر الأول هو : « وقال لآمك ... الـخ » ، والشطر الثاني المتمم هو : « انني قتلت رجـــلاً لجرحي » ، ومثل : « انقذ من السيف نفسي . من يد الكلب وحيدتي، خلصني من فم الأسد ومن قرون بقر الوحش استجب لي »[5] . ومثل :

---

١ The Bible Dictionary, Vol., II, p. 305. ff.
٢ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p 616.
٣ المزمور ١٩ ، الآية ٧ ــ ١٠ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٦٢١) .
٤ التكوين ، الاصحاح الرابع ، الآية ٢٣ .
٥ المزامير ، المزمور ٢٢ ، الآية ٢٠ وما بعدها .

كيف ألعن من لم يلعنه الله
وكيف اشتم من لم يشتمه الرب[1]

وما نقول لـه بـ (تناقض المتطابقات) ، أو (تضاد المتطابقـات) « Antithetic Parallelism » . وذلك أن يكون الشطر الثاني مثل الشطر الأول في احتوائه على الحقيقة ، أي الفكرة ، ولكنه جاء بها بصورة أخرى ، أي متضادة Contrast . فالشكل متطابق تماماً ، وأحد جزئي الشطـر مترادف ، أما الجزءان الآخران ، فتعارضان . وأكثر ما يقع ذلك في المثل :

الابن الحكيم يسرّ أباه
والابن الجاهل حزن أمه[2]

ونوع آخـر يقال له (الايقاع المتصاعـد) ، أو (الوزن الصاعـد) ، « Ascending Rhythm » « Stair-like » ، وهو شعر يرد في الشطر الثاني منـه جزء مما ورد في الشطر الأول ، أو مختصر الشطـر الأول ، ليضاف عليه شيء جديد . مثل :

حتى يعبر شعبك يـا يهـوه
حتى يعبر الشعب الذي اقتنيته[3]

ونوع يقال له (المتطابقات المركبة) « Synthetic Parallelism » أو « Constructive » وذلك بأن يكون ما يرد في الشطر الثاني مخالفاً ، أو على الأكثر لما ورد في الشطر الأول . على ان المتطابقات في الشرطين تكون موجودة . مثل :

لا تجاوب الجاهل حسب حماقته
لئـلا تعدلـه انـت
جاوب الجاهل حسب حماقته
لئلا يكون حكيماً في عيني نفسه[4]

---

١ العدد ، الاصحاح ٢٣ ، الآية ٨ ،
٢ الامثال ، الاصحاح العاشر ، الآية ١ ٠
٣ الخروج ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١٦ ٠
٤ الامثال ، الاصحاح ٢٦ ، الآية ٤ ٠

ومثل : ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارفعنها أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد .

من هو هذا ملك المجد . رب الجنود هو ملك المجد . سِلاه[1] .

ومن النوع المعروف بـ « Progressive Parallelism » ، ما ورد في (أيوب) من قوله : « هناك يكف المنافقون عن الشغبِ وهناك يستريح المتعبون . الأسرى يطمئنون جميعاً ، لا يسمعون صوت المسخر . الصغير كما الكبير ، والعبد حرّ من سيده »[2] . وقد جاء الشطر الثاني بمعان ايضاحية جديدة ، لها صة بما ورد في الشطر الأول من معنى[3] .

ومن النوع الذي يقال له: « Climatic Parallelism » ، ما ورد في (المزامير) : « صوت الرب يولد الأيل ، ويكشف الوعور وفي هيكله الكل قائل المجد . الرب بالطوفان جلس ويجلس الرب ملكاً الى الأبد . الربّ يعطي عزاً لشعبه ، الرب يبارك شعبه بالسلام »[4] ، وقوله : صوت الرب بالقوة . صوت الرب بالجلال . صوت الرب مكسر الأرز ويكسر الربّ أرز لبنان ، ويمرحها مثل عجل . لبنان وسِرْيون مثل غرير البقر الوحشي »[5] . حيث تعاد الألفاظ فيه حسب سلم ارتفاع المعاني .

ويتكون الـ « Parallelism » في العادة من بيتين ، أو شطرين ، فهو من نوع (دوبيت) ، « Distich » ، غير أنه يتكون أحياناً من ثلاثة أبيات « Tristichs » ، ومن أربعة أبيات « Tetrastichs » ، ومن خمسة أبيات « Pentastichs » .

ولا يرد الشعر العبراني على صورة مقطوعات أو قصائد بالضرورة ، ومع ذلك فقد ورد في بعض المزامير على شكل قصيدة مكوّنة من ثلاثة أقسام متساوية يربط بين أجزائها رابط ، هو بيت مكرر « Recurring Verse » . ونرى أن أحد المزامير قد تألف من ثلاث مقطوعات ، كل قطعة منها بثلاثة أبيات ، وفي

---

١ المزامير ، المزمور ٢٤ ، الآية ٩ وما بعدها .
٢ أيوب ، الاصحاح الثالث ، الآية ١٧ وما بعدها .
٣ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616.
٤ المزامير ، المزمور ، ٢٩ ، الآية ٩ وما بعدها .
٥ المزامير ، المزمور ٢٩ ، الآية ٥ وما بعدها .

نهاية كل مجموعة علامة (سلاه) « Selah »[1] . وقد تنتهي المجموعتان بعبارة تتكرر على نحو موصول في قصيدة أو أغنية « Refrain » .

ونجد في المزامير شعراً ورد منظوماً على ترتيب الأبجدية ، فقد ورد مكوناً من اثنتين وعشرين قطعة ، أي بعدد حروف الهجاء ، تكونت كل قطعة منها من ثمانية أبيات « Verses » ، وتبدأ كل قطعة بالحرف العددي . ونجد ان الـ « Lamentations » ، قد رتب على الحروف[2] ، وهي مقاطع شعرية حزينة ومراثي « Eligies » تمثل شعر المراثي الأصيل « Threnody » في العبرانية . ويتوقف وزنها على بناء كل بيت . ولكن البيت فيها لا يشبه بيت الشعر في اللغة اللاتينية من نوع الأبيات المكونة من ستة تفاعيل « Hexameter » ، أو من الخماسي التفاعيل « Pentameter » ، وانما يتكون من خمسة ألفاظ أو ستة أو سبعة،مكونة ما يعادل أحد عشر مقطعاً « Syllables » . يتكون كل بيت منها من شطرين غير متساويين أحدهما من ستة ، والآخر من خمسة ، أو من أربعة والآخر من ثلاثة ، يفصل بينهما الاحساس والقواعد النحوية[3] .

ونجد Sirach من أسفار (الأبوكريفا) « Apocrypha » ، وقد نظم على هيأة (دوبيت) Stichoi من حيث الوزن وعدد المقاطع . وهو من الشعر التعليمي: « Diadactic »[4] .

وقد قسّم بعض العلماء الشعر العبراني الوارد في التوراة الى أقسام : شعر يتمثل بما ورد منه في أسفار (أيوب) « Job » وفي نشيد (سليمان) ، ونوع يتمثل بما جاء في (المزامير) وهو شعر غنائي ، أي يتغنى به ، وقد ينشد على إيقاع (المزمار) ، وهو يقال له « Lyric » في الإنكليزية ، وشعر ثالث يتمثل في (الأمثال) وفي أسفار الحكمة « Ecclesiaticus » التي هي في التهذيب وفي تعليم الإنسان « Didactic » ، وفي الحكم الموجزة المفيدة (Sententious) . والنوع الأول هو شعر فني ، وأما النوع الثاني فمختصر موجز ، نظم لينشد ، ولكل قسم طرق وبحور[5] .

---

١ المزامير ، المزمور الرابع والعشرون ، المزمور السادس والثلاثون .
٢ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616.
٣ Hastings, p. 527
٤ Hastings, Vol., 4, p. 7.
٥ The Bible Dictionary, Vol., II, p. 305.

ولأجل إحلال الإيقاع أو النغم في الشعر، فقد يضطر أحياناً إلى مزج كلمتين قصيرتين ، ليتلفظ بهما ككلمة واحدة . كما يفعل ذلك لأسباب أخرى منها مراعاة (القافية) التي يقال لها (ميقف) (مقف) « Maqqeph » في العبرانية . أما إذا كان العكس ، وذلك بأن تكون الكلمة ثقيلة وطويلة ، فقد تقرأ وكأنها ذات مقطعين ، أو جزءين .

وإذا كان الشعر مؤلفاً من أبيات عديدة ، تكون وحدة واحدة ، فيطلق عليها (مقطوعة شعرية) « Strophe » . ولكن المراد بها في الغالب القطعة الكبيرة من الشعر ، أي (القصيدة) . وأما الشعر القصير ، المؤلف من بيتين ، أي من (دوبيت) وهو يقال له « Couplet » أو « Distich » في الانكيزية ، فإنه يكون الطابع الغالب على الشعر في هذه اللغة . يتكون من « Parallelism » ، أي (موازنات) أو (متطابقات) . وقد نظمت الأشطر والأبيات ، بحيث تتناسب فيما بينها في الألفاظ والجمل والمعاني . فيرد في الشطر الثاني جزء مما ورد في الشطر الأول بنصه أو باختيار لفظة منه ، لتذكير القارىء بالشطر المتقدم، فيتخرط مراد ذلك الشطر[1]

ونجد في التوراة قطعاً عدّها العلماء مقطعات شعرية ، بينما هي خالية من النغم، أي الوزن ، ونجد قطعاً ذات نغمة موسيقية ، أي ذات وزن ، فهي من الشعر الصحيح ، المقرون بنغم . والنوع الأول هو نثر « Prose » خالص ، لكنه يمتاز عن النثر المألوف باستعماله المجاز والاستعارة والكناية والتعابير الفنية والألفاظ المؤثرة في التعبير عن الرأي . فهو يعبر عن شعور عميق كامن في النفس بأسلوب أدبي رفيع لذلك عدّ من الشعر ، مع انه نثر في الواقع .

ويتكون البيت من شطرين . ومن مقاطع « Stanza » ومن « Strophe » ، أي مقطوعة . ويتكون الشطر والبيت من مقاطع ، أي من ألفاظ نظمت بعضها الى بعض بحيث اذا ما قرئت بصوت مرتفع ، فإنها تقرأ بنغمه ، وبموسيقى مؤثرة. ويقتضي ذلك تنظيم الألفاظ والمقاطع بشكل منسق ذي نغم ، لتتولد منه موسيقية الشعر . فللشعر ارتباط وثيق بالموسيقى والغناء . ونجد موسيقى الأشطر والأبيات متناسبة ومن ايقاع واحد ، أي من (بحر) واحد ، وتحافظ القطعة الشعرية ،

---

١ Hastings, p. 737, «Poetry».

على هذه الموسيقى ، حتى لا يقع تنافر فيها ، فتبدو متنافرة نابية على السمع ، فلا تعد شعراً من صميم الشعر .

ويدخل (الترنيم) في باب الشعر الذي يقرأ مع الموسيقى ، وتعد (الأمثال) في جملة أنواع الشعر . ونظراً لعـــدم وجود نصوص شعرية في العبرانية ، وفي اللغات السامية ، مدوّنة بصورة واضحة تبين مقاطعها كيفية التغني أو النطق بها، ونظراً لجهلنا أصول الايقاع عند القدماء وطرق الغناء التي تغنى بها ، ليس من السهل علينا في الوقت الحاضر ابداء رأي واضح عن الشعر عند قدماء الساميين ، وفي جملتهم العرب بالطبع .

فنحن لا نعرف اليوم عن الشعر العربي القديم ، الـذي سبق الإسلام بعصور كثيرة ، أي شيء . وليس في النصوص الجاهلية التي وصلت الينا ، نص فيـــه شعر أو فيه تلميح عنه . وكل ما يقال عنه ، هو حدس وتخمين وظن وقيـاس قيس على ما نعرفه عن الشعر عند بقية الساميين ، وما نعرفه عن ذلك الشعر هو بحد ذاته شيء قليل . وما لم يعثر على نصوص شعرية جاهلية ، فإن من غـــير الممكن التحدث عنه بشيء ذي بال .

والشعر هو شعور وتعبير عن أحاسيس وخواطر قائله ، واذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن يتناسب مستواه من الرقي أو السذاجة مع مستوى الشاعر العقـلي . ومعنى هذا انه بدأ ساذجاً بسيطاً ، ثم نمـا وتطور بنمو وبتطور عقل قائله. وعلى هذا فشعر كل أمة بدأ كما يبدأ كل مولود ساذجاً بسيطاً ، ثم نمـا وتطور، وهو لا يزال يتطور ما دام العقل الانساني خاضعاً لسنة التطور ، وما دام الانسان حياً. ولد من هذا الكلام الاعتيادي المرسل المنثور ، بأن ميز عنـه بعض التمييز ، ثم زادت هذه الميزات أو العلامات الفارقة ، حتى صار صنواً للنـــثر ، بحيث صار الكلام : نثراً ونظماً .

وقد أشير الى (الشعراء) في العهد الجديد ، أي في الانجيل . ورد في (أعمال الرسل) « لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد . كما قال بعض شعرائـــكم أيضاً »[1] . مما يدل على أهمية الشعراء في ذلك العهد .

---

١ أعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ٢٨ .

والشعر أوقع أثراً على النفس من النثر ، لما فيه من سحر النغم ومن جاذبية في الموسيقى ، ومن توازن وتطابق في بنائه ، ومن انسجام في تكوين أجزائه ، بحيث إذا أسقط جزء من شطر بيت أو وضع جزء غريب في موضع الساقط ، وهو ليس في وزنه اختل التوازن فيه أي النغم : ولهذا اقترن الشعر بالغناء ، لوجود النغم فيه ، والنغم من أسس الغناء . فكان الشاعر يترنم بشعره ويتغنى به ، ويقرأه بنغمة خاصة ليؤثر بذلك على سامعيه ، وقد يقرن ترنيمه هذا بتحريك رأسه أو يديه أو جسمه من شدة انفعاله وتأثره بشعوره ، ليؤثر بذلك في السامعين فيشبه موقفه هذا موقف السحرة في الأيام القديمة . ونظراً لتغني اليونان والرومان عند تلاوتهم أشعارهم ، قالوا : غنى شعراً ، بمعنى نظم شعراً[1] ، أو قال شعراً أو صنع شعراً . ونحن نقول في عربيتنا « أنشد شعراً ، نريد : قال شعراً ، وقرأ شعراً ، وأنشد الشعر ، قرأه ، وأنشد بهم ، أي هجاهم . « وفي الخبر أن السليطين قالوا لغسان هذا جرير ينشد بنا ، أي يهجونا . وتناشدوا أنشد بعضهم بعضاً »[2] . و « النشيد رفع الصوت . قال أبو منصور : وإنما قيل للطالب ناشد لرفع صوته بالطلب ، وكذلك المعرّف يرفع صوته بالتعريف يسمى منشداً . ومن هذا انشاد الشعر ، إنما هو رفع الصوت »[3] . وفي هذا التفسير دلالة على أن الشعراء كانوا يرفعون صوتهم عند قولهم الشعر ويترنمون به ، والترنيم والترتيل والإنشاد من ألوان الغناء . ولا استبعد كون قدماء الشعراء الجاهليين كانوا يترنمون في أشعارهم ، أي أنهم كانوا ينشدونها انشاداً ، بطريقة غنائية ، قد تصاحب بآلة موسيقية ، وربما كانوا يتغنون بالشعر أمام الأصنام ، تمجيداً لها وتقرباً اليها ، ومن هنا جاء مصطلح : « أنشد شعراً » ولا استبعد أن يكون هذا شأن العرب الجنوبيين في معابدهم ، نظراً لما كان لهم من معابد ضخمة وطقوس دينية وتقرب الى الأصنام .

ولا يستبعد احتمال ترنيم بعض الشعراء الجاهليين شعرهم على نغم آلة من آلات الطرب ، على نحو ما يفعله اليوم بعض الشعراء الذين ينشدون أشعارهم بالعامية على (الرباب) (الربابة) ، ينشدونه عند أبواب البيوت في الأعياد وفي المناسبات ،

---

١ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/٦٤) .
٢ تاج العروس (٢/٥١٤) ، (نشد) .
٣ تاج العروس (٢/٥١٤) ، (نشد) .

بستجدون به أصحاب البيت والناس الذين قد يجتمعون حولهم لسماع الغناء . وقد يكون هؤلاء من ترسبات أولئك الشعراء الجاهليين .

وقد بدأ الشعر بداية أي شعر آخر ، بدأ بداية بسيطة ، بدأ جملاً مقفاة ، الكلام فيه يوالي بعضه بعضاً على روي واحد ، أي سجعاً[1] . أو كلاماً يشبهه ، فيه نغم وايقاع وتعبير عن إحساس . ثم تفنن فيه ، وزيدت أنغامه ، أي بحوره وأغلبها من الأنغام البسيطة السهلة ، المتناسبة مع الحياة الأولية ، ثم تقدم بتقدم الحياة ، واتخذ صوراً متعددة تتناسب مع حياة الأمم وظروفها وعقلياتها ، وماتت أوزان ، وتولدت أوزان ، وظهرت فيه أساليب عند أمة ، لم تعرف عند أمم أخرى ، لاختلاف الحياة والأذواق والأجواء التي يولد فيها الانسان .

والشعر الجاهلي الواصل الينا ، إما أبيات ، نسبت الى شعراء ، وقد لا تنسب ، وإما جملة أبيات يقال لها (قطعة) « Fragment » ، وإما (قصيدة) « Ode » وهي ما زاد عدد أبياتها على حدود القطعة التي رسمها لها علماء الشعر .

وقد لعب (السجع) دوراً هاماً في حياة الجاهليين ، تكلم به الكهان بصورة خاصة ، ولهذا اشتهر وعرف باسمهم فقيل : « سجع الكهان » . ونطق به الخطباء ، وقد تعمقوا فيه فاستعملوا أقصى ما ملكته بلاغتهم من أساليب التأثير على النفوس ، لسحر عقول المستمعين لهم . فصار نوع من أنواع الكلام المقفى ، ظاهره القافية والروي ، وباطنه سحر معاني الشعر . فهو في الواقع شعر مقفى ينقصه الوزن ليكون شعراً تاماً . و (الروي) ، حرف القافية ، الحرف الذي تبنى عليه القصيدة ، ويلزم في كل بيت منها في موضع واحد[2] . فلما أضيف اليه النغم ، أي الوزن صار شعراً ، له أوزان وبحور ، على نغمها ينظم الشاعر شعره .

والسجع ، وان ظهر في عربيتنا كلام مقفى خال من الوزن ، إلا أنه في الواقع كلام موزون ، روعي فيه ، أن يكون الشطر الثاني من الجملة موازٍ أي مساوٍ للشطر الأول منها ، بحيث يكون بوزنه وبقافيته . ومن هنا عدّ شعراً عند الأمم الأخرى لأنك إذا قرأت السجع الأصيل المعتنى به ، أو السجع الذي استرسلت به السليقة ، والخارج من قلب إنسان ذي حس مرهف ، تجد فيه الميزان الصحيح

---

١ تاج العروس (٥/٣٧٥) ، (سجع) .
٢ تاج العروس (١٠/١٥٩) ، (روى) .

والمقابلة التامة والمطابقة الصحيحة بين الأجزاء ، كل كلمة فيه تقابل كلمة مثلها، وكل عيار فيه يقابله عيار في وزنه وثقله . وفي معانيه معان شعرية وسحر بيان ، ثم إنك إذا قرأته بصوت مرتفع،وبحركات صوتية ذات ترنم ، بنغم فيه حركات وسكنات ، صار شعراً . ومن هنا رمت قريش الرسول بقول الشعر ، وبأنه شاعر لما سمعت القرآن . فرد عليهم بقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له »[1] . و « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون »[2] .

وما كانت قريش لترمي الرسول بقول الشعر ، وتزعم ان القرآن شعر أو أن فيه شعراً ، لو انها كانت تعتبر الشعر الكلام الموزون المقفى حسب ولا غير ولا تدخل التخيل فيه ، أي المعنى الشعري . ومن هنا قال المفسرون : « لأن انتفاء الشعرية عن القرآن أمر كالبين المحسوس . أما من حيث اللفظ فظاهر ، لأن الشعر كلام موزون مقفى ، وألفاظ القرآن ليست كذلك ، إلا ما هو في غاية الندرة بطريق الاتفاق من غير تعمد . وأما من جهة التخيل ، فلأن القرآن فيه أصول كل المعارف والحقائق والبراهين والدلائل المفيدة للتصديق اذا كان المكلف ممن يصدق ولا يعاند . وانتفاء الكهانة عنه أمر يفتقر الى أدنى تأمل يوقف على ان كلام الكهان أسجاع لا معاني تحتها وأوضاع تنبو الطباع عنها »[3] . وهذا المذهب الذي ذهبت قريش فيه في تفسير الشعر،هو الذي حمل علماء التفسير على الاحتراس كثيراً في تفسير معنى الشعر وفي تحديده ، وتحديد مفهوم الشاعر . فقالوا : «الشعر وهو الكلام المقفى الموزون قصداً . والتقييد بالقصد مخرج ما وقع موزوناً اتفاقاً، فلا يسمى شعراً ، وما يجوز من الرجز ، وهو نوع من الشعر عند الأكثر »[4] .

على أن علماء العربية لم يغفلوا أو لم يشاءوا أن يخفوا حقيقة واقعة ، هي أن

---

١ سورة يس ، الآية ٦٩ ، تفسير الطبري (١٨/٢٣) ، ابن كثير ، تفسير (٥٧٨/٣ وما بعدها) .

٢ الحاقة ، الآية ٤٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٤١/٢٩) ،

٣ تفسير النيسابوري ، (٣٧/٢٩) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، (بولاق) ، (وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال) ، تفسير ابن كثير (٥٧٨/٣) ، (في تفسير سورة يس) .

٤ ارشاد الساري (٨٨/٩) .

في القرآن آيات ، إذا تأملت فيهـا وجدتها وكأنها شعر منظوم ، أو من قبيل الشعر المنثور . مثل سورة الانفطار :

إذا السماء انفطرت
وإذا الكواكب انتثرت
وإذا البحار فجرت
وإذا القبور بعثرت
علمت نفسٌ ما قدمت وأخرت[1]

والجواب على ذلك،ان ما نجده في القرآن من آيات تبدو وكأنها شعر موزون ، هو من قبيل ما يقع في كلام الناس عفواً ومن غير تعمد من كلام ، لو تأملت فيه وجدته كلاماً موزوناً ، ولكن لم يقصد به أن يكون شعراً ، والشعر لا يعدّ شعراً إلا إذا كان قد صدر عن تفكر وعمل خاطر ، وإعمال رأي ، ومن رجل اتخذ الشعر صنعة له .

وليس لدى أي أحد علم بكيفية تطور الشعر العربي من حالته البدائية الى بلوغه درجـة البحور . ولا يستطيع أحد اثبات أن هذه البحور التي ثبتها (الخليل) والأخفش ، وحدداها ، هي كل بحور الشعر الجاهلي ، فربما وجدت بحور أخرى لم يصل خبرها الى علم هذين العالمين أو غيرهما ، ولا سيما في الشعر القبلي الذي لم يشتهر أمره ، ولم يعرف إلا بين السواد ، ومنه الشعر العامي ، أي الشعبي ، أو المحلي ، المنظوم باللهجات الخاصة ، إذ لا يعقل عدم وجـود شعر شعبي في ذلك العهد ، نظمه سواد الناس ، على غرار الشعر العامي الذي يقـال له الشعر النبطي في جزيرة العرب ، فالشعر هو شعور ، ولا يقتصر الشعور على طبقة من الناس دون أخرى .

ونحن لا نملك في الوقت الحاضر تعريفاً علمياً للشعر ، نستطيع أن نقول بجزم وبتأكيد انه من تحديد الجاهليين له . والتعريف المألوف له ، هو كما ذكـرت تعريف اسلامي محض . وقد رأينا كيف احترس علماء التفسير في تعريفه، فقيّدوه بكونه « الكلام المقفى الموزون قصداً » لإخراج ما وقع موزوناً من الكلام اتفاقاً

---

١ سورة الانفطار ، ٨٢ ، الآية ١ ــ ٥ .

من الشعر ، وهو ما وقع في القرآن وفي كلام الرسول ، مما يدل على ان العرب في أيام الرسول كانوا أوسع إدراكاً لمفهوم الشعر من الاسلاميين ، وانهم كانوا يدخلون فيه ما أخرجه من جاء بعدهم في الاسلام منه ، بسبب فرية قريش على القرآن والرسول . وبسبب هذه الفرية ، وقع جدل فيما بين الاسلاميين في موضوع الرجز ، هل هو شعر ، أو هو باب خاص من أبواب الكلام لا يدخل في باب الشعر ، لثبوت ورود الرجز على لسان الرسول !

وقد أدرك العلماء ان هنالك فروقاً بين العرب وبين العجم في نظرتهم الى الشعر. قال (الجاحظ) في معرض كلامه على ميزات اللسان العربي وتفوقه على ألسنة الأعاجم : « والأمثال التي ضربت فيها أجود وأسير . والدليل ان البديهة مقصور عليها ، وان الارتجال والاقتضاب خاص فيها ، وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الروم والفرس شعراً ، وكيف صار النسيب في أشعارهم وفي كلامهم الذي أدخلوه في غنائهم وفي ألحانهم انما يقال على ألسنة نساتهم ، وهذا لا يصاب في العرب إلا القليل اليسير ،وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة ، فتضع موزوناً على موزون ، والعجم تمطّط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون »[1] . فهذا رأي (الجاحظ) في الشعر العربي وفي الشعر عند الأعاجم .

وللشعر أوزان ، هي بحوره . ضبطها (الخليل بن أحمد) الفراهيدي في الاسلام ثم من جاء بعده . استنبطت من الشعر المألوف الذي كان سائداً في أيامه، وضبطت بأوزان هي (التفعيلات) . بيد أننا لا نستطيع أن نقول إن الأوزان التي ضبطها الاسلاميون ، تمثل جميع بحور الشعر الجاهلي ، وأن علماء الشعر كانوا قد استعرضوا كل ذلك الشعر ، وحصروه حصراً ، ودرسوه درساً ، فوجدوه لا يخرج خارج هذا الحصر ، فلم يفتهم منه ولا بحر واحد . فقول مثل هذا لا يمكن أن يقال ، وهل هنالك من دليل يؤيده ويسنده ؟ وأنا لا استبعد احتمال عدم وقوف علماء الشعر على بحور أخرى ، لم يصل علمها اليهم بسبب موتها قبل الإسلام ، أو لقلة من كان ينظم بها ، ألا لأنها كانت من الأشعار التي لم يصل علمها الى علماء الشعر ، لكونها من أشعار العرب الجنوبيين الذين كانوا يتكلمون

---

١ البيان والتبيين (٣٣) ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .

باللهجات العربية الجنوبية، أو لكونها أشعار مناطق بعيدة لم يألف علماء اللغة والشعر الذهاب اليها ، أو لأنها من الشعر (العامي) ، البعيد عن العربيـة المصطفاة ، ولأسباب أخرى .

ونجد في خبر : (لهيب بن مالك) اللهبي ، المعروف بـ (لهب) ، سجعاً ورجزاً ، نستطيع أن نقول انه — إن صح — يمثل مرحلة من مراحل الشعر عند الجاهليين ، تفيدنا دراستها فائدة كبيرة في الوقوف على تطور الشعر الجاهلي. فقد ذكر انه سمع الكاهن (خطر بن مالك) ، وكان من أعلم كهان (بني لهب) ، يقول :

عودوا الى السحر ائتوني بسحـر
أخبركم الخـبر أالخير أم ضرر
أم لأمن أو حذر

وذكر انه سمع الكاهن يقول :

أصابه أصابـه خامره عقابـه
عاجله عذابـه أحرقه شهابـه
زايله جوابـه يا ويله ما حاله
بلبلـه بلبالـه عاوده خبالـه
فقطعت حبالـه وغيرت أحواله

ثم أمسك طويلاً ، وهو يقول :

يا معشر بني قحطان أخبركم بالحق والبيان
أقسمت بالكعبة والأركان والبلد المؤمن والسدان
قد منع السمع عتاة الجان بثاقب بكف ذي سلطان
من أجل مبعوث عظيم الشان يبعث بالتنزيل والقرآن
وبالهدى وفاصل الفرقان تبطل به عبادة الأوثان

ثم قال خطر :

أرى لقومي ما أرى لنفسي أن يتبعوا خير نبي الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس[1]

---

١ الاصابة (٣/٣١٢) ، (رقـم ٧٥٦٤) ، الاستيعاب (٣/٣١٢ وما بعدهـا) ، (حاشية على الاصابة) .

وهو كلام مصنوع ، لكنه يفيدنا مع ذلك في الوقوف على نماذج من الشعر، روعي في صنعه محاكاة طريقة الكهان في نظم الكلام . فهو يفيدنا من هنا في الوقوف على أسلوب من أساليب نظم الكهان في أيام الجاهلية ، كما انه يفيدنا في دراسة موضوع صلة الكهانة والسحر بالشعر .

والشعر بعد ، تعبير عن الخواطر والأحاسيس وخوالج النفوس ، فلا يمكن أن تنحصر أغراضه في غرض واحد ، لأن التعبير عن الحياة العامة للإنسان يحتاج الى ألوان كثيرة من ألوان التعبير الشعري ، والشعر الجاهلي على كونه ضيقاً ، لضيق أفق الحياة الجاهلية وبساطتها ، فقد تنوعت فنونه ، تنوعاً انبثق من صميم حياة الجاهليين ، وأدى بذلك المعاني التي كانت تتطلبها حياتهم أداءً يتناسب مع درجة عقليتهم ومستواهم المعاشي وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية . وقد استعرض الإسلاميون تلك الأغراض التي قيل الشعر فيها فحصرها (أبو تمام) وهو نفسه من مشاهير الشعراء في الاسلام في عشرة أبواب:هي الحماسة ، والمراثي ، والأدب، والتشبيب (النسيب) ، والهجاء ، والإضافات ، والصفات ، والسير ، والملح ، ومعرفة النساء . وجعلها غيره : الغزل ، والوصف ، والفخر ، والمدح، والهجاء، والعتاب ، والاعتذار ، والأدب ، والخمريات ، والأهديات ، والمراثي ،والبشارة، والتهاني ، والوعيد ، والتحذير ، والتحريض ، والملح ، وباب مفرد للسؤال والجواب[1] . وحصرها (ابن رشيق) في النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء، والإقتضاء ، والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد ، والانذار ، والهجاء ، والاعتذار[2]. وورد في (ديوان المعاني) ان « أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح ، والهجاء، والوصف ، والتشبيه ، والمراثي ، حتى زاد النابغة فيها قسماً سادساً وهو الإعتذار، فأحسن فيه »[3] .

وقد تعرض (أبو العباس ثعلب) ، لهذه الأغراض فجعلها : الأمر والنهي، والإخبار ، والاستفهام . وهذه الأغراض الأساسية للشعر تتفرع الى المديح ، والهجاء ، والرثاء ، والإعتذار ، والغزل ، والتشبيه ، والوصف[4] . وجعل

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٧١) .
٢ العمدة (٢/١١٣ وما بعدها) ، (باب في أغراض الشعر وصنوفه) .
٣ ديوان المعاني (١/٩١) .
٤ جوستاف فون جرونباوم ، حضارة الاسلام (٣٣٣) .

(أبو هلال العسكري) أغراض الشعر : المديح ، والهجاء ، والفخر ، والغزل، وجعلها : المديح ، والهجاء ، والرثاء ، والغزل، والوصف ، في موضع آخر[1] .

ونلاحظ ان بعض هذه الأبواب مثل الفخر والمدح والهجاء ، عامرة ، وبعض منها فقيرة ، حتى لا نكاد نجد فيها مما يخص الشعر القصصي Epique غير نزر يسير ، وفي هذا القليل ما هو مشكوك في صحته . وأما الشعر الديني الخاص بالأصنام والأوثان ، فلا نجد منه في الشعر الواصل الينا لا قطعة ولا قصيدة . ولا يعقل بالطبع ألا يكون للجاهليين شعر في هذا الباب ، إذ كانوا يتوسلون ويلوذون بها ويتقربون اليها بالنذور ، فلا يعقل ألا يكون لهم شعر في آلهتهم . ولا يعقل أيضاً قول من قال إن الجاهلي رجل مادي ، لم يحفل بالدين ولا بالمعاني الروحية ولا بالآلهة ، وهو من أبعد الناس عن الدين والتدين ، لذا لم يحفل بها في شعره. فلو كان الجاهلي على هذا النحو المذكور من الابتعاد عن الدين والتدين ، لما تقرب اليها بالنذور وبالقرابين وهو فقير محتاج ، وبالحج ، وهي عبادات لا يمكن أن ينكر وجودها عند الجاهليين أحد ، لورود ذكرها في النصوص الجاهلية ، وفي القرآن الكريم . والذي أراه ان سبب عدم وصول شيء من الشعر الديني الوثني الجاهلي الينا ، لا يعود الى تقصير الجاهليين في هذا الباب ، بل الى انصراف الرواة عنه ، وامتناعهم من تدوينه بسبب الاسلام،لأنه من صميم ديانة أهل الجاهلية التي اجتثها الاسلام ، إلا أن يكون ذلك الشعر من النوع الذي يتفق مع مبادىء الاسلام ، أو لا يتعارض معها ، فلم يجدوا غضاضة من روايته ، ولذلك رووه.

وقد ذكر علماء الشعر « أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين ، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم من ماء الى ماء ، وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه »[2] . وذكر أن (امرأ القيس) « أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى في الدمن،ووصف

---

١ ديوان المعاني (١/٣١ ، ٩١) ، حضارة الاسلام (٣٣٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٠) .

ما فيها ، ثم قال : دع ذا – رغبة عن المنسبة – فتبعوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا واللقوة والسباع والظباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف » . وكان أول من بكى الديار[1] .

والشاعر المجيد عندهم « من سلك هذه الأساليب ، وعدّل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منهـا أغلب على الشعر ، ولم يطل فيملّ السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمـأ الى المزيد »[2] . « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هـذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكي عند مُشَيَّد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر ، والرسم العافي ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد عـلى المياه العذاب الجواري ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي ، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة »[3] .

وقد جعل علماء الشعر (النسيب) باباً من أبواب الشعـر ، ودعاه بعضهم (التشبيب) ، وجعل بعضهم (الغزل) باباً من أبواب الشعر ، بأن أدخـل (النسيب) فيه[4] . وطالما نجد الناس يخلطون بين الغزل والنسيب والتشبيب . والغزل في رأي بعض علماء اللغة اللهو مع النساء ، وقيل محادثة النساء ، وقيل : الغـزل والنسيب هو مدح الأعضاء الظاهرة من المحبوب أو ذكر أيام الوصل والهجر أو نحو ذلك ، وذكر بعضهم ان الغزل والنسيب والتشبب كلها بمعنى واحد ، وقيل : إن النسيب والتشبيب ، والغزل ثلاثتها متقاربة ، ولهذا يعسر الفرق بينها حتى يظن انها واحد[5] . وذكر ان النسيب التغزل ، وان قول الرجل نسب الشاعر بالمرأة ، بمعنى شبب بها في الشعر وتغزل وذلك في أول القصيدة ، ثم يخرج الى المديح ، والنسب هو الغزل في الشعر ، والنسيب في الشعر ، هو التشبيب فيه[6] ، والتشبيب : ذكر أيام الشباب واللهو والغزل ، ويكون في ابتداء القصائد ، وسمى ابتداؤهـا

---

١ الشعر والشعراء (٦٨/١) ، (دار الثقافة) .
٢ الشعر والشعراء (٢١/١) .
٣ الشعر والشعراء (٢٢/١) .
٤ العمدة (١٢٠/١ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٤٣/٨) ، (غزل) .
٦ تاج العروس (٤٨٣/١) ، (نسب) .

مطلقاً وإن لم يكن فيه ذكر الشباب. وقيل تشبيب الشعر ترقيق أوله بذكر النساء[1].

ولو دققنا النظر في معاني هذه المصطلحات ، نجد أن هناك فرقاً بين الغزل وبين النسيب ، والتشبيب في الأصل ، غير أن الناس خلطوا بين معانيها ، فلم يفرقوا بينها . فالنسيب مصطلح استعمل في الشعر للتعبير عن ذكر الديار والأحبة في ابتداء القصيدة ، فكأنه أخذ من النسب ، حيث يقص الشاعر نسب أحبته ومكانهم ، ومرابع الأحباب ومنازلهم واشتياق المحب الى لقائهم ووصالهم وغير ذلك مما فصلوه وسموه التشبيب[2] ، فهو ليس بغزل إذن ، فقول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لا يعدّ غزلاً بالمعنى المفهوم من الغزل ، وإنما هو تذكر وتوجع على الأحبة والأصدقاء ، لمفارقته الديار ، وتركه الأحباب . أما الغزل ، فهو شيء آخر ، يمثل عاطفة الحب نحو المرأة ، وما يتعلق بها ، وهو ما يقال له : Love Poem في الانكليزية . وأما التشبيب ، فهو تذكر أيام الصبا والشباب ، والغزل فيه لما فيه من المغازلة والمنادمة[3] ، ونظراً لما بين هذه الأمور من تداخل ، تداخلت المعاني في الإسلام ، وأخذت تعني معاني متقاربة ، أو شيئاً واحداً .

وشعر الهجاء « Lampoon » ، هو من أهم أبواب الشعر المهمة عند الجاهليين. ويتناول هجاء اشخاص وهجاء القبائل . ونظراً لما كان يتركه الهجاء من أثر في النفوس ، كان قوم الشاعر يروونه ويحفظونه للحط من شأن المهجو . ولهذا الأثر الخطير الذي كان يتركه الهجاء في المهجو من كسر في الاسم وتحطيم في المنزلة ، فسّر (كولدزيهر) لفظة (قافية) بمعنى (تحطيم القفى) ، أي (تحطيم الجمجمة). وذهب الى ان القافية ، كانت بهذا المعنى في الأصل ، ثم فسرها العلماء بعد ذلك تفسيرهم المألوف ، وهو تفسير مخالف للأصل[4] .

قال أهل الأخبار : « وليس في العرب قبيلة إلا وقد نيل منها ، وهجيت ،

---

١ تاج العروس (٣٠٨/١) ، (شبب) .
٢ تاج العروس (١٦/١) ، (نسب) .
٣ تاج العروس (٤٨٣/١) ، (نسب) .
٤ Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 9.

وعيرت ، فحطّ الشعر بعضاً منهم بموافقة الحقيقة ، ومضى صفحاً عن الآخرين لما لم يوافق الحقيقة ، ولا صادف موضع الرمية .

فمن الذين لم يُحك فيهم هجاء إلا قليلاً على كثرة ما قيل فيهم: تميم بن مرة، وبكر بن وائل ، وأسد بن خزيمة ، ونظراؤهم من قبائل اليمن .

ومن الذين شُقوا بالهجاء ، ومزقوا كل ممزق — على تقدمهم في الشجاعة والفضل — أحياء من قيس : (نحو غنى وباهلة) ، (ونحو محارب بن خصفة ابن قيس عيلان ، وجسر بن محارب) ، (ومن ولد طابخة بن الياس بن مضر: تيم وعُكل ابنا عبد مناة بن أد) ، (وعدي بن عبد مناة) ، كانوا قطيناً لحاجب بن زرارة،وأراد أن يستملكهم ملك رق بسجل من قبل المنذر، والحبطات». ولم تمدح قبيلة قط في الجاهلية من قريش كما مدحت مخزوم[1] .

وقد تعرض (الجاحظ) لهجاء الشعراء للأشراف ، فقال : « وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال ، حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرت به عشيرته ، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه . ومن طلب عيباً وجده . فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره ، وجد من يغلظ فيه ويحمله عنه . ولذلك هُجِي حصن بن حذيفة ، وهُجي زرارة بن عدس ، وهجي عبدالله بن جدعان ، وهجي حاجب بن زرارة»[2]. فالحسد في نظر (الجاحظ) من جملة عوامل الهجاء . فالنباهة والشرف والظهور في المجتمع من العوامل التي تكون سبباً دافعاً إلى الهجاء ، بسبب داء الحسد ، ولهذا أمن الخامل من هجاء الهجائين ، وسلم من أن يضرب به المثل في قلة ونذالة وبخل ، إذ ليس فيه ما يحمل الشاعر على النيل منه وعلى ما يغيظه ، ولا يحسده حاسد ، حتى يدفع الشاعر على التحرش به وهجائه . وقد هجيت قبائل بأقذع أنواع الهجاء مع ما لها من شرف وفضل ومكانة وخير عميم ، بسبب حسد الحساد ، وغيظ القبائل الضعيفة ، أو التي لا خير فيها منها ، فتحرش شعراؤها بها ، ودفع الحسد الهجائين إلى هجائها ، على كونهم من غمار الناس ومن الخاملين في الحسب والنسب[3] .

---

١ العمدة (١٨٢/٢ وما بعدها) .
٢ الحيوان (٩٣/٢) .
٣ الحيوان (٣٥٧/١ وما بعدها) .

وقد هجيت الملوك ، فتناولتهم ألسنة الهجائين ، ولا سيما أولئك الملوك الذين رزقوا طبعاً حاداً ، وعصباً حساساً متوتراً ، مثل عمرو بن هند ، والنعمان بن المنذر الذي نال أكبر نصيب من الهجاء . ومما قيل فيه :

ملكٌ يلاعب أمه وقطينَهُ رخو المفاصل أيره كالمرود

وقد نسب قوله الى (النابغة) الذبياني ، ويمكن أن يكون قد صنعه غيره ودسه عليه حسداً له ، للإيقاع به عند الملك . ونسب اليه قوله :

قبح الله ثم ثنى بلعن وارث الصائغ الجبانَ الجهولا
من يضر الأدنى ويعجز عن ضر الأقاصي ومن يخون الخليلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدوّ فتيلا[1]

وقيل ان قائل تلك الأبيات هو : (عبد قيس بن خفاف) التميمي ، قاله على لسانه للايقاع بينه وبين النعمان[2] .

وللهجاء عند الجاهليين وقع شديد . ولقد بكى قوم من الأشراف من شدة هول الهجاء عليهم[3] . ولما أمعنت قريش في هجاء الرسول والمسلمين ، وجندت الشعراء للنيل من الاسلام ، أعد الرسول (حسان بن ثابت) ، و (كعب بن مالك) ، و (عبدالله بن رواحة) للرد عليهم ، وقد قال الرسول لحسان : « اهجهم – أو هاجهم – وجبريل معك »[4] ، وقال : « إن قوله فيهم أشد عليهم من وقع النبل »[5] . « وكان حسان وكعب بن مالك يعارضانهم بمثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر ويذكران مثالبهم . وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر وعبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، فكان قوله يومئذ أهون القول عليهم . وكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم . فلما أسلموا وفقهوا ، كان أشد القول عليهم ،

---

١ الشعر والشعراء (١/٩٩) ، (لعن الله ثم ثنى بلعن) ، الحيوان (٤/٣٧٩) ، الاغاني (٩/١٥٨) .
٢ الشعر والشعراء (١/٩٩) ، الحيوان (٤/٣٧٩) .
٣ الحيوان (١/٣٥٧ وما بعدها) .
٤ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) .
٥ الاستيعاب (١/٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .

قول عبدالله بن رواحة »[1] . وورد ان الرسول قال لحسان : « هيج الغطاريف على بني عبد مناف ، والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام ، في غبش الظلام »[2]. وفي هذا المعنى ورد في شعر (عبد قيس بن خفاف) البرجمي :

فأصبحتُ أعددت للنائبا ت عرضاً بريئاً وعضباً صقيلا
ووقع لسان كحد السنان ورمحاً طويل القناة عسولا[3]

وفي هذا المعنى ورد أيضاً قول طرفة :

بحسام سيفك أو لسانك والكلمُ الأصيل كأرغب الكلِم[4]

وقول امرىء القيس الكندي :

ولو عن نثاً غيره جاءني وجُرْح اللسان كجرح اليد[5]

وقول طرفة :

رأيت القوافي يتلجن موالجاً تضايقُ عنها أن تولجها الإبر[6]

وعكس (الهجاء) هو شعر الفخر والمدح ، وله أهمية عند العرب لا تقل عن أهمية الهجاء ، لما له من مكانة في المجتمع . وقد لعب دوراً خطيراً في السياسة كذلك ، ولا زال يلعب دوره هذا فيها الى هذا اليوم . ولا يعني هذا المدح أن الشاعر كان صادق اللهجة في مدحه ، مخلصاً في مدحه لمن مدحه ، انما المدح هو في مقابل إحسان أو طلب إحسان في الغالب ، فإذا قطع المحسن إحسانه عن الشاعر أو اذا حرض انسان الشاعر على من مدحه وأعطاه ليهجوه ، هجاه ، وقد يهجوه بأقذع هجاء ، ومن هنا كان الأشراف وأصحاب التسّر ، يبتعدون عن الشعراء، لا يريدون مدحهم ولا حمدهم ، لأنهم لا يعلمون متى سينقلب الشاعر عليهم ،

---

١ الاستيعاب (١/٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٧٣) .
٣ المفضليات (٣٨٦) .
٤ الحيوان (١/١٥٦) ، ديوان طرفة (٦١) .
٥ الحيوان (١/١٥٦) .
٦ الحيوان (١/١٥٨) .

فيهجوهم بأشد هجاء ، أو ينهش أعراضهم ، لتقصيرهم في اعطائه المال . ومن هنا نعتوا بالتلون وبالكذب : « والشعراء يتّبعهم الغاوون . ألم ترَ انهم في كل وادٍ يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون »[1] .

وسبب هذا التلون عامل اقتصادي ، فقد كان الشاعر مثل غيره من الناس يتعيش بشعره ، يبذله لمن يعطيه ، ويحجبه عمن لا يعطيه ، وإذا مدح أمل الإثابة ، ليعيش عليها ، وإن حرم منها ، أو وجد أن شاعراً آخر نال من ممدوحه أكثر مما أعطاه غضب ، وقلب مدحه ذماً ، فيشتمه وينتقص من شأنه وان كان قد أغرق بالأمس في مدحه له . وقد يثيره حساد الممدوح ، بأن يعطوه أكثر مما أعطاه ممدوحه ، فيغريه المال ، ولا يجد عندئذ رادعاً أخلاقياً يمنعه من التهجم عليه ومن هجائه بأقبح هجاء ، فالموضوع موضوع مال ، ولو كان للشعراء ثراء وغنى أو سوق رائجة تباع فيها دواوينهم ، لما ركب الشاعر ولا شك هذا المركب ، ولما تزلف وتقرّب ، ولكان حاله حال الشعراء الغربيين . يعتمدون على الرأي والفكرة والإبداع والفن ، فيشتري الناس شعرهم للاستمتاع به ، فما يهمهم لذلك مدح هذا أو ذاك .

ويرى (بروكلمن) أن « كثيراً ما كان الشاعر يتجه بفنه أيضاً الى مدح بطل أو أمير من قبيلته ، ولكنه لم يكن يفكر قديماً في الجائزة الرنانة ، التي نزلت بمكانة شعراء المديح المحترفين في بعض الأحيان – منذ عهد النبي – الى درك المتسولين بالغناء »[2] . وهو يجاري بذلك أهل الأخبار القائلين بأن الشعراء المتقدمين لم يكونوا يمدحون طمعاً في مغنم ومال ، وإنما كانوا يمدحون عن رأي، وان أول من تسول بشعره الأعشى ، فحط بعمله هذا من قدر الشعراء ، ثم أفرط الخطيئة في ذلك ، حتى أهان نفسه ، فصيروا المتقدمين من الشعراء ملائكة، ورموا الأعشى بخطيئة التسول ، بأن جعلوه رأس المتسولين ، وما الأعشى إلاّ بشر ، وما المتقدمين عليه إلا بشر مثله ، فإن تسول الأعشى ، فمن يثبت أنه كان أول من تسول ، وإن خطيئة التسول لم تكن معروفة بين المتقدمين عليه .

والرثاء Elegy من سنن الجاهليين القديمة ، يقال رثيت الميت رثيـاً ورثاء

---

١ سورة الشعراء ، رقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .
٢ بروكلمن (١/٥٧) .

ورثاية ، ومرثاة ، ومرثية ، بمعنى بكيته وعددت محاسنه ، أو نظمت فيه شعراً، والمراد به المدح[1] . وهو من أبواب الشعر المهمة كذلك ، لما كان لرثاء الميت من أهمية كبيرة عند أهل الجاهلية . وقد كانوا يوصون أهلهم بأن يقيموا (النياحة) عليهم ، ليقال فيها ما يقال من الشعر في حقهم[2] . ونجد في الشعر الجاهلي قصائد وأشعاراً في الرثاء . وقد نبغت النساء الراثيات في هذا الباب، واستنبطن فيه أساليب بديعة لم يتنبه لها الفحول لما طبعن عليه من رقة الطباع وشدة الجزع في المصائب، وصدق الحس ، ورقة العاطفة[3] . وقد جمع الأب (لويس شيخو) مراثي الشاعرات الجاهليات ، في كتاب ، جمع فيه مراثي احدى وستين شاعرة عدا شعر الخنساء . والخنساء ، هي من أشهر شاعرات الرثاء، اشتهرت برثاء أخويها: صخر ومعاوية[4] .

وشعر الرثاء وإن كان من واجب النساء النائحات في الغالب ، وقد بلغ الغاية في شعر (الخنساء)،إلا أنه كان من واجب الشعراء كذلك . فلكثير من الشعراء رثاء لآبائهم ولاخوانهم ولأقاربهم ولأصدقائهم ولذوي الفضل عليهم ، وقد ترك (أوس بن حجر) جملة مراثي رائعة،وترك غيره قصائد في رثاء الملوك وسادات القبائل والآباء والاخوة ، ويلاحظ أن رثاء الشعراء إنما كان في رثاء الأموات الرجال في الغالب ، وذلك نابع عن طبيعة المجتمع ، التي تمجد الرجل، ولا ترى ذكر النساء الحرائر إلا في المدح والفخر .

أما شعر التوجع والتألم « Elegies » و « Threnody » الذي نجده في كتاب (المراثي) « Lamentations Book » ، المنظوم في الكارثة التي أنزلها (بختنصر) في اليهود عام (٥٨٦) قبل الميلاد ، فلا نجد مثله في الشعر الجاهلي ؛ إنما نجد أبياتاً في النكبات التي كانت تحلّ بالقبائل بسبب الغارات والغزوات ، وأروعه ما جاء في رثاء قتلى بدر . وهو ذو طابع شخصي في أكثر الأحيان ، إذ يدور حول انفعال الشاعر وتأثره لمصرع شخص كان يحبّه أو يقدره . ويدخل ما وضع

---

١ تاج العروس (١٠/١٤٤) ، (رثى) .
٢ Goldziher, History of classical Arabic Literature, p. 9.
٣ لويس شيخو ، رياض الادب في مراثي شواعر العرب (ص ١) ، (بيروت ١٨٩٧ م) .
٤ كارلو نالينو (٨١) .

من شعر حول تخرب سدّ مأرب ، وأمثال ذلك في هذا الباب بالطبع .

وقد رثى بعض الشعراء أنفسهم حين شعروا بدنو أجلهم ، ونجـد في كتب الشعر والأدب شعراً من هذا النوع ، فكأن الشاعر أراد أن يفتتح به رثاء الراثيات والنائحات ، ليكون لهن مقدمة ينسجن عليها شعرهن في رثائه .

وتعدّ (المراثي) من عيون الشعر والتراث الخالد عند الشعوب القديمة ، ولا زال الناس يقيمون للرثاء وزناً كبيراً ، لأنه تخليد وتقدير لشأن الميت. ونجد في الأدب القديم مكانة كبيرة له فيه . وفي التوراة وصف لرثاء الناس لموتاهم . وهو سجع أو رجز يناسب ظروف الميت وحاله ومكانته ، يرنم بأنغام حزينة مؤثرة ، ومنه جاء شعر المراثي . ويلاحظ ان شعر الرثاء في العربية لا يختلف من حيث الوزن عن بقية الشعر ، فهو يقال في كل البحور ، والفرق بينه وبين غيره هو في المعنى ، وفي غلبة التوجع والألم فيه على المعاني الأخرى .

ولم يصل الينا شعر جاهلي طويل ، مؤلف من مئات أو آلاف من الأبيات ، مثل الشعر القصصي الذي نجده عند الشعوب (الآرية) في سرد حكايات الآلهة والأبطال والحروب ونحو ذلك ، ومثل الشعر الغنائي « Lyrique » ، ومثل الشعر التمثيلي « Dramatique » ، الذي يستند على التمثيل والحوار والغناء ، وشعـر الجاهليين شعر قصير في الغالب ، لا تتجاوز القصيدة فيه ، وهي أطول قطعة من الشعر مائة بيت .

أما القصة الشعرية القصيرة ، فنجدها في قصيدة الأعشى التي وصف فيها وفاء السموأل . ونجد في شعر (عدي بن زيد) قصصاً قصيرة عن أحداث تأريخية ، أوردها في شعره على سبيل العظة والاعتبار ، كما نجد في شعر (أمية بن أبي الصلت) قصصاً ، أخذ بعضه من قصص أهل الكتاب ، وأخذ بعض آخر منه من أساطير العرب القديمة . وكل هؤلاء هم ممن نستطيع أن نقول عنهم إنهم من الحضر ، أو من المتأثرين بعقلية أهـل القرى والحضارة . ويمكن عدّ قصة الأعشى عن السموأل من هذا النوع المسمى « Ballad » في الانكليزية . ويرى (بروكلمن) أن « محاولة الأعشى إنشاء شعر القصة La Ballade واختراع أسلوب الملحمة ، في إشادته بوفاء السموأل ، فقد بقيت عملاً فذاً لم ينسج أحد على منواله »[1] .

---

١ بروكلمن (١/٦٢) .

ونجد في شعر للنابغة قصة (زرقاء اليمامة) ، وقصة الحية ، إذ يقول :

تذكر أنّى يجعل الله فرصةً فيصبحَ مال ويقتلَ واترهْ
فلما وقاها الله ضربةَ فأسه وللبر عين لا تغمضُ ناظره
فقالت: معاذ الله أعطيك إنني رأيتك غدّاراً يمينكُ فاجره
أبى لي قبرٌ لا يزال مُقابلي وضربة فأسٍ فوق رأسي فاقره

والقصة : ان بلدة امتنعت على أهلها بسبب حيّة غلبت عليها ، فخرج أخوان يريدانها ، فوثبت على أحدهما فقتلته ، فتمكن لها أخوه في السلاح ، فقالت : هل لك أن تؤمنني فأعطيك كل يوم ديناراً ؟

فأجابها الى ذلك حتى أثرى ، ثم ذكر أخاه ، فقال : كيف يهنؤني العيش بعد أخي ؟ فأخذ فأساً وصار الى جُحرها ، فتمكن لها ، فلما خرجت ضربها على رأسها ، فأثر فيه ولم يمعن ، ثم طلب الدينار حين فاته قتلها ! فقالت : إنه ما دام هذا القبر بفنائي وهذه الضربة برأسي فلست آمنك على نفسي ! وكانت العرب تضرب أمثالاً على ألسنة الهوام[1] .

وللحيّة قصص عند الشعوب القديمة ، وقد صوروها بصور مختلفة، وأشير اليها في التوراة . وقد جعلت رمزاً للحيل والإغراء والشر والغدر[2] ، والأرجح ان واضع القصة التي نظمها شعراً على لسان النابغة ، انما أخذها من أهل الكتاب .

ونجد لـ (عمرو بن آلة بن الخنساء) شعراً حكى فيه قصة (سابور) ، و (الحضر) ، منه :

ألم ينبئك والأنباء تنمي بما لاقت سراة بني العبيد
ومصرع ضيزن وبني أبيه وأحلاس الكتائب من شريد
أتاهم بالفيول مجللات وبالأبطال سابور الجنود
فهدم من أواسي الحضر صخراً كأن ثقاله زبر الحديد[3]

---

١ الشعر والشعراء (١/٩٦) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (١/٤٠٠) .
٣ الروض الانف (١/٥٩) .

obeikandi.com

وقد لعبت قصة فتح (سابور) (شابور) للحضر ، دوراً خطيراً في قصص الجاهليين . فقد وردت في شعر (أبي دواد) ، الذي يقول :

وأرى الموت قد تدلى من الحضر على رب أهله الساطرون
صرعته الأيام من بعد ملك ونعيم وجوهر مكنون[1]

ونجد (عدي بن زيد) العبادي ، يذكر قصة الحضر في شعره كذلك. ذكرها في القصيدة التي تنسب اليه ومطلعها :

أرواح مودع أم بكور فانظر لأي ذاك تصير

ثم يذكر القصة ، ويصف قصر الحضر ، ثم يذكر قصصاً آخر أورده على سبيل العظة والاعتبار ، قالها وهو في سجنه ، للتأثير على النعمان لحمله على العفو عنه[2] .

وذكر (عدي بن زيد) الحضر في شعر آخر ينسب اليه ، منه :

والحضر صابت عليه داهية من فوقه أيد مناكبها
ربية لم توق والدها لحينها إذ أضاع راقبها
إذ غبقته صهباء صافية والخمر وهل يهيم شاربها
فكان حظ العروس إذ جشر الصبح دماء تجري سبائبها
وخرب الحضر واستبيح وقد أحرق في خدرها مشاجبها[3]

وقد ورد في هذه القصيدة :

ما بعد صنعاء كان يعمرها ولاة ملك جزل مواهبها
رفعها من بنى لدى قزع المزن وتندى مسكاً محاربها
محفوفة بالجبال دون عرى الكائد ما ترتقي غواربها
يأنس فيها صوت النهام إذا جاوبها بالعشي قاصبها
ساقت اليه الأسباب جند بني الأحرار فرسانها مواكبها

---

١ الروض الانف (١/٥٦) .
٢ الروض الانف (١/٥٨) .
٣ ابن هشام ، سيرة (١/٥٩) ، (حاشية على الروض) .

وفوزت بالبغـــال توسق بالحتف وتسعى بها توالبهـــا
حتى رآها الأقوال من طرف المنقل مخضرة كتائبهـــا
يومـــاً ينـــادون آل بربر واليكسوم لا يفلحن هاربهـــا
وكان يومـــاً باقي الحديث وزالت أمة ثابت مرتبهـــا
وبـــدل الفيح بالزرافـــة والأيام جون جمّ عجائبهـــا
بعـــد بني تبـــع تخاورة قد اطمأنت بها مرازبهـــا[1]

والأعشى ، ممن أدخل قصة الحضر في شعره أيضاً ، تطرق في شعره الى محاصرة المدينة ، وكيفية عشق (نضيرة بنت الضيزن) لسابور لما أبصرته، فقال:

أقفر الحضر من نضيرة فالمرباع منها فجانب الثرثار[2]

ثم تطرق الى اقامة (شاهبور) (شابور) (سابور) حولين في الحضر ، ثم الى ما لاقته (نضيرة) من جزاء ، بسبب خيانتها لوالدها ، وذلك بقوله :

ألم ترَ للحضر إذ أهلـــه بنعمي وهل خالد من نعم
أقام بـه شاهبور الجنو د حولين تضرب فيه القدم
فلما دعـــا ربه دعـــوة أناب اليـه فلم ينتقم[3]

ونجد قصة (الغار) مسجلة في شعر . ومجمل القصة ان رجلاً من (بني ضبة) كان له في الجاهلية سبعة بنون ، فخرجوا بأكلب لهم يقتنصون ، فأووا الى غار فهوت عليهم صخرة فأتت عليهم جميعاً ، فلـــما استراث أبوهم أخبارهم اقتفى آثارهم حتى أتى الى الغار فانقطع الأثر ، فأيقن بالشر ، فرجع وأنشأ يقول :

أسبعة أطواد وسبعة أبحر أسبعة آساد أسبعة أنجم
رزئتهم في ساعةٍ جرّعتهم كؤوس المنايا تحت صخر مرضم

وتأتي أبيات بعدهم في وصف حزنه ، ثم لم يلبث أن مات كمداً[4] .

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٥٣ وما بعدها) .
٢ الروض الانف (١/٥٦) .
٣ . سيرة ابن هشام (١/٥٩) .
٤ الامالي ، للقالي (١/٦١) .

ويجب ألا ننسى شعر المعارك والحروب ، وهو شعر نستطيع أن نسميه شعر (الحماسة) . فالعادة عند العرب أنهم ينشدون الشعر عند الغزو وفي أثنائه ، وفي المعارك والحروب . فالمقاتل حين يندفع بين المحاربين ليقاتل خصمه ، ينشد شعراً يفتخر فيه بنفسه وبعشيرته وبقبيلته ، ويكون في الغالب من الرجز ، لأنه شعر سهل مطاوع ، يصلح لمثل هذه المواقف ، ونجد في أخبار الأيام وفي الفتوح الإسلامية شعراً وافراً من شعر المعارك من الرجز ومن بحور الشعر الأخرى .

ومن أبواب الشعر عندهم : شعر الوصايا والحكم . فنجد بين الشعر المنسوب الى الجاهليين شعراً فيه وصايا يوصي الشاعر بها ولده وأقاربه أو عشيرته بخلاصة ما حصل عليه ذلك الشاعر في حياته من تجارب . كما نجد بينه حكماً عرف بها بعض الشعراء مثل زهير بن أبي سُلمى ، والأفوه الأودي وآخرون .

وقد تغنى الجاهليون بشعرهم ، فكانوا ينشدونه بنغم خاص، قد يصحب بآلة موسيقية ، وقد يشربون ويغنون ، أو يسمعون مغنياً يغنيهم بشعر . فلما انتهى (خالد بن الوليد) الى (سوى) وأهله من بهراء ، وجد ناساً منهم يشربون خمراً لهم في جفنة قد اجتمعوا عليها ، ومغنيهم يقول :

ألا علّلاني قبل جيش أبي بكر لعلّ منايانا قريب وما ندري[1]

ونجد في الأخبار ان ملوك الحيرة والغساسنة والأثرياء كانوا يستمعون الى الغناء وهو شعر ينشد على نغم ، توقعه قينة على آلة من آلات الموسيقى ، مثل الصنج والبربط ، والدف ، والمزهر ، وآلات أخرى أخذت من الروم والفرس ، وقد سبق أن تحدثت عن وجود قينتين بمكة كانتا لعبدالله بن جدعان ، تغنيان له ، واتخذ غيره من الموسرين والشعراء قياناً ، يغنين لهم الأغاني ، وأكثرهن من الموالي من روم وفرس .

والغناء كلام يجب أن يتماشى مع النغم ، ولهذا ينظم نظماً يتناسب مع الإيقاع. ونجد عند اليونانيين شعراً ينظم للغناء خاصة ، يقال له (الشعر الغنائي) « Lyric » ،

---

١ الطبري (٣/٤١٧) ، فتوح البلدان (١١٨) ، (ذكر شخوص خالد بن الوليد الى الشام وما فتح في طريقه) .

وهو يختلف عن الشعر المألوف الذي لا يمكن أن يتغنى به دائماً لثقله ، وعدم اتساقه مع الإيقاع . ونجد في التوراة شعراً نظم خصيصاً للإنشاد وللتغني به ، وهو يختلف في نظمه عن الشعر المألوف .

ولم يشر أهل الأخبار الى وجود شعر من هذا النوع عند الجاهليين ، وإن ذكروا ان الجاهليين كانوا يتغنون بالشعر ، وكانت قيانهم يتغنين بشعر الشعراء . ومعنى هذا انهم كانوا يغنون ببحور الشعر المألوفة ، لا بشعر غنائي خاص . ونجد في خبر (أُحد) ان (هنداً) قامت في النسوة اللواتي معها ، وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويحرضونهم ، فقالت (هند) فيما تقول:

إن تقبلوا نُعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نُفارق فراق غير وامق

وتقول :

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضرباً بكل بتار[1]

فهذا شعر ، ينسجم التغني به مع الإيقاع على الدفوف ، ووزنه يناسب ذلك النغم ، لكنه ليس من شعر الغناء الخالص ، الذي يتناسب مع الألحان المبنية على ارتفاع وانخفاض الصوت ، وعلى التغيير في النبرات ، وعلى الجرّ والمطّ ، والقصر والجزم ، وما شاكل ذلك من حركات يقتضيها إيقاع اشتراك جملة آلات دفعة مع الشعر الذي يتغنى به في وقت واحد ، وربما اشترك في الغناء جملة مغنّين .

ويذكر أهل الأخبار أن الغناء قديم في الفرس والروم ، ولم يكن للعرب إلا (الحداء) و (النشيد) وكانوا يسمونه (الركبانية) ، « وأول من نقل الغناء العجمي الى العربي من أهل مكة سعيد بن مسجح ، ومن أهل المدينة سائب خاثر ، وأول من صنع الهزج طويس »[2] ، وهو كلام قصد به أن الغناء العربي

---

١ الطبري (٢/٥١٢) .
٢ نهاية الارب (٤/٢٣٩) .

قبل الإسلام لم يكن كثير التنويع ، وإنما كان مقصوراً على طرق معينة ، ثم تطور في الإسلام بدخول الأعاجم فيه ، وباحتكاك العرب بهم . فالشعر الجاهلي إنما كان يتغنى به بتلك الطرق المحدودة . ونحن لا نستطيع البت في هذا الموضوع، لأنه من أخبار أهل الأخبار ، ولكن لا يعقل في نظري أن يقتصر غناء الحضر على هذه الأنغام البدوية ، وبينهم مغنون أعاجم وقيان استوردن من فارس والروم، وكنّ يحسنّ الغناء ، ويتغنّين بالشعر ، فكان لعبدالله بن جدعان قينتان أعجميتان، تغنيان له ولضيوفه ، وكان لغيره قيان ، وقد ورد أن بعضهن كن يغنين بهجاء الرسول. ثم إن ملوك الحيرة كانوا على اتصال بغناء الفرس وغناء بني إرم والنبط، فلا يعقل الا يتأثروا بدروب غناء الأعاجم ، فيدخلوها في غنائهم ، وينوعوا في التغني بالشعر ، والا يبرز بينهم من يضع أشعاراً تنسجم مع ألحان الغناء .

وكان من غناء العرب (النصب) ، وقد عرف به الأعراب ، وهو غناء يشبه الحداء ، إلا أنه أرق منه . وهو العقيرة . يقال : رفع عقيرته إذا غنى النصب[1] . فهو غناء يتغنى به بشعر على طريقة معلومة ، اشتهرت بها العرب ، أهل البوادي .

وقد لعب الجمل دوراً خطيراً في الشعر الجاهلي ، وكيف لا يستأثر بمكانة مهمة في الشعر الجاهلي ، وهو مرافق الأعرابي ، والحيوان الوحيد الذي رضي بمصاحبته ومرافقته في الصحاري الموحشة المتعبة ، ولهذا نال حقه من المدح والثناء عليه ، كما ألهب مشاعر الأعرابي فجعله يصفه في شعره ، وصفاً كاد يحيط بجميع أجزاء جسمه[2] ، وحظيت الخيل بمكان مرموق أيضاً في مملكة الحيوان المذكورة في الشعر ، فالفارس لا يكون فارساً إلا بفرسه ، وكان يقدم فرسه على نفسه وأهله في الطعام ، لأهمية الفرس في حياته ، فلا عجب اذا ما أبدع الشاعر الجاهلي في وصف الفرس ، وأشاد بذكر الخيل في شعره . وحظيت الحيوانات الوحشية مثل المها والظباء ، والحمار الوحشي ، والأسود ، على مكانة في الشعر الجاهلي كذلك، لما لها من صلة بحياة العربي .

يقول (بروكلمن) : « والقصيدة ، المؤلفة على نظام دقيق ، ينبغي استهلالها

---

١ اللسان (١/٧٦١ وما بعدها) ، (نصب) .
٢ بروكلمن (١/٥٦) .

بالنسيب ، والحنين الى الحبيبة النائية ، ذلك الحنين الذي يعتري الشاعر عند رؤية أطلالها الداثرة وهو راكب في القفار . ثم يتحول الشاعر في تخلص نموذجي من موطن لوعته وذكرياته الى وصف مسيره في المفاوز دون انقطاع ، وهو وصف قد يخرج أحياناً الى مجرد تعداد لأسماء ما يجتازه من أماكن . ثم يخلص من ذلك الى وصف راحلته ، فإذا هو عمد في هذا الوصف الى تشبيه راحلته ببعض حيوان الوحش استطرد أحياناً الى وصف هذا الحيوان وصفاً شاملاً . ثم لا يتجه الشاعر الى التعبير عن حقيقة قصده إلا في آخر القصيدة .

هذا المنهج لا بد أن يكون قد رسخ منذ زمن طويل . وقد ذكر امرؤ القيس سلفاً له في الشكوى والبكاء على الأطلال ، يدعى : ابن خذام ، وإن لم يستطع أدباء العصر العباسي تعيين هذا الشاعر . وتبسع المتأخرون هذا المنهج ولم يكادوا يجسرون على تغييره »[1] .

وقد أكثر الشعراء من استعمال بعض الجمل في افتتاح شعرهم ، مثل (بانت سعاد) . ذكر أن (بندر الأصبهاني) كان يحفظ تسعمائة قصيدة أول كل منها (بانت سعاد)[2] .

والشعر الجاهلي ، شعر صلد متين، يميل الى الرصانة والى استعمال اللفظ الرصين، الذي يغلب عليه طابع البداوة ، وشعر هذا طابعه ، لا يمكن أن يتحرر ، وأن يعبر عن المعاني بحرية ، إذ يكون الشاعر مقيداً بقيود الخضوع للعرف وللشكليات التي اصطلح عليها الشعراء والناس ، ولهذا لم يتمكن الشعراء من التطرق الى مختلف المعاني والتصورات الإنسانية ، وصار الطابع الغالب عليه هو الطابع اللغوي، فخشونة الشعر ، وجزالته وغرابته ، من مميزات هذا الشعر ومن محبباته الى النفوس، وكلما كان الشعر غريباً وبألفاظ غريبة ، نال التقدير والاستحسان ، لقد عمل (الأصمعي) قطعة كبيرة من أشعـــار العرب ، لكنها لم تنل الاستحسان ولم يرض عنها العلماء « لقلة غربتها واختصار روايتهـــا »[3] . والشعر الذي ينال التقدير ، هو الشعر الخشن ، الذي روي بألفاظ نجدية ، ولذلك لم يحفل العلماء بشعر عدي بن زيد ،

---

١ بروكلمن (١/٦٠) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٢٩) .
٣ الفهرست (٨٩) .

لأن فيه ليونة[1] ، والعلماء يبحثون عن الشعر الخشن ، الذي على العالم أن يفكر فيه ويعمل رأيه فيه طويلاً ، ويفكر ويغوص فيه حتى يجد معناه .

واشتهر بعض الشعر بشهرة عرف ونعت بها ، مثل قصيدة : (سويد بن أبي كاهل) ، واسمه (عطيف بن حارثة) اليشكري ويقال الوائلي ، ويقال الغطفاني ، التي عرفت بـ (اليتيمة) ، وهي قصيدة عينية . قيل عرفت بذلك لما اشتملت عليه من الأمثال . وهو من الشعراء المخضرمين[2] . وعرفت القصيدة التي نظمها (خداش بن زهير) ، في هشام والوليد ابنا (المغيرة) المخزوميان، وفي (عبدالله بن جدعان) بالمنصفة[3] . وذلك لإنصافه خصومه في شعره . ومن المنصفات قول (المفضل) النُكري :

كأن هزيزنا يوم التقينا هزيز أباءة فيها حريق
وكم من سيد منّا ومنهم بذي الطرفاء منطقه شهيق[4]

لقد مر الشعر بمراحل ، سنة كل شيء في هذه الدنيا . بدأ بدائياً لبداءة أصحابه ، ثم تطور بتطور الناس ، تطور من حيث معانيه وأفكاره ، وتطور من حيث قوالبه وأشكاله ، أي بحوره . واقتضى هذا التطور ومرور الزمن وتغير الانسان ، ظهور أوزان جديدة ، أوجدها الشعراء هروباً من التقليد ، وخروجاً على التقاليد ، وابتداعاً من الشاعرية ، لتقدم لعشاق الشعر لوناً جديداً من ألوان النظم ، يمتاز على المعروف المألوف المتوارث ، بنفس جديد ، وبموسيقية حديثة تناسب الزمان والمكان ، كما هو شأن الشعر عند كل أمة ، فتعددت ألوانه وبحوره، حتى اذا كان الاسلام ضبطت ألوانه في بحور جمعها (علم العروض) المعروف .

أما أسماء أولئك المجددين في الشعر الجاهلي ، فقضية لا يمكن البت بها ، ولا اصدار حكم فيها . فنحن لا نعرف من أمر الشعر الجاهلي إلا هذا الذي يرويه أهل الأخبار عنه ، وهو لا يستند — كما قلنا — الى سند جاهلي مدون، ولا الى كتاب من كتب أهل الجاهلية ولا الى ديوان من دواوينهم ، بل روي رواية وحكى

---

١ الشعر والشعراء (١/١٥٠) ، (دار الثقافة) .
٢ الاغاني (١١/١٦٥) ، الاصابة (٢/١١٧) ، (رقم ٣٧٢١) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .
٤ الاصمعيات (٢٣٣) .

حكاية ، وأقام الاسلاميون على هذا المروي قواعد نظرياتهم في الشعر الجاهلي . ولم يرد في هذا المروي أي شيء عن كيفية ظهور بحور الشعر الجاهلي ، ولا عمن جدد وأوجد هذه البحور . وليس لنا أي أمل في إمكان الحصول في المستقبل على علم جديد عن تطور ذلك الشعر وعن ابتكار رجاله الجاهليين فيه ، ما دام سند علمنا هذا المورد القائم على الرواية القديمة . أما اذا عثر على نصوص مدفونة عربية جاهلية أو أعجمية فيها بحوث عن الكلام المنظوم عند العرب ، فذلك شيء آخر بالطبع . ومثل هذه النصوص هي التي يكون في وسعها وحدها تقديم صورة علمية واضحة عن الشعر الجاهلي .

ومن رأى بعض أهل الأدب ، « أن مُقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربعَ ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ... ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ... لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم ، حلال أو حرام . فإذا استوثق من الاصغاء اليه ، والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل وحرّ الهجير ، وانضاء الراحلة والبعير . فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة،وهزه للسماح ، وفضله على الأشباه ، وصغر في قدره الجزيل .

فالشاعرُ المجيد من سلك هذه الأساليبَ ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل ، فيمل السامعين ، ولم يقطع بالنفوس ظمأ الى المزيد »[1] .

وزعموا ان هذا كان نهج شعراء الجاهلية في نظم شعرهم ، ونهج شعراء صدر الاسلام ، حتى اختلط العرب بالعجم ، وانتقل العرب من حياة الى حياة، وظهر الشعراء الأعاجم الذين لم يتمكنوا من غسل أدمغتهم من المعاني الأعجمية ، ومن التفكير الأعجمي ، فنظموا الشعر بالعربية ، ولكن بمعان أعجمية جديدة ، وجاءوا

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٠ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .

ومن تأثر بالحضارة العربية الجديدة التي ظهرت في البلاد المفتوحة بآراء مستجدة ، وظهر التجديد في الشعر العربي ، وابتعد بذلك عن أسلوب الشعر الجاهلي .

ويتوقف طول الشعر وقصره على (نفس الشاعر) ، أي على الظروف النفسية التي تحيط بالشاعر حين ينظم شعره ، وبالمؤثرات التي أثرت عليه . وقد سئل (أبو عمرو بن العلاء) ، « هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ليسمع منها. قيل : هل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها . ويستحب عندهم الإطالة عند الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب والإصلاح بين القبائل كما فعل زهير والحارث بن حلزة ومن شابههما ، وإلا فالقطع أطير في بعض المواضع والطوال للمواقف المشهورة »[1] .

وقد ذهب (غرونباوم) الى امكانية تقسيم الشعر الجاهلي الى مدارس أدبية متميزة ، جعلها ستة مدارس أو اتجاهات أو مذاهب بتعبير أصح . تضم الشعراء الذين ولدوا ما بين سنة ٤٤٠ و ٥٣٠ م على وجه التقريب . « وليس معنى هذا أنه ليس هنالك شعراء تتجافى طبيعتهم نفسها عن مثل هذا التقسيم وتشذ عنه . فإن الشاعرين الصعلوكين الشهيرين تأبط شراً والشنفرى ، هما المثلان البارزان على مثل هذه المواهب الفردية . ولعل من أمتع الأمور ، ما يتجلى في آثار تلك الفئة من الشعراء ، الذين عاشوا في بلاط الحيرة ، من مظاهر الحضارة الساسانية . فأبو دؤاد الايادي (حوالى ٤٨٠ — ٥٥٠ م) ، والشاعر النصراني عديّ بن زيد (حوالى ٥٤٥ — ٥٨٥ م) ، يتجلى في شعرهما خليط من العقلية البدوية والتفكير الحضري . وطرفة (حوالى ٥٣٥ — ٥٣٨ م) وكذلك الأعشى ، ينقلان الى العراق سياقاً فنياً آخر لمدرسة أخرى ينتمي أعلامها الى قبيلة قيس بن ثعلبة ، من بني بكر بن وائل ، هذا وليس من شك في أن الأعشى هو أكبر مالك لأزمة اللغة بين شعراء الجاهلية ، وان المشاهد البهجة في قصائده تنمّ عن تأثير الشعراء الساسانيين . ثم إن امرأ القيس بن حجر الأمير الكندي (حوالى ٥٠٠ — ٥٤٠م) أشهر شعراء العرب الجاهليين وأبعدهم أثراً، قد كان نظير طرفة ، صاحب احدى القصائد النموذجية المعروفة بالمعلقات . ومعاصره عبيد بن الأبرص يمثل قمة مدرسة أخرى من هذه المدارس .

---

١ العمدة (١/١٢٤) ، بلوغ الارب (٣/٨٣) .

وقبل أن يتجرم القرن السادس ، كانت وحدة اللغة واتساق الاسلوب ، قد قطعا مرحلة واسعة نحو التبلور . وقد تداخلت هذه المدارس عن طريق تجمع المفردات وتوارد الصور الشعرية ، لكن هذا التطور لم يتسع فيشمل جماعات الشعراء التي عاشت الى جانب التيار الرئيسي الذي جرى فيه الشعر العربي . وأهم مدارس هذا العصر المتأخر هي مدرسة الشعراء الهذليين التي برزت آثارها ما بين سنة ٥٥٠ – ٧٠٠ م . وكان من الموضوعات التي اختصت بها هذه الجماعة وصف النحل والعسل . ومثل هذه الأوصاف قد استتبعت ضرباً من الخصوبة في مشاهد الطبيعة لا سيما حيث ألحت بالشاعر الرغبة في جمع العسل البري .

ويشتمل ديوان الهذليين على قصائد كثيرة لأفراد ما نظموا الشعر إلا لماماً . ولا بد ههنا من التأكيد أنه كان الى جانب الشعراء (المحترفين) ، عدد عظيم من الشعراء (الهواة) والذين عمدوا ، بين الفينة والفينة ، الى التعبير بالشعر عن عواطفهم ورغباتهم . وهذا يعلل لنا ما نجده دائماً من أبيات هي من حيث التأريخ وليدة عصر واحد ، لكنها ليست كذلك من حيث درجة الاتقان . فشعر غير المحترفين يغلب أن يكون دون شعر المحترفين بنحو من جيل على أقل تقدير . ولما لم تكن هذه الظواهر قد أخذت حتى الآن بالاعتبار الكافي ، فقد ساعد ذلك على استمرار الاعتقاد بجمود الشعر القديم في سياقه الموحد . وقد بقي في مؤخرة الركب – لكن ثقافياً لا فنياً – الرجز الذي هو أقرب الى الأدب الشعبي . على أن الفاصل ما بين الرجز والقريض – وهو الشعر بالمعنى المعروف – قد ظل حاداً الى عهد متأخر جداً »[1] .

وبعد،فهناك مسائل تتصل بتطور الشعر الجاهلي أرى ان من المستحيل حلها في الوقت الحاضر ، لعدم وجود أدلة علمية مقبولة يمكن أن يركن اليها لحل ما عندنا من عقد مستعصية ، مثل نشأة وتطور الشعر العربي ، وكيف نشأت القصيدة ، وعدد الأوزان والبحور العروضية التي سار عليها الجاهليون في وزن الشعر، والتزام القافية أو عدم التقيد بها في الشعر ، ومتى نشأت القصيدة ، ثم هل كانت لغة الشعر لغة واحدة ، خاصة كما نراها في الشعر الجاهلي المدون ، أم لم تكن، وانما كان الشعراء ينظمون بلهجاتهم من الوجهة اللفظية والنحوية والصرفية ، ولكن علماء

---

١ غرونباوم (١٤٠ وما بعدها) .

الشعر في الاسلام ، هذّبوا تلك الأشعار حتى جعلوها بلهجة واحدة ، هي اللهجة التي وصلت الينا ، واذا كان هذا هو ما جرى ، فما هي نسبة التحوير التي أوقعها العلماء على ذلك الشعر ؟

القديم والحديث :

مشكلة القديم والحديث ، وتصادم الحديث مع القديم ، وتفضيل الناس القديم على الحديث ، من المشاكل التي شغلت الانسان منـذ ظهوره على سطح الأرض حتى اليوم . فالحديث ينافس القديم ، ليحل محله ، والقديم يصر على حقـه في البقاء وفي جدارته في الخلود . والجيل الجديد يريد أخذ القيادة من الجيل القديم ، والجيل القديم لا يريد إعطاءها لأحد إلا اذا كان من جيله ، لأنه أقدر في نظره على إدراك الأمور ،وأكثر تجارباً وخبرة وحكمة من الأحداث جماع الجيل الجديد، مع ان كل قديم هو محدث في زمانه بالاضافة الى من كان قبله ، وكـل جديد سيصير قديماً بالنسبة الى من يأتي بعده ، ولسبب آخر ، هو ان القديم،هو الحاّ المتنفذ ، فلا يهون عليه التنازل عن حقه لمستجد .

وقد شغلت هذه المشكلة أذهان الجاهليين ولا شك ، كما شغلت أذهان الاسلاميين: فشعراء العصر الأموي ، كانوا يرون في شعرهم إبداعاً لم يكن عنـد من سبقهم من المخضرمين والجاهليين ، غير ان الناس في أيامهم ، لم يكونوا يعطون شعرهم من التقدير ما أعطوه للشعـر القـديم ، كانوا يرونه (مولداً) بالاضافة الى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين[1] .

وكان الشعر القديم ، هو الشعر الممتاز المقدم عند علماء الشعر واللغة ، فكان (أبو عمرو بن العلاء) يقول : « لقد أحسن هـذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته » لكنه لم يستشهد به ، ولم يجعل الجيد الممتاز من الشعر المولد في منزلة الشعر القديم ، لسبب واحـد هو قدم الشعر الجاهلي . « قال الأصمعي : جلست اليه ثمـاني حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي ، وسئل عن المولدين ، فقال : ما كان من حَسَن فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم،

---

١ العمدة (١/٩٠) .

ليس النمط واحداً ، ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح ، وقطعة نطع . هـذا مذهب أبي عمرو وأصحابه : الأصمعي ، وابن الأعرابي ، أعني أن كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ، ويقدم مَنْ قبلهم ، وليس ذلك الشيء إلا لحاجتهم الى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ، ثم صارت لجاجة »[1].

وقد رجّع (الجـاحظ) سبب هذا الركض وراء الشعر الجاهلي الى لجاجة علماء اللغة في البحث عن كل شعر يستفاد منه في الشواهد ، إذ يقـول : « ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلاّ كل شعر فيه الشاهد والمثل »[2] . ويقول : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي ، فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، (الألفاظ والمعاني العربية) ، فسألت الأخفش ، فلم يعرف إلا إعرابه ، فسألت أبا عبيدة فرأيته لا ينفذ إلا فيما اتصل بالأخبار ؛ ولم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب ، كالحسن بن وهب وغيره »[3] .

لقد كان القدم ، هو المقياس الأول في تقدير الشعر في ذلك الحين . فالشعر القديم محبوب مطلوب ، مقـدم على الحديث ، مهـما كان في الشعر الحديث من إبداع في المعنى وفي القالب . قال عبدالله التميمي : « كنا عند ابن الأعرابي ، فأنشده رجل شعراً لأبي نواس أحسن فيه فسكت . فقال له الرجـل : أما هذا من أحسن الشعر ؟ قال : فقال : بلى ، ولكن القديم أحب الي »[4] .

وقد بلغ من تعظيم بعضهم للقديم ، انهم كانوا يرون المعاني على مقادير أصحابها من الشعراء ، فالمعنى الذي يكون لامرىء القيس يكون كامرىء القيس في اعتباره وإجلاله وتحاميه أن يتلقى بالرد والمواجهة ، ولذا فشا الغلط بينهم في تفسير الشعر وأخذ منه التصحيف كل مأخذ[5] .

فالقدم وحاجة العلماء الى الشعر القديم للاستشهاد به ، والبحث عن الغريب ، كانت كلها من العوامل التي أعطت للشعر القديم منزلة لم ينلها شعر المعاصرين ،

---

١ العمدة (١/٩٠ وما بعدها) ، الخزانة (١/٣ وما بعدها) .
٢ البيان (٤/٢٤) .
٣ الرافعي (١/٤٢١) .
٤ الموشح ، للمرزباني (٣٨٤) .
٥ الرافعي (١/٤٢٠) .

فأغاظ ذلك الشعراء المحدثين ، وجعلهم يحنقون على علماء اللغة ، ويسخرون منهم ومن عروضهم ونحوهم ، ولم يخفف من غلواء هؤلاء العلماء إلا تغير الزمن، وبروز الأدباء الذين نظروا الى الأدب نظرة أخرى ، نظرة تقدر (الجيد) من الشعر من غير نظر الى زمانه أو قائله .

ولابن قتيبة رأي في الشعر يخالف رأي (أبي عمرو بن العلاء) وأصحابه ، رأيه في قيمة الشعر رأي الجاحظ الذي ذكرته ، وقد عرضه بقوله : « رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا انه قيل في زمانه ، أو انه رأى قائله .

ولم يقصر الله العلمَ والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجية في أوله » .

وقال : « ولم أسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيلَ من قلّد ، أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين. وأعطيت كلاً حظه ، ووفرت عليه حقه »[1] .

قال خلف الأحمر : قال لي شيخ من أهل الكوفة : أما عجبتَ من الشاعر قال :

أنبتَ قيصوماً وجُثجاثا

فاحتُمِلَ له ، وقلت أنا :

أنبتَ إجاصاً وتفاحا

فلم يُحتمل لي ؟ »[2] .

ومن شدة عجب الناس بالشعر الجاهلي انهم جعلوه انموذجاً لشعرهم ودليلاً لهم

---

١ الشعر والشعراء (١/١٠ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٢) .

وهادياً في أصول نظم الشعر ، من محافظة على مظهر القصيدة وعلى (عمود الشعر). وجعلوا الشكل الخارجي ، الذي رسم للقصيدة من ذكر الديار والدمن والآثار الى آخر ما قالوه عن ترتيب المراحل التي يجب أن تمر بها القصيدة ، ثم عمود الشعر مقياسين ، قاسوا بموجبها الشعر الجيد من الشعر الرديء ، وميزوا بينها بهذيـــن المقياسين . « فالشاعر المجيد مَن سلك هذه الأساليب ، وعدّل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطـل فيملّ السامعين ، ولم يقطـــع وبالنفوس ظمأ الى المزيد »[1] .

وكان (الجاحظ) وهو من شيوخ الأدباء ، يرى مذهب الأديب في تقدير الشعر وتثمينه ، يرى أن الشعر بمواضع الحسن منه ، وبالمعاني الجليلة التي فيه ، وعلى الألفاظ العذبة التي تشتمله ، وفي ذلك يقول: « وقد أدركت رواة المسجدين والمربدين ؛ ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعـار المنصفة ــ فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الأحاديث والقصائد والفقر والتف من كل شيء ، ولقد شهدتهم وما هم عـــلى شيء أحرص منهم على نسيب عباس بن الأحنف ، فما هو إلاّ أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهدهم في نسيب العباس بقـدر رغبتهم في نسيب الأعراب ، ثم رأيتهم منذ سنيات وما يروى عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر أو فتياني متغزل .

وقد جلست الى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نُجيم وأبي مـــالك عمرو بن كركرة مع من جالست مـــن رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد الى شعر في النسيب فأنشده ، وكان خلف يجمع ذلك كله .

ولم أرَ غاية النحويين إلاّ كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتـــاج الى الاستخراج ، ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيـــه الشاهد والمثل ، ورأيت عامتهم ــ فقد طالت مشاهداتي لهم ــ لا يقفون على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمـــة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك

---

١ الشعر والشعراء (١/٢١) .

الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي ان صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت الى حسان المعاني . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكـلام في رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعر أظهر ؛ ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر ، وربما خُيل إليّ أن أبنـاء أولئك الشعراء لا يستطيعون أن يقولوا شعراً جيداً ، لمكان إغراقهم في أولئك الآباء ، ولولا أن أكون عيّاباً ثم للعلماء خاصة، لصورت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعتُ من أبي عبيدة ، ومن هو أبعدُ في وهمك من أبي عبيدة »[1] .

وكانت نظرة المبالغة هذه في تقدير الشعر القديم من جملة العوامل التي حملت جهابذة العلماء الخبراء بأساليب الشعر الجاهلي المتقنين له على وضع الشعر على ألسنة الجاهليين وعلى اذاعته ونشره بين الناس . فقد وجدوا ان سوقه رائجـة ، وان ما يقدمونه منه لطلابه يقدر تقديراً عظيماً ، وان ما ينظمونه هم وينشرونه باسمهم لا ينال مثل ذلك التقدير . وقد يحفل به . وان بعض خلفاء بني أمية كان لهم عشق خاص بشعر الجاهلية ، وانهم كانوا يبحثون عنه ، واذا سمعوا بوجود راوية عرف بحفظه ذلك الشعـر ، أرسلوا اليه ، ليتحفهم بمـا عنده ، ثم يجزلون له العطاء ، على حين كانوا لا يعطون على الشعر الـذي ينظمونه أو ينظمه الشعراء الأحياء إلا قليلاً ، وإلا اذا كان مدحـاً لهم وتزلفاً اليهم . فدفعهم حرصهم المادي هذا على صنع الشعر وإسناده الى الشعراء الجاهليين . وهم لو نسبوه اليهم لصار فخراً لهم ، يثمنه لهم من يجيء بعدهم ، ولكنهم ما كانوا ليحصلوا عليه شيئاً مغرياً ، ففضلوا المادة على الشهرة التي تأتي اليهم بعد الموت .

وقد اتخذ بعض علماء الشعر ورجال الأدب موقفاً وسطاً بـين المحدثين ، من الشعراء الذين قيل لشعرهم : المولد، وبين الشعراء المتقدمين ، فقال (ابن رشيق) : « ليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقاً سفسافاً ، ولا بارداً غثاً ، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون حُوشياً خشناً ، ولا أعرابياً جافاً ، ولكن حال بين حالين .

---

١ البيان والتبيين (٤/٢٣ وما بعدها) ، الرافعي (١/٤٢٣ وما بعدها) .

ولم يتقـــدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى إلا بحلاوة الكلام وطلاوته ، مع البعد من السخف والركاكة ، على أنهم لو أغربوا لكان ذلك محمولاً عنهم ، إذ هو طبع من طباعهم ، فالمولد المحدث — على هذا — إذا صح كان لصاحبه الفضل البين بحسن الاتباع ، ومعرفة الصواب ، مع أنه أرق حَوْكاً ، وأحسن ديباجة [1] .

---

١ العمدة (١/٩٣) .

obeikandl.com

الفصل الثامن والاربعون بعد المئة

القريض والرجز والقصيد

ويقال للشعر : القريض وهو الاسم كالقصيد ، والقرض : قول الشعر خاصة، والتقريض صناعته . وقد فرّق (الأغلب العجلي) بين الرجز والقريض بقوله :

أرجزاً تريد أم قريضا ؟ كليهما أجِدُ مستريضا [1]

وقد ورد أن أصحاب رسول الله كانوا يتقارضون ، أي يقولون القريض وينشدونه . وورد أن (المنذر) ملك الحيرة حين أراد قتل (عبيد بن الأبرص) قال له : أنشدني من قولك ، فقال عبيد : حال الجريض دون القريض، فذهب قوله مثلاً [2] . و « قال النحاس : القريض عند أهل اللغة العربية الشعر الذي ليس برجز » [3] .

ويلاحظ ان العرب وإن قالوا : « نظمتُ الشعر ونظمته » ، وقصدوا

---

١ اللسان (٢١٨/٧ وما بعدها ،
أرجزا تريد أم قصيدا لقد طلبت هينا موجودا
الأغاني (٩٧/١٤) ، تاج العروس (٧٥/٥) ، (قرض) .

٢ اللسان (٢١٨/٧ وما بعدها) ، (قرض) .

٣ العمدة (١٨٤/١) .

بـ (النظم) الشعر ، وعرّفوا الشعر بأنه « منظوم الكلام »[1] ، غير انهم كانوا يقولون أيضاً : « قال شعراً » ، و « وهو يقول الشعر » ، وفي القرآن : « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون »[2] ، و « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل وادٍ يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون »[3] . ويقولون : قول شاعر .

والشعر في تعريف علمائه : « منظوم القول،غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية »، وهو « الكلام المقفى الموزون قصداً »[4] ، ومن صيروا الكلام نوعين : كلام منظوم ، وكلام منثور . والفرق بينهما هو في وجود الوزن والقافية في الشعر ، وفي عدم وجودهما في الكلام المنثور . وتوجد هذه النظرة عند (أفلاطون) ، و (فيثاغورس) ، وهي تختلف بعض الاختلاف عن رأي (ارسطو) في الشعر[5].

« وزعم الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً أو قطعاً ، وأنه إنما قُصّد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصّده مهلهل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجيء الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة . ذكر ذلك الجمحي وغيره . وأول من طول الرجز وجعله كالقصيد الأغلب العجلي شيئاً يسيراً ، وكان على عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ثم أتى العجّاج فافتنّ فيه فالأغلب العجلي والعجاج في الرجز كامرىء القيس ومهلهل في القصيد »[6] .

والقصيد من الشعر ما تمّ شطر أبياته ، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه . قال (ابن جني) : « سمي قصيداً لأنه قصد واعتمد وإن كان ما قصر منه واضطرب بناؤه نحو الرمل والرجز شعراً مراداً مقصوداً . وذلك ان ما تمّ من الشعر وتوفر آثر عندهم وأشدّ تقدماً في أنفسهم مما قصر واختل ، فسمّوا ما طال ووفر قصيداً ، أي مراداً مقصوداً ، وإن كان الرمل والرجز أيضاً مرادين مقصودين،

---

١ اللسان (٥٧٨/٠) .
٢ الحاقة ، الآية ٤١ .
٣ الشعراء ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .
٤ اللسان (٤١٠/٤) ، (شعر) ، الصاحبي (٢٧٣) ، ارشاد الساري (٨٨/٩) .
٥ Poetics, C. I, (1447A), Borinski, Die Antike in Poetik und Kunstheorie, I, 43.
٦ بلوغ الأرب (٨٣/٣) ، العمدة (٨٩/١ وما بعدها) ، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .

والجمع قصائد »[1] . وذكر علماء الشعر : « سمي الشعر التام قصيداً ، لأن قائله جعله من باله قصداً ولم يحتسه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روّى فيه خاطره واجتهد في تجويده ، ولم يقتضبه اقتضاباً ، فهو فعل من القصد». « وقالوا شعر قصيد اذا نقح وجوّد وهذب »[2] .

جاء في قول شاعر :

قد وردت مثل اليماني الهزهاز تدفع عن أعناقها بالاعجاز
أعيت على مقصدنا والرجّاز

يقال : أقصد الشاعر وأرمل وأهزج وأرجز ، من القصيد والرمل والهزج والرجز[3] .

والرجز عند العرب كل ما كان على ثلاثة أجزاء ، وهو الذي يترنمون به في عملهم وسَوقهم ويَحْدون به . هذا هو تعريفه عند بعض العلماء . وعَرّفه بعضهم: أنه بحر من بحور الشعر معروف ونوع من أنواعه يكون كل مصراع منه مفرداً، وتسمى قصائده أراجيز ، واحدتها أرجوزة ، وهي كهيئة السجع إلا أنه في وزن الشعر ، ويسمى قائله راجزاً كما يسمى قائل بحور الشعر شاعراً وعرفه آخرون أنه شعر ابتداء أجزائه سببان ثم وتد،وهو وزن يسهل في السمع ويقع في النفس[4]. وذكر أن كل شعر تركب تركيب الرجز سُمي رجزاً[5] . والرجز في الوقع سجع موزون . ونجد شبهاً في التوراة ، حيث ورد على ألسنة الحكماء العبرانيين في سفر الأمثال[6] وعلى لسان بلعام الحكيم[7] ، الذي جعله بعض العلماء لقمان الحكيم المذكور في القرآن .

---

١ تاج العروس (٢/٤٦٧) .
٢ المصدر نفسه (٢/٤٦٨) .
٣ تاج العروس (٢/٤٦٦) .
٤ اللسان (٥/٣٥٠ وما بعدها) ، (رجز) ، البيان والتبيين (٢/١٨٤) ، (١٣١٣)، العمدة (١/١٢١ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تأريخ الآداب العربية (١٨٦) .
٥ اللسان (٥/٣٥١) .
٦ الامثال ، الاصحاح ٢١ ، الآية ٢٧ وما بعدها .
٧ العدد ، الاصحاح ٢٢ ، الآية ٥ وما بعدها .

وذكر بعض العلماء ان الرجز انما سمي رجزاً لأنه تتوالى فيه في أوله حركة وسكون ثم حركة وسكون الى أن تنتهي أجزاؤه ، يشبه بالرجز في رجل الناقة ورعدتها ، وهو أن تتحرك وتسكن ثم تتحرك وتسكن[1] ، وقيل سمي بذلك لتقارب أجزائه واضطرابها وقلة حروفه ، وقيل لأنه صدور بلا أعجاز. وقيل الرجز ضرب من الشعر معروف وزنه مستفعلن ست مرات ، فابتداء أجزائه سببان ثم وتد ، ولذلك جاز أن يقع فيه المشطور وهو الذي ذهب شطره والمنهوك ، وهو الذي قد ذهب منه أربعة أجزاء وبقي جزءان[2] . وذهب بعض العلماء الى ان الرجز ثلاثة أنواع غير المشطور ، والمنهوك ، والمقطع[3] .

وهو تام ومختصر . والمختصر ، أنواع : المجزوء والمشطور والمنهوك . وذُكر ان الذي جرى على لسان الرسول من الرجز ضربان : المنهوك والمشطور[4] .

والأرجوزة القصيدة من الرجز ، وهي كهيأة السجع إلا انه في وزن الشعر ، والجمع أراجيز . ويسمى قائله راجزاً ورجّازاً ، ورجازة ، ومرتجزاً[5] . وقد فرّق علماء الشعر بين الشاعر والراجز ، فأطلقوا لفظة (الشاعر) على من ينظم الشعر ، أي (القصيد) ، وأطلقوا كلمة (الراجز) على من يرتجز الرجز . فنجدهم يقولون : الأغلب الراجز ، والعجاج الراجز ، وأبو الزحف الراجز ودكين الراجز وغيرهم[6] .

وقد اختلف العلماء في طبيعة الرجز ، فمنهم من جعله شعراً صحيحاً ، وضرباً من الشعر ، معروف وزنه ، ومنهم من جعله صنفاً من أصناف الكلام قائماً بنفسه ليس بشعر ، ولا بسجع ، وإنما مجازه مجاز الشعر . ونسب الى (الخليل) قوله : الرجز شعر صحيح في رواية ، وقوله : إنه ليس بشعر ، وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث في رواية أخرى[7] . ومردّ اختلافهم فيه هو ما ورد على لسان الرسول من الرجز المنهوك والمشطور ، وما ورد في القرآن الكريم من قوله : « وما علمناه

---

١ اللسان (٥/٣٥١) ، (رجز) .
٢ تاج العروس (٤/٣٦) ، (رجز) .
٣ العمدة (١/١٨٢) .
٤ اللسان (٥/٣٥١) .
٥ تاج العروس (٤/٣٧) ، (رجز) .
٦ الشعر والشعراء (٢/٤٩٣ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥٧٨) .
٧ تاج العروس (٤/٣٦) ، (رجز) ، اللسان (٥/٣٥٠) ، (رجز) .

الشعر وما ينبغي له »[1] ، و « انه لقول رسول كريم . وما هو بقـول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »[2] . وما ورد في كتب الحديث والأخبار من أن الرسول لم يكن ينشد الشعر ولا يقوله وينظمه ، لأنه لم يكن شاعراً وما كان له أن يقوله ، وأنه إذا استشهد بالشعر ، لم يقمه على وزنه، وإنما كان ينشد الصدر أو العجز ، ثم يجيء بالنصف الثاني على غير تأليف الشعر، لأن نصف البيت لا يقال له شعر ولا بيت ، ولو جاز أن يقـال لنصف البيت شعراً لقيل لجزء منه شعر . وقد جرى على لسان النبي : أنا النبي لا كـذب ، أنا ابن عبد المطلب . فلو كان شعراً لم يجر على لسانه[3] . وجاء على لسانه .

هل أنتِ إلا اصبعٌ دميت وفي سبيـل الله مـا لقيت[4]

فالرجز اذن ليس بشعر .

وقد ردّ من يقول إن الرجز شعر على قول من يقول إنه ليس بشعر ، بقوله: « معنى قول الله عزّ وجلّ : وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، أي لم نعلمـه الشعر فيقوله ويتدرب فيه حتى ينشيء منه كتباً ، وليس في انشاده صلى الله عليه وسلم البيت والبيتين لغيره ما يبطل هذا لأن المعنى فيه أنا لم نجعلـه شاعراً »[5] ، مطبوعاً على نظم الشعر وقوله ، ولهذا فلا صلة لموضوع أصل الرجز ، هل هو نوع من الشعر ، أو ليس بنوع منه مع ما جاء من نفي الشعر عن الرسول .

وورد في الحديث ، ان الرسول كان يرتجز برجز (عبدالله بن رواحة الأنصاري) الشاعر النقيب ، وهو ينقل التراب يوم الخندق ويقول :

---

١ سورة يس ، الآية ٦٩ ، تفسير الطبري (١٨/٢٣) ، تفسير الألوسي (٤٣/٢٣) .

٢ الحاقة ، الآية ٤٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٤١/٢٩) ، تفسـير الألوسـي (٥٢/٢٩) .

٣ تاج العروس (٣٦/٤) ، (رجز) ، ارشاد الساري (٨٨/٩) ، اللسان (٥/٣٥٠)، (رجز) .

٤ العمدة (١٨٥/١) .

٥ تاج العروس (٣٦/٤ وما بعدها) ، (رجز) ، اللسان (٥/٣٥٠ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٥٢/١٥ وما بعدها) .

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنـــا ولا صلينا
فأنزلـن سكينـــة علينـــا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنـــة أبينا [1]

ورويت الأبيات بصورة أخرى . فقد روي انه « لما خرج عامر بن الأكوع الى خيبر جعل يرجز بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسوق به الركاب ، وهو يقول :

تا الله لولا الله ما اهتدينا وما تصدقنـــا ولا صلينا
الكافرون قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنـــة أبينـــا
ونحن عن فضلك ما استغنينا فثبت الأقدام إن لاقينـــا
وأنزلن سكينة علينا [2]

وموضوع أصل الرجز اذن ، موضوع ظهر في الاسلام ، لما ورد في الأخبار من ارتجاز الرسول بعض الرجز ، ولما ورد في القرآن الكريم وفي الحديث من نفي قول الشعر ونظمه عنه . فرأى فريق من العلماء إخراج الرجز من الشعر ، لما بينته من أسباب . ورأى فريق آخر ، ان الرجز جزء من الشعر ، وان ارتجاز الرسول الرجز ، لا يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم ، لأن الرسول لم يتدرب عليه ولم يتعلمه ولم ينشأ منه أراجيز ، وانما ارتجز منه قليلاً من غير قصد ولا عمد ، ولا علاقة لذلك بالانكباب على تعلم الشعر والتخصص به . والدليل على ان الرجز نوع من أنواع الشعر ، هو ما يرويه أهل الأخبار أنفسهم من أن قريشاً اجتمعوا الى (الوليد بن المغيرة) وكان ذا سن فيهم ، ليتدبروا أمـــر الناس اذا حضر الموسم ، ولإيجاد جواب موحد لهم في أمر القرآن وفيما يجب قولهم فيه . فلما قالوا له : نقول انه قول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهـــان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول مجنون . قال : ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعـــر كله رجزه وهزجه وقريضه

---

١ ارشاد الساري (١٥٧/٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٦/١ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٧/١) .

ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر »[1] . فالرجز – إن صح هذا الخبر – هو مثل الهزج والقريض والمقبوض والمبسوط صنف من أصناف الشعر ، ولون من ألوانه، ومن هذه الأصناف المذكورة تكون الشعر في نظر الجاهليين .

فالرجز إذن صنف من أصناف الشعر ، وبحر من بحوره ، له وزن وإيقاع ، هكذا كانت نظرة أهل الجاهلية اليه . وهو في الواقع شعر . و « الرجّاز شعراء عند العرب وفي متعارف اللسان »[2] .

« وليس يمتنع الرجز على المقصّد امتناع القصيد على الراجز ، ألا ترى أن كل مقصد يستطيع أن يرجز وان صعب عليه بعض الصعوبة ، وليس كل راجز يستطيع أن يقصّد ، واسم الشاعر وإن عمّ المقصد والراجز فهو بالمقصد أعلق ، وعليه أوقع ، فقيل لهذا شاعر ، ولذلك راجز ، كأنه ليس بشاعر ، كما يقال خطيب أو مرسل أو نحو ذلك »[3] .

ولسهولة الرجز على اللسان لم ينظر اليه نظرة إكبار مثل نظرتهم الى الشعر . هذا (أبو العلاء) المعري ، يجعل جنة الشعراء جنّة سامقة ، لها بيوت عالية ، أما جنة الرجز ، فجنة أبياتها ليس لها سموق أبيات الجنة ، جعل فيها : أغلب بني عجل ، والعجاج ، ورؤبة ، وأبو النجم ، وحميد الأرقط ، وعُذافر بن أوس ، وأبو نخيلة ، ثم يقول : « تبارك العزيز الوهابُ ! لقد صدق الحديث المروي : إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها . وإن الرجز لمن سفساف القريض ، قصرتم أيها النفر فقصر بكم »[4] .

ويعد الرجز من أقدم أنواع الشعر ، ومن أبسطه وأيسره على الإنسان . ثم هو خفيف على النفس ، فيه طرب وتأثير ، وهو مطاوع يؤدي أغراضاً مختلفة ، ويصلح لأن يعبر عن أحاسيس متنوعة ، حتى يكاد أن يكون مطيّة الشعراء ، يركبها كل من له طبع وذوق وحس مرهف ، ومن هنا صار شعر من كان لا يقول الشعر أو لا يحضره إلا في الملمات والأزمات .

---

١ الروض الأنف (١/١٧٣) ، اللسان (٥/٣٥٠) .
٢ العمدة (١/١٨٥) .
٣ العمدة (١/١٨٦) .
٤ رسالة الغفران (٣٧٣ وما بعدها) .

وهو في نظري أقدم من (القصيد) ، لأنه أبسط منه وأسهل على النظم ، فهو يمثل المرحلة الأولى من مراحل الشعر المألوف . وقد تكون سهولته في النظم، هي التي جعلت كبار الشعراء يأنفون من النظم به ، فهو باب يمكن أن يلجه الشعراء الصغار ، وربما يتغلبون به على كبار أهل القصيد ، ولعل سهولته هذه قصرت في عمره ، إذ جعلت الذاكرة تنساه بسرعة ، لسهولته هذه ، كما يسرع نسيان السجع والكلام الاعتيادي من الذاكرة . فضاع بسبب ذلك الرجز الجاهلي ، ولم تبق منه غير بقية قليلة .

واستعمل الرجز في أحوال البديهة والارتجال ، وقد ارتجز في القتال ، وفي الحداء والمفاخرة ، وما جرى هذا المجرى ، واستعمل في الأعمال التي تحتاج الى تنشيط واثارة همم ، لما فيه من ملاءمة لذلك . فلما بنى المسلمون مسجد الرسول بالمدينة ، وكان الرسول يحمل (اللبن) معهم ، كان الصحابة يرتجزون الرجز لإثارة الهمم وللتخفيف من وطأة العمل . قال « أبو عبيدة : انما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، اذا حارب أو شاتم أو فاخر،حتى كان العجاج أول من أطاله وقصّده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ووصف ما فيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد . فكان في الرجاز كامرىء القيس في الشعراء ... وقال غيره : أول من طوّل الرجز الأغلب العجلي ، وهو قديم ، وزعم الجمحي وغيره انه أول من رجز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ، لأنه انما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك »[1] .

ويعد (الأغلب بن جشم بن عمر بن عبيدة بن حارثة العجلي) أول من نحا بالرجز منحى القصيد ، فأسبغه وأطاله . وهو من المخضرمين . وقد قتل بنهاوند سنة (٢١ هـ).. وهو الذي جاء الى (المغيرة بن شعبة) ، فقال له :

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد طلبت هينا موجودا

وكان الخليفة (عمر) — على ما يذكره أهل الأخبار — كتب الى المغيرة وهو

---

١ العمدة (٨٩/١ وما بعدها) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ، الأغاني (١٦٤/١٨) .

على الكوفة أن استنشد من قبلك من الشعراء عما قالوه في الإسلام مكان الشعر ، فكتب بذلك الى (عمر) فكتب اليه أن أنقص من عطاء الأغلب خمسمائة فزدها في عطاء لبيد[1] .

وروي أن (العجـــاج) ، وهو (عبدالله بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كثيف بن عمرو) أبو الشعثاء التميمي ، والد الشاعر (رؤبة) ، هو أول من رفع الرجز وشبهه بالقصيد ، وجعل له أوائل[2] . وهو من شعراء الإسلام، وكان يفد على ملوك بني أمية من أمثال الوليد بن عبد الملك[3]،وسليمان بن عبد الملك[4] .

وهو قليل الورود في شعر الشعراء الجاهليين ، فقلما استعمل (نوابغ الشعراء في زمان الجاهلية) « الرجز ، كأنه ليس أهلاً لمنزلتهم. ففي ديوان امرىء القيس لا نعثر إلا على أربع مقطعات صغيرة منه . أعني اثنتين من المشطور واثنتين من غير المشطور . وأكثر من امرىء القيس ارتجازاً لبيد بن ربيعة من الذين أدركوا الاسلام تنسب اليه خمس عشرة مقطّعة في الرجز المشطور ، تدور عـــلى المفاخرة والحكمـة والمعاتبة والمديح والرثاء ، وتشتمل إحداها وهي أطولها على ستة عشر بيتـاً .

أما دواوين النابغـة الذبيانـي ، وزهـــير بن أبـي سُلمى، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة الفحل ، فلا شيء فيها من الرجز . وعلى كل حال لم يكن الارتجاز في زمان الجاهلية إلا بصفة قطع صغيرة يقولها الناس غالباً في الهجاء أو في الحرب وعند اللقاء . أما في القرن الأول للهجرة ، فأخذ بعض الشعراء من الفحول ينظمون الشعر في ذلك البحر المحتقر فإلى هذا التغير أشار ابن رشيق القيرواني في كتاب العمدة حين قال : قال أبو عبيدة انما كان الشاعر يقول من الرجـــز البيتين والثلاثة ونحو ذلك اذا حارب أو شاتم أو فاخر حتى كان العجاج أول من أطاله وقصّده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركاب عليهـا ووصف ما فيها

---

١ المؤتلـــف والمختلف (٢٢) ، طبقات الشعراء (١٤٨ وما بعدهـــا) ، الأغانـي (١٦٤/١٨ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الأدب العربي (٢٢٥/١) ، الشعر والشعراء (٥١١/٢) ، الاصابة (٧١/١) ، (رقم ٢٢٥) ، الخزانة (٢٣٣/١) ، أسد الغابة (١٠٥/١) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٤٩/١) .

٣ بروكلمن (٢٢٦/١) .

٤ الشعر والشعراء (٤٩٣/٢) .

ويكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيد ، فكان في الرجّاز كامرىء القيس في الشعراء . وقال غيره أول من طوّل الرجز الأغلب العجلي ، وهو قديم . وزعم الجمحي وغيره انه أول من رجز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ، لأنه انما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك .

ولكن لا شكّ في وقوع سهوٍ في آخر كلام ابن رشيق ، لأنه من الواضح أن الجمحي إنما أراد بقوله استعمال بحر الرجز في نظم الشعر مثل القصائد ، فليس من الممكن أن رجلاً عالماً بتأريخ الشعر ودقائقه مثل الجمحي جهل ما هو متداول عند كل العلماء أن الرجز من أقدم فنون الشعر عند عرب الجاهلية . وقول الجمحي صواب تؤيده عدة نصوص منها شهادة العجاج من أشهر شعراء الأراجيز الذي قال مفتخراً :

وإن يَكُن أمسى شبابي قد حسر وفترت مني البواني وفتر
إني أنا الأغلبُ أضحى قد نُشِرْ

يعني أنه أحيا طريقة شعر الأغلب . وهو الأغلب بن جشم العجلي عاش في الجاهلية مدة وأدرك الاسلام وأسلم وله شعر في سجاح لما تزوجت مسيلمة الكذاب »[1] .

و (الهزج) نوع من أعاريض الشعر ، من الأغاني وفيه ترنم[2] . وهو باب معروف من أبواب الشعر عند الجاهليين ، كباب الرجز ، بدليل جعل (الوليد ابن المغيرة) اياه صنفاً من أصناف الشعر.وقد عرف من كان يقول الهزج بـ (الهزاج) و (أهزج) إذا هزج الهزج ، أي قال به . والهزاجون طبقة امتازت عن غيرها بقولها الهزج ، وكانوا يرددونه ترديد الغناء ، ولذلك عدّ من الأغاني ، وقالوا : الهزج صوت مطرب . قيل سمي بذلك تشبيهاً بهزج الصوت ، وقيل لطيبه لأن الهزج من الأغاني[3] . فهي إذن من الشعر الغنائي « Lyric » .

---

١ كارلو ناليو ، تأريخ آداب اللغة العربية (١٨٦ وما بعدها) .
٢ اللسان (٢/٣٩٠ وما بعدها) ، (هزج) .
٣ تاج العروس (٢/١١٦) ، (هزج) .

وقد استعمل العرب الهزج في أناشيد التنشيط للقتال ، وفي المناسبات العامة ، مثل الأفراح ، والتجمعات ، حيث يترنم القوم جماعة بأنغام الهزج ، فالهزج شعر مقرون بغناء وترنيم .

و (الرمل) من الشعر كل شعر مهزول غير مؤتلف البناء . قال بعض العلماء عنه : « وأما الرمل فإن العرب وضعت فيه اللفظة نفسها ، عبارة عندهم عن الشعر الذي وضعه أهل الصناعة ، لم ينقلوه نقلاً علمياً ولا نقلاً تشبيهياً . وبالجملة فإن الرمل كل ما كان غير القصيد من الشعر وغير الرجز »[1] . وقد أخذ علماء العروض اللفظة والمعنى كما سمعوها من العرب ولم يحدثوا عليها أي تغيير . مما يدل على انه كان من الأبواب المميزة المعروفة عند الجاهليين . وذلك مثل الرجز والقصيد[2] ، والمقبوض والمبسوط ، على نحو ما ذكرت قبل قليل .

وأما (القصيد) من الشعر ، فما تم شطر أبياته أو شطر أبنيته ، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه . سمي قصيداً لأنه قصد واعتمد ، وإن كان ما قصر منه واضطرب بناؤه نحو الرمل والرجز شعراً مراداً مقصوداً ، وذلك ان ما تم من الشعر وتوفر آثر عندهم وأشد تقدماً في أنفسهم مما قصر واختل ، فسموا ما طال ووفر قصيداً ، أي مراداً مقصوداً ، وإن كان الرمل والرجز أيضاً مرادين مقصودين[3] . وقيل « القصيد من الشعر المنقح المجوّد المهذب الذي قد أعمل فيه الشاعر فكرته ولم يقتضبه اقتضاباً كالقصيدة »[4] .

والقصيد ، جمع القصيدة ، وقيل : الجمع قصائد وقصيد . سُمي قصيداً لأن قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيد والمعنى المختار ، وقالوا : سمي الشعر التام قصيداً لأن قائله جعله من باله فقصد له قصداً ولم يحتسه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روي فيه خاطره واجتهد في تجويده ولم يقتضبه اقتضاباً[5] . ويقال قصد الشاعر وأقصد ، اذا أطال وواصل عمل القصائد . والذي في العادة أن يُسمى ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر قطعة ، فأما ما زاد

---

١ اللسان (٢٩٦/١١) ، تاج العروس (٣٥١/٧) ، (رمل) .
٢ اللسان (٢٩٦/١١) .
٣ اللسان (٣٥٤/٣) ، (قصد) ، تاج العروس (٤٦٧/٢) ، (قصد) .
٤ تاج العروس (٤٦٨/٢) .
٥ اللسان (٣٥٤/٣) ، (قصد) .

على ذلك فإنما تسميه العرب قصيدة[1] . « وقيل : إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس .. ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو ببيت واحد . ويستحسنون أن تكون القصيدة وتراً ، وأن يتجاوز بها العقد ، أو توقف دونه »[2] . فالقصيدة اذن كلمة طويلة بالنسبة الى القطعة ، فيها وحدة أطول هي وحدة القصيدة ، التي تعرف بقافيتها[3] . ويعبر عنها بلفظة (كلمة) (الكلمة) مجازاً ، كما عبر عنها في المؤلفات القديمة[4] .

وينسب الى (الأخفش) قوله : « القصيد من الشعر هو الطويل ، والبسيط التام ، والكامل التام ، والمديد التام ، والوافر التام ، والرجز التام ، والخفيف التام ، وهو كل ما تغنى به الركبان ، ولم نسمعهم يتغنون بالخفيف »[5] . و(القصد) مواصلة الشاعر عمل القصائد وإطالته كالإقصاد . قال الشاعر :

قد وردت مثل اليماني الهزهاز تدفع عن أعناقها بالاعجاز
أعيت على مقصدنا والرجاز[6]

وكلمة (قصيدة) من الكلمات المستعملة في الشعر الجاهلي . جاء ان أحد شعراء (بكر بن وائل) سخر من تغلب لما كانت تتباهى به من ترديدها لقصيدة شاعرها (عمرو بن كلثوم) في مدح نفسه وقومه ، فقال :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أولهم يا للرجال لشعرٍ غير مسئوم[7]

وورد في شعر للمسيب بن علس قوله :

فلأهدين مع الرياح قصيدة مني مغلغلة الى القعقاع[8]

---

١ اللسان (٣/٣٥٥) ، تاج العروس (٢/٤٦٧) ، (قصد) .
٢ العمدة (١/١٨٩) .
٣ بروكلمن (١/٥٨) .
٤ الآمدي ، المؤتلف (١٠٦) ، ابن سلام ، طبقات (٢٧) ، ابن سعد (٣/١٧٦) .
٥ تاج العروس (٢/٤٦٧) ، (قصد) .
٦ تاج العروس (٢/٤٦٦) ، (قصد) .
٧ الاغاني (١١/٥٤) .
٨ المفضليات (٦٢) .

فاللفظة إذن من الألفاظ التي استعملها الجاهليون ، بمعناها المفهوم . وقد بحث في أصلها علماء اللغة ، وذهبوا في تفسيرها مذاهب[1] . وللمستشرقين كلام في أصلها وفي معناها . ذهب بعض منهم إلى أنهـا من القصد والغرض ، وانها قيلت في شعر الطلب أولاً ، ثم أطلقت على كل شعر آخر ، ولهذا اقترح بعضهم ترجمتها بـ (شعر الطلب) أو (شعر التسول) ، وعارض هذا التفسير بعض آخر ، لأن التسول في رأيهم لم يكن الغرض الأول من نظم الشعر ، وإنما كان غرضاً من أغراضه ، ثم إن أقدم الشعراء الذين قصّدوا القصائد لم يكونـوا من الشعراء المتسولين ، وإنما كانوا من المترفعين المتعالين ، ولهذا رفضوا تفسير القصيد بشعر التسول والطلب[1]،وقال (بروكلمن) : « إذا صح أن لفظ القصيد بعيد القدم، فمن الممكن أن يكون الغرض والقصد بحسب الأصل غرضاً من أغراض السحر ، وكثيراً ما صار غرضاً سياسياً في وقت متأخر ، ثم صار يستعمل بأوسع معـاني الكلمة في جميع أغراض الحياة الاجتماعية ، وان كان من الحق أنه استعمل أيضاً منذ عهد قديم في أغراض أنانية محضة »[2] .

وتعرف (القصيدة) بـ (القافية) كذلك . واستشهد العلماء على ذلك بقول الخنساء :

فنحـكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

وبقول آخر :

نبثت قافيـة قيلت تناشدها قوم سأترك في أعراضهم ندبا

وذكروا ان (القافية) في قول حسان بن ثابت :

فنحـكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

قد تعني (القصيدة) ، وقد تعني البيت منهـا . « قال الأزهري : العرب

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٥٩) ،
Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 10.

٢ بروكلمن (١/٥٩) .

تسمي البيت من الشعر قافية ، وربما سمّوا القصيدة قافية ، ويقولون رويت لفلان كذا وكذا قافية[1] . والقافية هي (ميقف) في العبرانية .

وأطلقت على القصيدة لفظة (كلمة) ، وقد استعملها (ابن سلام) في مواضع من كتابه (طبقات الشعراء) . فتجده يقول : « ومن شعر حسان الرائع الجيد ما مدح به بني جفنة من غسان ملوك الشأم في كلمة » ، ثم ذكر القصيدة ، ثم يقول : « وقوله في الكلمة الأخرى الطويلة »[2] ، و « قال في يوم أُحد كلمة قال فيها »[3] ، ويقول « وكان أبو الصلت يمدح أهل فارس حين قتلوا الحبشة في كلمة قال فيها »[4] ، و « السموأل بن عادياء يقول في كلمة له طويلة »[5] ، ووردت في مواضع عديدة أخرى بهذا المعنى وفي بقية كتب الشعر والأدب .

وتتألف القصيدة من أبيات . والبيت هو بيت الشعر[6] . ويتكون البيت من شطرين . و (الشطر) نصف الشيء . فشطر البيت نصفه[7] . والبيت في القصيدة الجاهلية وحدة معنوية مستقلة قائمة بذاتها ، إذا انتزعت بيتاً منها ، أو تركت بيتاً ، أو قدمت فيها بيتاً على بيت ، أو أخرت في أبياتها ، فإنك لا تكاد تفصم عرى القصيدة ولا تؤثر على ترابط معناها في الغالب ، لأن كل بيت منها وحدة قائمة بذاتها لا تتصل بما قبلها أو بما بعدها إلا بسبب الوزن والقافية .

وقد عرفت بعض الأبيات بالأوابد . والأوابد من الشعر : الأبيات السائرة كالأمثال[8] . وذكر أن الأوابد الشوارد من القوافي[9] ، ورد في كتب اللغة : « ومن المجاز أبد الشاعر يأبد أبوداً ، إذا أتى العويص في شعره . وهي الأوابد والغرائب وما لا يعرف معناه على بادىء الرأي »[10] .

---

١ تاج العروس (١٠/٣٠٠) ، (قفو) .
٢ (ص ٥٣ ، ٥٤) .
٣ طبقات (٥٨) .
٤ طبقات (٦٦) .
٥ طبقات (٧١) .
٦ تاج العروس (١/٥٣٠) ، (بيت) .
٧ تاج العروس (٣/٢٩٨) ، (شطر) .
٨ العمدة (٢/١٨٥) .
٩ اللسان (٣/٦٩) ، (ابد) .
١٠ تاج العروس (٢/٢٨٦ وما بعدها) ، (أبد) .

وتكون القصائد طويلة في الغالب ، أما (القطع) ، فهي أقصر من القصيدة . وقد كان (ابن الزبعرى) ، لا ينظم القصائد الطوال ، ويميل الى القطع ، وكان عذره « ان القصار أولج في المسامع ، وأجول في المحافل » . وللشعراء الطوال والقصار ، كل حسب المناسبة[1] . وقد اختتمت بعض القصائد الجاهلية بالحكم والأمثال وبالأقوال المأثورة . وللقصائد الطوال المحبوكة حبكاً حسناً ، والمنظومة نظماً جيداً ، سابقة وقدم على مثيلاتها من القصائد الوسط أو القصيرة ، ومن هنا اختار (حماد) الراوية (السبع الطوال) (السبع الطول) من الشعر الجاهلي ، وزعم في أصلها ما زعم . ونظم القصيدة الطويلة ، يحتاج الى نفس طويل ، والى تمكن من الشعر ، وإلا أصابها الوهن والعجز ، ومن هنا عدّ أصحاب المطوّلات الجيدة من أحسن الشعراء .

وقد ذهب (غرونباوم) الى أن القصيدة العاشرة من القصائد المنسوبة الى (عمرو بن قميئة) ، ربما تكون أقدم قصيدة تامة وصلت الينا من الشعر الجاهلي، « على أنها لم تكن بعد تفي بجميع مقتضيات النقاد النظريين ، لأنها لا تشمل ، في الأبيات التسعة عشر التي تلي النسيب ، إلا على وصف سحابة ممطرة ، ومدح رجل يدعى امرأ القيس بن عمرة . ولو أن هذه القصيدة تأخرت عن العصر ، بوقت قصير ، لاعتبرت أثراً غثاً . وليس السبب في ذلك أن عدد أبيات القصيدة من بعد قد ازداد الى ضعفين أو ثلاثة أضعاف ، أو بلغ أو جاوز المائة ، وإنما هو في كثرة المشاهد التي حشدت حتى تحققت هذه المنظومات الرائعة . ومن شواهد ذلك قصيدتان للأعشى (حوالى ٥٦٥ – ٦٢٩ م) هما الأولى والسادسة من ديوانه، وأولى قصائد أبي ذؤيب الهذلي (ت حوالى ٦٥٠ م) ، وفيها تصوير لسلطة القدر المحتوم في ثلاثة مشاهد مؤثرة تمثل مصرع حمار الوحش القوي وثور الوحش الهائج ، والفارس الشاكي السلاح المستجن بدرعه . وإذ كان الحافز لقول القصيدة هو وفاة ابن الشاعر ، فقد جمعت هذه القصيدة جمعاً موفقاً بين مزايا المرثية وخصائص القصيدة »[2] .

وقد بلغ الشعر الجاهلي ذروته عند ظهور الاسلام . كان الشعراء في هذا العهد ينظمون القصيد ببحوره التي ضبطت وثبتت في الاسلام ، في مقاصد أشرت اليها

---

١ العمدة (١/١٨٦ وما بعدها) .
٢ غرونباوم (١٣٩) .

في موضع آخر من هذا الجزء من الكتاب ، كما كانوا قد طوّروا الرجز وتفننوا فيه . وقد أدى ظهور الاسلام الى إحداث تغير في نمط نظم القصائد ، لأن الاسلام حدث تأريخي جاء برأي في شؤون الحياة جديد ، فكان لا بد للشعراء من مجاراة هذا التيار الفكري ، لا سيما بعد خروج العرب من جزيرتهم وانتشارهم في أرضين جديدة غنية ، وحكمهم لأقوام كانت لهم حضارة ، فكان لا بد من تأثر النفس بالوضع الجديد ، والشعر تعبير عن النفوس والأحاسيس .

والقافية من الشعر الذي يقفو البيت ، سميت قافية لأنها تقفوه، أو لأن بعضها يتبع أثر بعض . وقيل : هي آخر كلمة في البيت ، أو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة ، وهو المسمى روياً . وعرّف (الخليل) القافية بقوله : « القافية من آخر حرف ساكن فيه ، أي في البيت ، الى أول ساكن يليه مع الحركة التي قبل الساكن »[1] . وأرى ان هذا التعريف قد أخذه (الخليل) من أهـل الكتاب . فالقافية بهذا التعريف تقابل Maqqeph (مقف) (مقيف) عند العبرانيين[2] ، و (المقيفات) هي التي تحدد الشعر ، وتجعل من الكلام المؤلف من (مقيفات) شعراً ، ولا يستبعد استعمال الجاهليين لهذا المصطلح استعمال العبرانيين والسريان له، فلما دوّن (الخليل) علم العروض أخذ هذا المصطلح منهم ، ودليل ذلك ورود لفظة (قافية) و (القوافي) في الشعر قبل أيام الخليل[3] ، ثم اختلاف العلـماء وتباين آرائهم في معنى القافية[4] .

ويذكر أهل الأخبار أن (مهلهل بن ربيعة) ، وهو خال (امرىء القيس) الشاعر ، وجدّ (عمرو بن كلثوم) هو أول من قصد القصائد . وقـد قال (الفرزدق) فيه :

ومهلهل الشعراء ذاك الأول[5]

فهو أول شعراء القصائد ، وهو متقدم على (امرىء القيس) .

---

١ تاج العروس (١٠/٣٠٠) ، (قفو) .
٢ Hastings, p. 737.
٣ تاج العروس (١٠/٣٠٠) ، (قفو) .
٤ نزهة الجليس (١/١٢٠) .
٥ العمدة (٨٧) ، الشعر والشعراء (١٦٤) .

ويرى (فون غرونباوم) ان الشعراء حرصوا منذ حوالى السنة ٥٠٠ م على التصريع في المطلع ، ثم التزم قافية واحدة في جميع أبيات القصيدة ، من أولها الى آخرها ، بحيث يسوغ القول : إن القافية الواحدة أدل على وحدة القطعة الشعرية من المعاني الواردة فيها .

« ويتجلى في أقدم المحفوظ من الشعر العربي تنويع عظيم في الوزن ، وصقل بارع في التعبير اللغوي . وهذا يعني أنه كان قد نشأ ، قبل ذلك ، مذهب شعري ينص على التنويع والصقل المشار اليهما . وأخذت الأقطار المختلفة تؤثر أوزاناً مختلفة ، ويكاد يكون من المرجح أن الفرس قد تركوا ، في شعر الأقدمين من شعراء العراق ، تأثيراً بالغاً في الطريقة الفنية . فهنالك وزنان على الأقل ، امتاز بهما هؤلاء الشعراء هما الرمل والمتقارب ، وربما زدنا اليهما الخفيف . ويبدو أنها جميعاً اقتبست من أصول فارسية بهلوية ، وحورت بما يلائم الأوضاع العربية .

وربما كان للسريان فضل ما في وضع المصطلحات الفنية الأولى مثل كلمة (البيت) أي (الخيمة) لتدل على الوحدة الجزئية من القصيدة . لكن كان لنظرية الفن العروضي ، على العموم نشأة مستقلة ، فالخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ ـ ٧٩١ م) ، وضع قواعد العروض العربي بعد ذلك بزمن طويل ، وقد بقيت قواعده معتمد الأدباء عبر القرون . فقد أقر الخليل ستة عشر وزناً ، واطرح بعض الأوزان الهزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها . ثم إنه جرى على طريقة ، جرى عليها النحاة من بعد في الرمز الى صيغة اللفظة ، فأشار الى وحدة الإيقاع الشعري بصيغة مشتقة من فعل »[1] .

وقد تكلف الناس كثيراً ، وحمّلوا أنفسهم حملاً ثقيلاً ، باعتذارهم عن أمور متكلفة وردت في شعر زعم انه كان للقدماء من الشعراء ، فالتصريع مثلاً ، اذا كثر استعماله في القصيدة دل في نظر العلماء بالشعر على التكلف ، إن كان من المحدثين ، أما اذا كان من المتقدمين ، فلا يعد متكلفاً في نظرهم ، واعتذروا عنه بأنه جرى على عادة الناس ، لئلا يخرج عن المتعارف . ومن هذا القبيل التصريع المنسوب الى امرىء القيس :

---

١ غرونباوم (١٣٤ وما بعدها) .

تروح من الحي أم تبتكــر   وماذا عليك بأن تنتظــر
أمرخٌ خيامهــم أم عشر   أم القلب في إثرهم منحدر
وشاقك بين الخليط الشطر   وفيمن أقام من الحي هر[1]

ونسبوا الى (امرىء القيس) (المسمط) من الشعر . والشعر المسمط الذي يكون في صدر البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مقفاة ، وتجمعها قافية مخالفــة لازمة للقصيدة حتّى تنقضي . وقيل : أبيات مشطورة تجمعها قافية واحدة ، وهو الذي يقال له عند المولدين (المخمس) . ومن أنواعه المسبع والمثمن ، وقيل المسمط من الشعر أبيات تجمعها قافية واحدة مخالفة لقوافي الأبيات . وقيل المسمط من الشعر ما قفى أرباع بيوته وسمط قافية مخالفة . يقال : قصيدة مسمطة وسمطيــة . ومن الشعر المسمط المنسوب الى امرىء القيس قوله :

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله   أقمت بعضب ذي سفاسق ميّله
فجعتُ به في ملتقى الخيل خيله   تركت عتاق الطير تحجل حوله
كأن على أثوابه نضح جريال

ونسب له قوله :

توهمت من هنــد معالم أطلال   عفاهنّ طول الدهر في الزمن الخالي
مرابع من هند خلت ومصايفُ   يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيّرها هوجُ الرياح العواصف   وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطّال[2]

وتعرض (المعري) للتسميط في رسالة الغفران ، حين التقى بامرىء القيس ، فسأله : « أخبرني عن التسميط المنسوب اليك ، أصحيح هــو عنك ؟ وينشده الذي يرويه بعض الناس :

---

١ العمدة (١/١٧٤) .
٢ تاج العروس (٥/١٦١) ، (سمط) ، (كأن على سرباله ، نفح جريال) ، اللسان (٧/٣٢٢ وما بعدها) ، (سمط) .

يا صحبنا عرّجوا نقف بكم أسج
مهرية دُلُج في سيرها مُعج
طالت بها الرحل
فعرّجوا كلهم والهم يشغلهم
والعيس تحملهم ليست تعللهم
وعاجت الرمل
يا قوم إن الهوى إذا أصاب الفتى
في القلب ثم ارتقى فهدّ بعض القوى
فقد هوى الرجل

فيجيب (المعري) على لسانه بقوله : « لا والله ما سمعت هذا قط ، وإنه لقرى لم أسلكه ، وان الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام ، ولقد ظلمني وأساء إليّ ! أبعد كلمتي التي أولها:

ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كان في العصُرِ الخالي

وقولي :

خليلي مرّا بي على أم جندب لأقضي حاجات الفؤاد المعذب

يقال لي مثل ذلك ؟ والرجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز »[1] .

ونسبوا اليه كثرة التصريع في غير أول القصيدة ، وكثرة استعمال الضرب المقبوض في الطويل ، وكثرة الإقواء في القافية[2] . ويعد الاقواء من عيوب الشعر ، غير أننا لا نستطيع مجاراة علماء العروض في هذا الرأي ، إذ يجوز ألا يكون الاقواء عيباً عند أهل الجاهلية ، وإنما صار عيباً في الإسلام ، بعد تثبيت قواعد اللغة والبحور . ونجد هذا الرأي مثبتاً في رسالة الغفران .

---

١ رسالة الغفران (٣١٩ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١/٩٩) .

ولا يمكن أن نتصور ان القصائد الجاهلية الطويلة قد نظمت على نحو ما يرويها أهل الأخبار ، دون اجراء أي تغيير أو تحوير عليها . فقد كان الشاعر ينفعل فينظم قصيدته ويحفظها راويته ويذيعها بين الناس ، ثم يحدث أن تخطر له خواطر أو يسمع نقداً لبعض أبياتها ، أو توجيهاً يبديه له بعض أصدقائه أو يسمع تنبيهاً موجهاً اليه بوجود شيء في قصيدته غفل عنه ، فيجري بعض التغيير عليها من تعديل أو زيادة أو نقصان ، قد يحفظ ويروى ، وقد يهمل ويترك ، ولهذا فنحن لا نستطيع الإدعاء : ان نظم القصائد كان نظماً تاماً ، لم يشمله أي تعديل أو تبديل،وان الشاعر لم يكن ينشد قصيدته إلا بعد أن يكون قد اطمأن منها وضبطها ضبطاً تاماً .

« ومن الشعراء من يُحكم القريض ولا يحسن من الرجز شيئاً ، ففي الجاهلية منهم : زهير ، والنابغة ، والأعشى . وأما من يجمعها فامرؤ القيس وله شيء من الرجز ، وطرفة وله كمثل ذلك ، ولبيد وقد أكثر »[1] .

وليس في مستطاع أحد اثبات ان البحور المدونة في علم العروض ، هي كل بحور الشعر الجاهل وأوزانه ، لم يُهمل منها وزن ، ولم ينس منها بحر ، لأن على من يدعي هذه الدعوى ، إثبات ان الاسلاميين الذين جاءوا بعد الجاهليين قد أحاطوا علماً بكل الشعر الجاهلي ، وانهم أحصوه عدداً ، فلم يتركوا منه بيتاً ولا قطعة ولا قصيدة . وعلماء الشعر ينفون ذلك ويقولون : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام ، أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[2] .

ويرى (غرونباوم) أن الشعر الجاهلي قد تطور : « وتتجلى فيه معالم التطور بصورة واضحة : فمن ذويان اللهجات المتعددة في لغة واحدة ، تجمّع فيها تراث المدارس المختلفة واللهجات المتباينة بصورة متزايدة حتى تحقق حوالى سنة ٦٠٠ ، الى زيادة القيود في نظام العروض الفني ، فإن ظفر بعض الفئات باستنباط تعابير

---

١ البيان والتبيين (٤/٨٤) .
٢ الشعر والشعراء (٧ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .

جديدة لم تلبث أن شاعت تدريجياً في أوساط أخرى ، وأخيراً الى اتجاه سياق الشعر نحو الإتساع وعدد أبيات القصيدة الى الازدياد . إن تحليل هذا النمو السريع نسبياً ، على ضوء ما نعرفه عن المخلفات القديمة ليحملنا على الاعتقاد بأن وضع تأريخ معين يحدد بدء الشعر العربي الفني أمر متعذر ، ولكن الغالب على الظن أن أوائل هذا الشعر لا تتخطى أقدم المدوّنات التي بلغتنا بزمن طويل . وهذا الحكم إنما ينطبق على الطبقة الشعرية الثالثة والأخيرة لا غير . ولئن تعاصرت هذه الطبقات الشعرية الثلاث معاً في الفترة الجاهلية المذكورة ، فمن البدهي أنها لم تبرز الى الوجود في وقت واحد »[1] .

التمليط :

وهو أن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسماً وهذا قسماً لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه[2] ، وفي الحكاية أن امرأ القيس قال للتوأم اليشكري : إن كنت شاعراً كما تقول فلمّط أنصاف ما أقول فأجزها ، قال نعم . فقال امرؤ القيس :

أحار ترى بريقاً هبّ وهنا

فقال التوأم اليشكري :

كنار مجوسٍ تستعر استعارا

فقال امرؤ القيس :

أرقت له ونامَ أبو شريح

فقال التوأم :

إذا ما قلتُ قد هدأ استطارا

فقال امرؤ القيس :

كأن هزيمه بوراء غيثٍ

---

١ غرونباوم (١٣٥ وما بعدها) .

٢ اللسان (٤٠٩/٧) ، (ملط) .

فقال التوأم :

عشارٌ وإلّــهٌ لاقت عشارا

فقال امرؤ القيس :

فلما أن عــلا كتفي أضــاخ

فقال التوأم :

وهت أعجازُ ريِّـهِ فحــارا

فقال امرؤ القيس :

فــلم يترك بذات السر ظبياً

وقال التوأم :

ولم يــترك بجهلتهــا حمــارا

فلما رآه امرؤ القيس قد ماتنه ، ولم يكن في ذلك الحَرْسِ من يماتنه ، آلى ألا ينازع الشعر أحداً آخر الدهر .

وذكر ان شعر التوأم في هذا التمليط ، أقوى من شعر امرىء القيس ، لأن امرأ القيس مبتدىء ما شاء ، وهو في فسحة مما أراد ، والتوأم محكوم عليه بأول البيت ، مضطر في القافية التي عليها مدارها جميعاً ، ومن ههنا عرف له امرؤ القيس من حق المماتنة ما عرف . ونازع أيضاً علقمة بن عبدة ، فكان من غلبة علقمة عليه ما كان[1] .

والمماتنة المعارضة في جدل أو خصومة ، والمباهاة في الجري أو في الشعر ، بأن يتماتن شاعران أو أكثر ليتبين أيهم أشعر[2] .

وقد يمتحن الشعراء بعضهم بعضاً قول الشعر ، كأن يقول أحدهم بيتاً أو نصف بيت ، ثم يقول لصاحبه : أجز ، ليقدم مثله ، قيل : قال زهير بن أبي سلمى بيتاً ثم أكدى ، ومرّ به النابغة الذبياني ، فقال له : يا أبا أمامة ، أجز ، قال : ماذا ؟ قال :

---

١ العمدة (١/٢٠٢ وما بعدها) ، (٢/٩١) .
٢ تاج العروس (٩/٢٤٠) ، (متن) .

تزال الأرض إما مت خِفاً وتحيا ما خبيت بها ثقيلا
نزلتَ بمستقر العز منها . . . . . .

فماذا قال ؟ فأكدى النابغة أيضاً ، وأقبل كعب بن زهير ، وهو غلام ، فقال له أبوه : أجز يا بُني ، فقال : ماذا ؟ فأنشده البيت الأول ومن الثاني قوله : نزلت بمستقر العز منها ، فقال كعب :

فنمنع جانبيها أن يزولا[1]

ومن الإجازة قول حسان بن ثابت :

متاريك أرباب الأمور اذا اعتّرت أخذنا الفروع واجتنبنا أصولها

وأجبل ، فقالت ابنته : يا أبت ، ألا أجيز عنك ، فقال : أو عندك ذاك؟ قالت : بلى ، قال : فافعلي ، فقالت :

مقاويل للمعروف خرس عن الخنا كِرامٌ يعاطون العشيرة سُولها

فحمى حسان عند ذاك ، فقال :

وقافية مثل السنان ردفتها تناولتُ من جوّ السماء نزولها

فقالت ابنته :

يراها الذي لا ينطق الشعر عنده ويعجز عن أمثالها أن يقولها[2]

---

١ أمالي المرتضى (٩٧/١ وما بعدها) .
٢ العمدة (٨٩/٢) .

الفصل التاسع والاربعون بعد المئة

العروض

والعروض ميزان الشعر، سُمي به لأنه به يظهر المتزن من المنكسر عند المعارضة بها . وذكر الأخباريون جملة تفسيرات لسبب تسميتهم العروض عروضاً ، منها أنه علم الشعر ، ألهم الخليل به بمكة ، ومكة من العروض ، فقيل لهذا العلم عروضاً[1] ، ومنها أنه انما سمي عروضاً لأن الشعر يعرض عليه ، ومنها أنه انما عرف بعروض الشعر ، بقولهم : فواصل أنصاف الشعر ، وهو آخر النصف الأول من البيت . فالنصف الأول عروض ، لأن الثاني يبنى على الأول، والنصف الأخير الشطر . أو لأن العروض طرائق الشعر وعموده مثل الطويل ، فيقال هو عروض واحد . واختلاف قوافيه يسمى ضروباً[2] . أو لأنه إن عرف نصف البيت، وهو العروض سهل تقطيع البيت حينئذ ، ولذلك قيل له العروض[3] . وذهب البعض الى أنه إنما عرف بذلك من العرض ، لأن الشعر يعرض على هذه الأوزان فما وافق كان صحيحاً وما خالف كان سقيماً . وقيل من العروض ، أي الطريق التي في الجبل ، والمراد الطريق التي سلكتها العرب ، وقيل لما شبهوا البيت من الشعر ببيت الشعر ، شبهوا العروض الذي يقيم وزنه بالعروض ، وهي الخشبة المعترضة

---

١ تاج العروس (٥/٤١) ، (عرض) .
٢ اللسان (٧/١٨٤) ، (عرض) .
٣ الخوارزمي ، مفتاح العلوم (٥١) .

في سقف البيت ، كما شبهوا الأسبـــاب بالأسباب والأوتاد بالأوتاد ، والفواصل بالفواصل[1] . وعلم العروض ، هو علم الشعر والقافية ، ويرادفه علم الوزن : وزن الشعر ، ويدل اختلافهم الشديد في تعريفه على عدم وجود رأي واضح عند العلماء عن منشأه وعن كيفية ظهوره[2] .

وعندي ان في اختلاف العلماء هذا الاختلاف الشديد في سبب تسمية العروض عروضاً ، دلالة على ان اللفظة من الألفاظ التي كانت مستعملة قبل الاسلام،وانها لم تكن من وضع (الخليل) ، وانما كانت لفظة قديمة جاهلية قصد بها النظر في الشعر والتبصر بدروبه وأبوابه وطرقه ، فلو كانت الكلمـــة اسلامية ومن وضع (الخليل) لما وقع بينهم هذا الاختلاف ، وما كان (الخليل) ليهمل السبب الذي حمله على اختيار هذه التسمية ، ولسأله العلماء حتماً عن السبب الذي جعله يسمي هذا العلم عروضاً ، فقد عوّدنا العلماء ، انهم اذا وقفوا أمام أمر قديم جاهلي ، وهم لا يعرفون من خبره شيئاً ، جاءوا بآراء متباينة وبتعليلات مختلفة ، لبيـــان العلـــل والأسباب . ولـو كان العروض من العلـوم أو المسميات التي وضعت في الاسلام ، لما اختلفوا في تعريفه هذا الاختلاف ، وفي اختلافهم هذا الاختلاف في تعريفه ، دلالة على قدمه قياساً على ما عرفناه عنهم ، من اختلافهـــم في تفسير المصطلحات والمسميات القديمة .

وقد قال قوم في الإسلام لا حاجة الى العروض ، لأن من نظم بالعروض شق ذلك عليه وأتى به متكلفاً ، ومن نظم بالطبع السليم والسليقة جاء شعره طبيعيـــاً سليماً[3] . ولا بـــد وأن تكون هذه المعارضة قد ظهرت بعد ظهور علم العروض وتدوينه وتثبيت قواعده ، ومحاولة العروضيين فرض سلطان قواعدهم عـــلى الشعر والشعراء ، ولمـــا كان الشعراء ينظمون الشعر بسليقتهم وفق عرفهم الذي ألفوه وتعودوا عليه ، وعن طبع وموهبة فيهم ، لم يحفلوا بالعروض ، وصار العروض علماً يحفظه من لا يقرض الشعر الرفيع العالي المنبعث عن شاعرية وعاطفة وهيجان خاطر ، وصار شعر العروضي شعراً متكلفاً في الغالب ، لا يداني شعـر الشعراء

---

١ نزهة الجليس (١/١١٥) .

٢ Ency., Vol., I, p. 463.

٣ نزهة الجليس (١/١١٦) .

الذين يقولون الشعر ، وهم أحرار طلقاء ، لعدم وجود الموهبة الشعرية فيهم ، والبصر بالعروض يجعل من يحافظه شاعراً .

والمعروف بين الناس أن العروض وضع في الإسلام ، وضعه (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم) الفراهيدي الأزدي اليحمدي (١٠٠ — ١٧٠ ، ١٧٥)[١] . استخرج الأوزان ، ودوّن البحور ، « وكان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس . وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب »[٢] . وقد عرف بـ (صاحب العروض)[٣] . وقيل عنه : كان « الغاية في تصحيح القياس ، واستخراج مسائل النحو وتعليله »[٤] ، « وهو أول من استخرج علم العروض ، وضبط اللغة ... وكان أول من حصر أشعار العرب ... روي عنه أنه كان يقطع العروض فدخل عليه ولده في تلك الحالة فخرج الى الناس وقال : إن أبي قد جُنّ . فدخل الناس عليه وهو يقطع العروض فأخبروه بما قال ابنه ، فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما أقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذلتكا »[٥]

و (الخليل) نفسه من الشعراء ، وقد أورد العلماء له شعراً[٦] . وقد أورد (ابن قتيبة) له أبياتاً ، عقب عليها بقوله : « وهذا الشعر بيّن التكلف رديء الصنعة . وكذلك أشعار العلماء ، ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة، كشعر الأصمعي ، وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، خلا خلف الأحمر ، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً[٧] .

وقد تعرض (أبو الحسين أحمد بن فارس) لموضوع نشأة النحو والعروض في الاسلام ، فقال : « فإنا لم نزعم ان العرب كلها — مدراً ووبراً — قد عرفوا

---

١ الفهرست (٦٩ وما بعدها) ، (المقالة الثانية) ، القفطي ، انباه الرواة (١/٣٤٢)
٢ الفهرست (٧٠) .
٣ السيوطي ، بغية (٢٤٣) ، ياقوت ، ارشاد (٤/١٨١) ،ابن الانباري ، نزهة (٥٥) .
٤ نزهة الالباء ، لابن الانباري (٢٩) ، (بغداد ١٩٥٩ م) .
٥ نزهة الالباء (٢٩ وما بعدها) ، (بغداد ١٩٥٩ م) .
٦ المحاسن والاضداد (٥٠) ، الشعر والشعراء (١/١٦) ، (٢/٦٣٠) .
٧ الشعر والشعراء (١/١٦) .

الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم : فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة ، وأبو حيّة كان أمس ، وقد كان قبله بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ ، وكان في أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كاتبون » . « أفيكون جهل أبي حيّة بالكتابة حجة على هؤلاء الأئمة ؟

والذي نقوله في الحروف ، هو قولنا في الإعراب والعروض . والدليل على صحة هذا وان القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرىء قصيدة الحطيئة التي أولها:

شاقتك أظعان ليـ ـلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية، وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأتت عليهما الأيام ، وقلاّ في أيدي الناس . ثم جددهما هذان الإمامان ، وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب . وأما العروض فمن الدليل على انه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على ان المشركين لما سمعوا القرآن قالوا — أو من قال منهم — انه شعر . فقال الوليد بن المغيرة منكراً عليهم، لقد عرضت ما يقرأه محمد على أقراء الشعر : هزجه ورجزه وكذا وكذا ، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك . أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ وقد زعم ناسٌ ان علوماً كانت في القرون الأوائل والزمن المتقادم ، وانها درست وجددت منذ زمان قريب ، وترجمت وأصلحت منقولة من لغة الى لغة . وليس ما قالوا ببعيد »[1] .

« ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر . فكتبوا ذوات

---

١ الصاحبي (ص ٣٦ وما بعدها) .

الياء بالياء ، وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة اذا كان ما قبلها ساكناً في مثل (الخبء) و (الدفء) و (الملء) فصار ذلك كله حجة ، وحتى كره العلماء ترك أتباع المصحف من كره »[1] .

فابن فارس إذن من الذين رأوا أن العرب الجاهليين كانوا على علم بالعربية وبعروض الشعر ، قبل (أبي الأسود الدؤلي) و (الخليل بن أحمد الفراهيدي). وأن فضل الرجلين على العلم ، إنما هو في جمع علم الأوائل وتثبيته وتدوينه،وهو فضل لا ينتقصه عليها منتقص . وهو استنتاج يتفق مع قواعد المنطق تمام الاتفاق . لأن من غير المعقول أن يضع إنسان قواعد لغة أو قواعد شعر ، من غير أن يكون له علم سابق بأنواع الكلام وباختلاف الاقراء وبالأسس اللغوية والنحوية التي لا بد من تعلمها حتى يتمكن المرء من بناء قواعد أساسية عليها ومن حصر دائرة العلم والإحاطة بأغصان شجرة ذلك العلم ، ويكاد يكون من المستحيل وضع قواعد العربية ، أو علم العروض على النحو الذي يعرضه علينا علماء اللغة والشعر ، من رجل لا علم مسبق له بقواعد اللغة وبأمور الشعر .

وفي خبر أن رسول الله دخل المسجد فرأى رجلاً يحدث الناس بأنساب العرب وأيامها وبالأشعار ، والعربية ، فقال رسول الله : « ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه ، وانما العلم ثلاثة : آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاها فهو فضل »[2] . والأمور المذكورة هي مما كان يتحدث به أهل العلم والثقافة من الجاهليين . والشعر في طليعة تلك الموضوعات ، ولا يراد به انشاده فقط ، بل كانوا ينشدونه ويذكرون المناسبات المتعلقة به ومزاياه وعيوبه ، ولا أعتقد ان المراد بالعربية مجرد تفسير المفردات ، بل كل ما يخصها من أمور . وفي جملة ذلك أخطاء القول ، وقواعد العرب في القول .

ويذكر أهل الأخبار ان الذي حمل (الخليل) على وضع العروض ، هو انه مر بسوق الصفارين أو بحارة القصارين ، فسمع الدق بأصوات مختلفة ، فأعجبه ، وقال : والله لأضعن على هذا المعنى علماً غامضاً، فصنع هذا العروض على حدود

---

١ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (٣٨ وما بعدها) .

٢ الكليني (١٢) .

الشعر وجعل بحورها ستة عشر بحراً[1] . وهي قصة باردة من قصص أهل الأخبار، فقد كانوا يضعون مثل هذا القصص حين يُسألون عن أمور ، لا يكون لهم علم بها ، وهل يعقل أخذ الخليل بحوره من دق مطارق الصفارين المزعجة ، التي تخرش الأذن ، وتبعد الانسان عن التفكير ، وتطير من الدماغ ما قد يكون فيه من علم . فالقصة من مخترعات أهل الأخبار وضعوها في ايجاد سبب لوضع هذا العلم ، فربطوا بين دق مطارق الصفارين وبين تقطيع الشعر .

ولا يعقل في نظري أن يكون الخليل قد وضع العروض من غير علم مسبق بأصول نظم الشعر عند أهل الجاهلية . اذ لا يمكن للحس المرهف وحده أن يبتكر العلم ابتكاراً من غير علم مسبق وقواعد سابقة وأصول مقررة معروفة . ولا يعقل أن يكون الخليل قد وضع الأسماء والمصطلحات والتعاريف بنفسه من غير رجوع الى علم سبق للشعراء الجاهليين أن وضعوه ، ومن رجوع الى قواعد ومصطلحات سبق ان كانت مقررة ، ففي أخبار أهل الأخبار أن أهل الجاهلية كان لهم علم بالشعر ، كالذي ذكرته من مثل « حال الجريض دون القريض » ، وما روي على لسان (الوليد بن المغيرة) من قوله في اتهام قريش للرسول من أنه شاعر : « لقد عرفت الشعر ورجزه وهزجه وقريضه فما هو به »[2] . وما روي عن إسلام (أبي ذر الغفاري) : ومن قول أخيه (أنيس) له : « لقيت رجلاً على دينك يزعم أن الله أرسله » فلما سأله (أبو ذر) « فما يقول الناس ؟ قال : يقولون ساحر كاهن شاعر . وكان أنيس أحد الشعراء ، فقال : والله لقد وضعت قوله على اقراء الشعر فلا يلتئم على لسان أحد ، أي على طريق الشعر وبحوره »[3]. وقد ورد أن أهل (يثرب) كانوا يعرفون (الاقواء) و (الإكفاء) في الشعر، وكانوا يعدّونهما من عيوب الشعر[4] . وقد علمنا أن مصطلح (الرجز) و(الهزج) و (الرمل) و (القصيد) وأمثال ذلك هي من مصطلحات أهل الجاهلية . ثم إن أكثر مصطلحات العروض هي مصطلحات كانت معروفة في الجاهلية ، وقد أخذت

---

١ نزهة الجليس (١/١٢٤) .
٢ اللسان (٥/٣٥٠) .
٣ الطبقات (٤/٢٢٠) « صادر » ، تاج العروس (١/٣٧١) « الكويت » ، الفائق (١/٥١٨) ، تاج العروس (١/١٠٣) ، (قرأ) ، الاصابة (١/٨٨) ، (رقم ٢٨٩) .
٤ الموشح (٥٩) .

من حياتهم ، فهي ليست بمصطلحات مبتكرة ، حتى نقول إن الخليل أوجدها من عنده ، وان علم العروض علم مستحدث نتيجة لذلك ، أوجده الخليل بملاحظاته وذكائه من دون علم سابق بأصول الشعر .

وورد أيضاً ، ان (عتبة بن ربيعة) لما مدح القرآن ، لما تلاه رسول الله ، قالت له قريش : هو شعر ، قال : لا لأني عرضته على أقراء الشعر ، فليس هو بشعر . أقراء الشعر : طرائقه وأنواعه[1] . وسئل (الحطيئة) عن (زهير بن أبي سلمى) ، فقال : « ما رأيت مثله في تكفيه على أكناف القوافي ، وأخذه بأعنتها حيث شاء »[2] . وكلام مثل هذا لا يمكن أن يصدر إلا من رجال لهم علم بالشعر وبدروبه وبحوره وأنواعه .

والذي أراه،ان شعراء الجاهلية كان لهم علم سابق بالشعر وضعوه قبل الاسلام، ولهم قواعد ورثوها من أسلافهم القدماء في كيفية نظم الشعر ببحور . كانوا يعرفون البحور ، وربما كانوا قد وضعوا لها أسماء ، على نحو ما يفعله شعراء الشعر العامي في هذا اليوم ، وأكثرهم ممن لا يحسن الكتابة والقراءة ، غير انهم يعرفون طرق الشعر العامي ودروبه ، سمّوها بأسماء ، وعرّفوها ، ووضعوا لها أوزاناً وزنوا بها شعرهم ، وحكموا بموجبها حكمهم على الشعر، فتراهم ينتقدون شاعراً فيرفعون شعره ، أو يذمونه ، يزنون حكمهم بميزان علمهم المتوارث والمتعارف عليه عن الشعر . وقد وضع بعض المحدثين كتباً في هذا الشعر ، وفي ضبط دروبه وتسجيل قواعده . والذي فعله (الخليل) لا يخرج عن هذا العمل، حصر وسجل ما كان معروفاً بين الشعراء عن بحور الشعر وأبوابه وقواعده ، ثم جمعه في كتاب فعدّ بعمله هذا مؤسس علم العروض . وانما هو في الواقع جامع شتات هذا العلم ومسجل قواعد الشعر وبحوره . فهو بذلك أول من فعل هذا الفعل على ما أعلم . وهو عمل يشكر بالطبع عليه .

والذي أعانه وساعده على هذا الحصر والجمع ، هو وجوده في العراق، وكان أهل العراق يتدارسون النحو والشعر واللغة قبل الاسلام . كانوا قد نقلوا الى

---

١ اللسان (١٥/١٧٥) ، (قرا) ، (اقرأ الشعر أنواعه وطرقه وبحوره) ، تاج العروس (١/١٠٣) ، (قرأ) ، الفائق (١/٥١٨) ، ابن سعد ، طبقات (٤/١ ص ١١٦ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (١/٨١) .

السريانية — لغة الثقافة والعلم — علم اليونان باللغة والنحو والشعر ، فساعدهم هذا النقل على تهذيب ما ورثوه من رجالهم من علم بهـذه المعارف ، وقاسوه بأقيسة ونظموه تنظيماً علمياً ، وظلوا يتداولونه ، فلما دخل منهم من دخل في الاسلام، أو احتك بالمسلمين ، وكان عند العرب كلام في اللغة وفي الشعر ، ولا سيما عند عرب العراق النصارى ، فلا يستبعد عرض هؤلاء ما كان عندهم من علم باللغة والشعر الى من كان له ميل لمثل هذه الدراسات ، كأبي الأسود الدؤلي والخليل ابن أحمد ، فصار هذا العرض سبباً لظهور الأسس في النحو وفي العروض . وقد أدرك ذلك العلماء ، فقال (الصفدي) : « إن الشعر اليوناني له وزن مخصوص ولليونان عروض لبحور الشعر . والتفاعيل عندهم تسمى الأيدي والأرجل ، قلت ولا يبعد أن يكون وصل الى الخليـل بن أحمد شيء من ذلك أعانـه على ابراز العروض الى الوجود »[1] . فهو من ثم « أول من استخرج علم العروض وحصر أشعار العرب فيها »[2] ، ولكنه لم يكن مخترع هذا العلم وموجده من العدم . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان (عروض) Prosody (أرسطو) هو الذي علّم (الخليل) طريقة وضع (العروض) واستنباط تفاعيل الشعر وبحوره[3] .

ولابن خلّكان رأي طريف في المنبع الذي استمد منه (الخليل) علم العروض، تراه يتحدث عنه فيقول : « وله معرفة بالإيقاع والنغم ، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض ، فإنهما متقاربان في المأخـذ »[4] . وكان الخليل صاحب عـلم بالموسيقى ، ومن بين كتبه (كتاب النغم) ، فرجل ذو علم بالموسيقى،وبتقاطيعها وأوزانها ، يكون له ميل الى الشعر وأوزانه،خاصة وأن بين الشعر والغناء والموسيقى روابط قديمة . فقـد « كانت العرب تغني النصب ، وتمدّ أصواتها بالنشيد ، وتزن الشعر بالغناء . فقال حسان :

تغنّ بالشعر إمّا أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار »[5]

---

١ نزهة الجليس (١/١١٦) .

٢ نزهة الجليس (١/١٢٤) .

٣ Freytag. Darstellung d. Arabi, Verskunst, S., 18, William Lindsay Alexander, A Cyclopaedia of Biblical Literature, Vol., I, p. 188.

٤ ابن خلكان (١/٢١٦ وما بعدها) .

٥ المرزباني ، الموشح (٣٩) .

وروي أن الخليفة (عمر) قال يوماً للنابغة الجعدي : « أسمعني بعض ما عفا الله لكَ عنه من غنائك . فأسمعه كلمة له ، قال له : وإنك قائلهـــا ؟ قال : نعم . قال : لطالما غنيت بها خلف جمال الخطّاب »[1] . فإذا كان العرب قـــد وزنوا الشعر بالغناء،فلا يستبعد أن يكون الخليل قد ألهم من فعل العرب هذا قبله.

وقد ذكرت في الجزء الخامس من هذا الكتاب[2] ، أنه قد كان للشعر علاقة كبيرة بالغناء ، فالغناء هو التغني بالشعر ، ولذلك قالوا : تغنى بالشعر ، وفلان يتغنى بفلانة إذا صنع فيها شعراً . وله علاقة بالحداء أيضاً . قالوا : حدا به ، إذا عمل فيه شعراً[3] . فالغناء نغم ووزن ويكون لذلك بكلام موزون . وهو الشعر الذي يناسب نغم الغناء . قال (الجاحظ) : « العرب تقطع الألحان الموزونة ، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في الوزن اللحن ، فتضع موزوناً على غير موزون[4] . وقال (ابن رشيق) : « وزعم صاحب الموسيقى أن ألـذ الملاذ كلها اللحن ، ونحن نعلم أن الأوزان قواعد الألحان والأشعار معايير الأوتار لا محالة ، مع أن صنعة صاحب الألحان واضعة من قدره ، مستخدمة له ، نازلة به مسقطة لمروءته . ورتبة الشاعر لا مهانة فيها عليه ، بل تكسبه مهابـة العلم ، وتكسوه جلالة الحكمة »[5] .

ولا يستبعد تغني الشعراء الجاهليين بشعرهم ، واستعمالهم آلات الموسيقى مثل الرباب لترافق غناهم بشعرهم ، كما يفعل شعراء البادية في هذه الأيام . وقد ذكر ان الشاعر (عروة بن أذينة) ، وهو من شعراء العصر الأموي « كان شاعـراً لبقاً في شعره ، غزلاً . وكان يصوغ الألحان والغناء على شعره في حداثته وينحلها المغنّين »[6] . وكان من شعراء المدينة[7] .

---

١ العقد الفريد (٤/٩٠) .
٢ (ص ١٠٥ وما بعدها) .
٣ اللسان (١٥/١٣٥) ، (غنى) ، تاج العروس (١٠/٢٧٢) .
٤ رسائل الجاحظ (٢/١٥٨) .
٥ العمدة (١/٢٦) .
٦ العقد الفريد (٤/٩٦) .
٧ الاغاني (٢١/١٠٥ وما بعدها) ، الشعـــر والشعراء (٢/٤٨٣ وما بعدهـــا) ، المرتضى ، أمالي (١/٤٠٨ وما بعدها) ، السمط (٢٣٦) ، درة الغواص (١٣٥) ، المعارف (٤٩٢) .

ومن آيات علم الجاهليين بصناعة الشعر وبفنونه وحذقهم بأساليبه ، استعمالهم بحور الشعر حسب المواقف والمناسبات واتخاذهم الايقاع والنغم وجرس الألفاظ أساساً في النظم ليكون الشعر مطابقاً للمناسبة التي سينظم لها . فللغناء بحور ، وللقتال بحور تثير القلوب وتلهبها ، وللسفر وزن ، وللمناسبات المؤلمة مثل الرثاء والتوجع وزن يناسبها ، وكل ذلك ناتج عن طبع وتطبع وعلم بالمناسبة ، وقد أشير الى هذا الاستعمال في الأخبار . وهذه المناسبات هي التي خلقت تلك البحور .

ومن آيات علم الجاهليين بالشعر ، ما نقرأه في الأخبار عن علم أهل الجاهلية بطرائق الشعر وأبوابه وبعيوبه وضعفه ، ومن أخذهم على الشعراء في أيام الجاهلية وقوعهم في الأخطاء ، أو مخالفتهم لأصوله ونغمه وخروجه على ما هو متعارف عليه . وأمثال ذلك مما يدل على ان الشاعر وإن كان ينظم الشعر عن طبع وسليقة ، وعن موهبة كامنة فيه ، لكنه كان يراعي في نظمه قواعد موروثة معلومة ، وأصولاً محفوظة ، على نحو ما نراه اليوم عند الشعراء الشعبيين ، الذين ينظمون الشعر العامي (الشعر النبطي) ، المقال باللهجات العامية ، وفق قواعد مقررة عندهم معروفة ، وأبواب مسماة عندهم موسومة ، يحفظونها حفظاً ، لأنها هي غير مدونة ، ثم إن أكثرهم ممن لا يقرأ ولا يكتب .

ومما يؤيد هذا الرأي ما جاء في (لسان العرب) : « قال أبو الحسن الأخفش : النصبُ في القوافي ، أن تسلم القافية من الفساد ، وتكون تامة البناء ، فإذا جاء ذلك في الشعر المجزوء ، لم يُسم نصباً ، وإن كانت قافيته قد تمت ، قال : سمعنا ذلك من العرب ، قال : وليس هذا مما سمى الخليلُ ، وإنما تؤخذ الأسماء عن العرب »[1] . فالأسماء والأصول أخذت من العرب ، ومعنى هذا أنه قد كان للعرب علم سابق بأصول الشعر وبقواعده ، وقد تمكن (الخليل) بذكائه وبتتبعه للعلوم من جمع تلك القواعد ، في العروض ومن أخذ ما كان عند الشعراء والعارفين بفنونه من مصطلحات وعلم ، فكوّن من كل ذلك : العروض .

هذا وان المعلوم أن (أرسطو) كان قد ألف كتاباً في الشعر وفي العروض Prosody وقد تطرق فيه الى الوزن Metre أي وزن الأبيات والقصيدة ، كما تكلم عن (التفعيلات) ، وعن أنواع النظم ، وقد درس كتابه علماء ذلك الوقت ،

---

[1] اللسان (١/٧٦١) ، (نصب) .

ووقف عليه السريان قبل الإسلام ، ونقل الى العربية في الإسلام ، قـال (ابن النديم) : « الكلام على أبوطيقا : ومعناه الشعر،نقله أبو بشر متى من السرياني الى العربي ، ونقله يحيى بن عدي »[1] . وتوجد ترجمة كتاب (الشعر) ، في العربية مطبوعة في هذا اليوم ، وثبت أيضاً ان البابليين وغيرهم من أهل العراق، كانوا قد وضعوا قواعد في نظم الأشعار وفي تأليف أبياتها ، وفي أصول نظمها ، فلا استبعد وصولها الى المتأخرين من العراقيين الذين عـاشوا الى أيام الإسلام ، فوقف عليها (الخليل) ، واستنبط منها فكرته في وضع العروض .

والذي أراه أن للبت في منشأ علم العروض ، لا بد من البحث عن المصطلحات العربية الجاهلية التي كانت شائعة عند العرب في الجاهلية وعند ظهـور الإسلام ، عن تكوين الشعر وأصول نظمه ، ثم تتبع مصطلحات الشعر عند الساميين ، مثل الكلدانيين والعبرانيين ومقارنة مسمياتها بالمسميات العربية المنسوبة الى (الخليل) ، لمعرفة صلتها بعضها ببعض . ومن دراسة البحور ، وتفاعيلها ، وأصول نظمها، فقد ثبت أن لتلك الشعوب قواعـد في نظم الشعر ، راعاها الشعراء في نظمهم شعرهم[2] .

ولفظة (بحر) و (البحور) المستعملة في العروض ، هي من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين . ورد في كتب اللغة ان الشاعر اذا اتسع في القول، قالوا استبحر[3]. ولما جاء (الحارث بن معاذ بن عفراء) على (حسان بن ثابت) ليستحثه في هجاء (النجاشي) الذي هجا الأنصار ، ألقى عليه (حسان) ثمانية أبيات ، ثم توقف ومكث طويلاً على الباب يقول : والله ما أبحرت[4] . وذكر ان (أبا بكر) كان يقدم النابغة على غيره من الشعراء ، فلما سئل عن ذلك قال : « هو أحسنهم شعراً،وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً »[5] . ومن هذا المعنى أخذ مصطلح (بحر) و (بحور الشعر) و (بحور العروض) .

وكان الجاهليون أصحاب علم اذن بطرق الشعر وببحوره وبمقاصده وانحائه ،

---

١ الفهرست (ص ٣٦٣ وما بعدها) .
٢ Otto Weber, Die Literatur der Babylonier und Assyrer, Leipzig, 1907, S. 35.
٣ اللسان (٤/٤٤) .
٤ خزانة الادب (٤/٥٥ وما بعدها) ، ديوان حسان (١٣١ وما بعدها) .
٥ العمدة (ص ٩٥ ، ١٣٦ وما بعدها) .

وكانوا يطلقون على أنواعه وعلى ما ذكرت (أقراء الشعر)[1] . وكانوا ينقحونه ويحككون به حتى يرضون عنه . ويقال للشعر الذي لم يحكم ولم يجود (شعر خشيب) و (شعر مخشوب) ، عكس الشعر المنقح المجوّد . ورد على لسان (جندل بن المثنى) قوله :

قد علم الراسخ في الشعر الأرب
والشعراء أنـــني لا أختشب
حسرى رذاياهم ولكن اقتضب[2]

والاقراء في الشعر طرائقه وأنواعه ، واحدها قرو وقرى[3] .

والإكفاء أحد عيوب القافية الستة التي هي : الإيطاء ، والتضمين ، والإقواء ، والاصراف ، والإكفاء ، والسناد . وقد عرفه العرب الفصحاء ، بأنه الفساد في آخر البيت والاختلاف . وكانوا يقولون لمن يخالف بين حركات الروي : (أكفأ) أو (أكفأ الشاعر) . وقد كان (النابغة) يكفيء في شعره . وقـــد نبّه الى ذلك ، فتجنب بعضه وهذّبه[4] .

والإقواء عيب آخر من عيوب الشعر . وللنابغة في هذا خبر. فلما دخل (يثرب) وأنشد داليته المشهورة ، عيب عليه فيها ، فـــلم يفهم موطن العيب فيه ، وهو (الإقواء) ، فلما غنته المغنية بالقصيدة مطلت واو الوصل ، فأحس بالإقواء واعتذر منه وغيره فيما يقال الى قوله :

وبذاك تنعاب الغرابِ الأسودِ

ثم قال : « دخلت يثرب وفي شعري صنعة ، ثم خرجت منها وأنا أشعـــر العرب »[5] . وكان (بشر بن أبي خازم) يقوي في شعره كذلك[6] . وذكر ان

---

١ تاج العروس (١/٣٧١) « الكويت » .
٢ تاج العروس (٢/٣٥٤) .
٣ تاج العروس (١٠/٢٩٣) ، (قرو) .
٤ تاج العروس (١/٣٩٦) « الكويت » ، العمدة (١/١٦٤ وما بعدها) ، المـوشح (٦٠) .
٥ اللسان (١٥/٢٠٩ وما بعدها) ، الشعر والشعـــراء (١/٣٩ ، ١٩٠) ، (دار الثقافة) ، الموشح (٥٩ وما بعدها) .
٦ الموشح (٦٠) .

أخاه قال له : انك تقوي[1] .

وبينما نرى أهل الأخبار يرمون (النابغة) بالوقوع في الإكفاء وفي الإقواء ، وبعدم إدراكه للإقواء مع تلميح الناس له ، حتى دبر أهل يثرب حيلة ، أظهرت إقواءه له ، فعلمه ، وخرج ، وهو يقول : « دخلت وفي شعري صنعة ، ثم خرجت منها وأنا أشعر العرب » ، يذكرون ان (أبا ذكوان) ، وهو من العلماء بالشعر يقول : « ما رأيت أعلم بالشعر منه . ثم قال : لو أراد كاتب بليغ ان ينشر من هذه المعاني ما نظمه النابغة ما جاء بـــه إلا في أضعاف كلامه . وكان يفضل هذا الشعر على جميع أشعار الناس »[2] .

والإقواء أن تختلف حركات الروي ، فبعضه مرفوع وبعضه منصوب أو مجرور. وقيل نقصان الحرف من الفاصلة يعني من عروض البيت . وأقـوى في الشعر ، خالف بين قوافيه . وقيل هو رفع بيت وجر آخر . وذكر ان الاقواء كثير في كلام العرب ، لكن ذلك في اجتماع الرفع مع الجر وأما الإقواء وان كان عيبـاً لاختلاف الصوت به ، فإنه قـد كثر في كلامهم »[3] ، وكان « أبو عمرو بن العلاء يذكر أن الاقواء : هـو اختلاف الإعراب في القوافي ، وذلك أن تكون قافية مرفوعة ، وأخرى مخفوضة . كقول النابغة :

قالت بنو عامرٍ : خالوا بني أسدٍ يا بؤس للجهـل ضراراً لأقوامِ

وقال فيها :

تبدو كواكبُه والشمس طالعـة لا النور نور ولا الإظلام إظلامُ »[4]

« وبعض الناس يسمي هذا الإكفاء : ويزعم أن الإقواء نقصانُ حرف من فاصلة البيت، كقول حنجل بن نضلة ، وكان أسر بنت عمرو بن كلثوم وركب بها المفاوز ، واسمها النوار :

---

١ الشعر والشعراء (١٤٦) .
٢ انباه الرواة (٣/١٠) ، ديوان المعاني (١/١٧) ، المصون (١٥٦) ، بغية الوعاة (٣٧٥) .
٣ تاج العروس (١٠/٣٠٧) ، (قوو) .
٤ الشعر والشعراء (١/٣٩) ، (دار الثقافة) .

حَنّت نوار ولاتَ هنّا حنت وبدا الذي كانت نوار أجنّتِ
لمـا رأت مـاء السَّلا مشروباً والفرثَ يُعصرُ في الإناء أرنتِ

سمي اقواء لأنه نقص من عروضه قوة » . « وكان يستوى البيت بأن تقول: متشرباً »[1] .

وقد تعرض (المعري) لموضوع الاقواء وأمثاله في رسالة الغفران ، إذ يسأل (امرأ القيس) عنه ، ثم يجيب على لسانه . يقول الشاعر : « كيف يُنشد :

جالت لتصرعني فقلت لها:قرى إني امرؤ صرعي عليك حرامِ

أتقول : حرامُ فتقوي ؟ أم تقول : حرامِ فتخرجه مخرج حذامِ وقطام ؟ وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الاقواء عليك . فيقـول امرؤ القيس : لا نكرة عندنا في الاقواء »[2] . فهو يرى ان الاقواء لم يكن منكراً عند أهل الجاهلية : وإنما عيب عليه في الإسلام .

ومن مصطلحات علماء الشعر : (الإيطاء) ، قال العلماء : أطأ كرر القافية لفظاً ومعنى مع الاتحاد في التعريف والتنكير ، فإن اتفق اللفظ واختلف المعنى فليس بإيطاء ، وكذا لو اختلفا تعريفاً وتنكيراً . وقال بعضهم الإيطاء رد كلمة قـد قفيت بها مرة نحو قافية على رجل وأخرى على رجل فهـذا عيب عند العرب ، لا يختلفون فيه ، وقد يقولونه مع ذلك . ووجه استقباح العرب الإيطاء، انه دال عندهم على قلة مادة الشاعر ونزارة ما عنده حتى اضطر الى إعادة القافية الواحدة في القصيدة بلفظها ومعناها فيجري هذا عندهم مجرى العي والحصر ، وأصله أن يطأ الانسان في طريقه على أثر وطىء قبله فيعيد الوطء عـلى ذلك الموضع ، وكذلك إعادة القافية من هذا . وقال (أبو عمرو بن العلاء) : «الإيطاء ليس بعيب عنـد العرب ، وهو إعادة القافية مرتين » ، أما اذا كثر الإيطاء في قصيدة مرات فهو عيب عندهم[3] .

---

١ الشعر والشعراء (١/٣٩ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٣٢٠) .
٣ اللسان (١/٢٠٠) ، (وطىء) ، تاج العروس (١/١٣٥) ، (وطىء) ، الشعـر والشعراء (١/٤١) .

والمضمن من الشعر ما لا يتم معناه إلا في البيت الذي بعده . وقد اختلف العلماء فيه ، فمنهم من عدّه عيباً ، ومنهم من لم يعدّه عيباً ، ويراه مذهباً أجازه العرب لسببين : السماع ، والآخر القياس . أما السماع فلكثرة ما يرد عنهم من التضمين، وأما القياس فلأن العرب قد وضعت الشعر وضعاً دلت به على جواز التضمين عندهم . وحجة من قال بتقبيح التضمين : ان كل بيت من القصيدة شعر قائم بنفسه ، فمن هنا قبح التضمين شيئاً . وقد أوردوا للنابغة ولغيره من الشعراء أمثلة من التضمين[1] . وهو بهذا المعنى معروف عند غير العرب من الساميين والآريين ، إذ ان الأبيات عندهم ترتبط معانيها بعضها ببعض ، فلا يفهم معنى بيت إلا بالبيت الذي يليه . ولهذا تكون أبيات القطعة أو القصيدة مرتبطة بعضها ببعض ، ولا سيما في أشعار الملاحم والغناء .

والإصراف في الشعر ، إذا أقوي فيه وخولف بين القافيتين[2] . وأما السناد ، فاختلاف الأرداف . وقال (الأخفش) أما ما سمعت من العرب في السناد ، فإنهم يجعلونه كل فساد في آخر الشعر ولا يحدّون في ذلك شيئاً وهو عندهم عيب » . وقد أشير اليه في قول الشاعر :

فيه سناد واقواء وتحريد[3] .

وتحريد الشيء تعويجه .

وقيل : السناد : هو أن يختلف إردافُ القوافي ، كقولك علينا في قافية وفينا في أخرى[4] .

وقد تحدث (الجاحظ) عن الأوتاد ، والأسباب ، والخرم والزحاف، فقال: « وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقاباً لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، كما ذكر الطويل ، والبسيط ، والمديد ، والوافر ، والكامل ، وأشباه ذلك ، وكما ذكر

---

١ اللسان (٢٥٨/١٣ وما بعدها) ، (ضمن) ، تاج العروس (٢٦٥/٩) ، (ضمن)، العمدة (٨٤/٢) ، (باب التضمين والاجازة) .
٢ اللسان (١٩٣/٩) .
٣ اللسان (٢٢٣/٣) .
٤ الشعر والشعراء (٤٠/١) .

الأوتادَ ، والأسباب ، والخرم ، والزحاف . وقد ذكرت العرب في أشعارهـا السِناد ، والإقواء ، والإكفاء ، ولم أسمع بالإيطاء . وقالوا في القصيد ، والرجز ، والسجع ، والخطب ، وذكروا حروف الروي والقوافي ، وقالوا هذا بيتٌ وهذا مصراع »[1] .

وقد أباح علماء الشعر للشاعر مـا لم يبيحوه للناثر من (ضرورة) دعوها : (ضرورة الشعر) . وقد جاءوا بأمثلة على ذلك ، اعتذروا عن بعضها ، وأوجدوا لها مخارج في الإعراب ، وعدّوا بعضاً منها من (العيب في الإعراب)[2] ، وورد: « الشعراء أمراء الكلام ، يقصّرون الممدود ، ويمـدّون المقصور ، ويقدّمون ويؤخرون ، ويومئون ويشيرون ، ويختلسون ويُعربون ويستعربون . فإما لحن في إعراب ، أو إزالة كلمة عن نهج صواب فليس لهم ذلك »[3] .

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع (العروض) ، فقال : « وعلى الرغم من انه لا تزال تعوزنا بحوث شاملة لفن العروض عند قدامى الشعراء ، يمكن أن نقرر اليوم بحق ان هذا الفن كان يعتمد عندهم على قواعد ثابتة . نعم نجـد في بعض قصائد الشعراء الأقدمين أبياتاً خارجة عن العروض الـذي وضعه الخليل بن أحمد ، وما وضعه سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط في كتابه العروض ، كما في قصائد المرقش الأكبر ، وعبيد ، وعمرو بن قميئة ، وامـرىء القيس ، وسلمى ابن ربيعـة . ويبدو ان هذه الظواهـر آثار قليلة لمرحلة من النمو لم نقف على كنهها بعد .

وبذل الشعراء المتأخرون محاولات للتخلص من قوانين العروض العربي ولكنهم قلما خرجوا عليه[4] .

وقد تعرض (الهمداني) لموضوع الشعر العربـي وقواعد العروض ، وخروج الشعر على سلطة هذا العلم ، فقال : « أنشدني سعيد بن أبحر الهمداني ، وكان شاعراً بدوياً مطبوعاً :

---

١ البيان والتبيين (١/١٣٩) .
٢ الشعر والشعراء (١/٤٢ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢/٤٧١) .
٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٥٤) .

يا سمع يا بصري لو جاءكم خبري لكان في عذر ناع عـلى كُور
وفي بني عامر ناع عـلى خاطرٍ وفي قرى صـافر حزن وتثبـير

وكان للجاهلية الجهلاء مذهب في الشعر من الأزحاف وغيره ما يستنكره الناس اليوم كقول علقمة :

ومنّا الذي نودي بسبعة آلاف غـلاماً صغيراً مـا يشد إزارا

وكقوله :

كأن بـه سيد حلاحـل تُصر مـن دونـه الطروق

وقول بعض حمير في أيام جديس ، النصف الأول من روي والنصف الآخر من روي ، قصيدته :

للهِ عينا من رأى حسان قتيـلاً في سالف الأحقاب

ومن ذلك شعر مـالك بن الحصيب اللعوي ، وهو قديم في حلف ربيعة ، وأوله :

أنا مالك وأنا الذي جددت حلفا لكنـدة قبلنا قـد كان سلفا

الشعر ، وفي وزنه زيادة حرفين »[1] .

وقد يحسن العلماء في المستقبل بدراستهم لما ورد في مؤلفات الهمداني وغيره من شعر قديم ينسب الى قدماء شعراء اليمن والى الشعراء اليمانيين والعرب الجنوبيين عامة الذين نظموا بأسلوبهم الخاص ، لما في هذه الدراسة من فائدة كبيرة في إعادة بناء نظريات العلماء الحالية عن الشعر الجاهلي .

وفي الدواوين وكتب الأدب أمثلة على أمور خرج فيها الشعر على قواعد العروض أو النحو . من ذلك قول امرىء القيس :

كأن أباناً في أفانين وَدْقِه كبير أناس في بجاد مزمّل

---

١ الاكليل (٢/٤٩ وما بعدها) .

فقد ضم اللام في نهاية البيت ، وهي مكسورة في المعلقة جميعها[1] . ورووا أموراً أخرى وقعت في شعره أيضاً[2] ، وفي قصيدة (عبيد بن الأبرص) :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقطبيـاتُ فالذنوبُ

فهي من مخلع البسيط ، قلما يخلو بيت منهـا من حذف في بعض تفاعيله أو زيادة[3] . وفي قصيدة المرقش الأكبر :

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ لو كان رسمٌ ناطقاً كلّمْ

فهي من السريع ، وقد خرجت شطور أبياتها على هذا الوزن ، كالشطر الثاني من هذا البيت :

ما ذنبنا في أن غـزا ملكٌ من آل جفنة حازمٌ مرغم

فإنه من الكامل[4] . ورووا اضطراباً وقع في شعر (عدي بن زيد العبادي) ، على النحو المذكور ، خرج فيه من السريـع الى وزن المديدْ[5] ، وفي شعر غيره كذلك مثل نونية (سُلمي بن ربيعة) :

إن شـواءً ونشوة وخبب البازل الأمون

فهي خارجة عن عروض الخليل[6] .

ورووا وقوع مثل ذلك في قصيدة عدي بن زيد العبادي :

تعرف أمس من لميس الطلَلْ من الكتاب الدارس الأحولْ

---

١ دكتور شوقي ضيف : العصر الجاهلي (١٨٥) .
٢ راجع قصيدته :
عيناك دمعهما سجال كأن شأنيهما أوشال
ديوانه ١٨٩ ، العصر الجاهلي (١٨٤) .
٣ العصر الجاهلي (١٨٤) .
٤ المصدر نفسه .
٥ كذلـك .
٦ كذلك (ص ١٨٥) .

فهي من وزن السريع ، وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت :

أنعم صباحاً علقمَ بن عدي أثويتَ اليومَ أم ترحلْ

فإنه من وزن المديد[1] .

وتستحق هذه الأمور وأمثالها أن تكون موضع دراسة خاصة ، لما لها من أهمية في تكوين رأي علمي دقيق عن تطور العروض في الجاهلية . ولا يعقل في نظري أن يكون الشاعر الجاهلي قد كان بغفلة عن تلك الأمور التي عدّهـا الإسلاميون من مواطن الاضطراب والخروج عن القواعد . وإذا قسنا هذا الخروج في الوزن على مقاييس وزن الشعر عند الساميين ، نرى أنه لم يكن خروجاً ، لعدم تقيـد ذلك الشعر بالوزن في كل القطعة أو القصيدة ، وإنما كانوا يتقيدون بوزن البيت، فالقطعة أو القصيدة عندهم منسجمة ذات نغم ووزن وإن تكونت من بحر أو من جملة بحور ، وربما كان هذا شأن القصيدة عند الجاهليين كذلك . ثم انه في هذه الاضطرابات دلالة على أن في العروض الجاهلي ما فات أمره عن علم (الخليل)، وأن العروض الاسلامي لا يمثل كل عروض الشعر الجاهلي .

وللخليل كتاب في العروض ، اسمه (كتاب العروض) لا أعرف من أمره شيئاً . وهو أول كتاب ألف في هذا الباب ، وحمل هذا الاسم ، على ما أعلم ، وله كتاب اسمه (كتاب النغم) ، وكتاب آخر اسمه (كتاب الإيقاع)، وكتاب اسمه : (كتاب الشواهد) ، وكتاب اسمه (كتاب النقط والشكل) ، وكتاب باسم (كتاب فائت العين)[2] .

ولأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (٢١٥ هـ) ، (٢٢١ هـ) ، وهـو أحد أصحاب (سيبويه) ، كتاب في العروض ، اسمه : (كتاب العروض)[3] .

---

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٨٥) .

٢ الفهرست (٧١) .

٣ الفهرست (٨٤) .

وعرف (الخليل) بسعة علمه باللغة ، واليه ينسب وضع أول معجم في اللغة العربية ، هو كتاب (العين) . وقد نظمت حروفه على مـا يخرج من الحلق واللهوات[1] . وهو ترتيب يرى بعض المستشرقين احتمال أخذ (الخليل) لـه من ترتيب الأبجدية السنسكريتية وذلك عن طريق (خراسان) التي لها صلة وثيقة بثقافة الهند[2] . وقد نسب بعض العلماء كتاب العين الى غـيره ، نسبه الى (الليث بن نصر بن سيّـار) الخراساني ، ومنهم من زعم أن (الخليل) عمل قطعة من كتاب العـين من أوله الى حرف الغين وكمله (الليث) ولهـذا لا يشبه أوله آخره[3] .

وقد كان للهنود حب شديد للشعر ، وقد نظمت كتبهم الدينية شعراً ، وقد أدرك (البيروني) الواسع الاطلاع بأحوال الهند هذا الحب الشديد له ، فقال : « أكثر الهنود يهتّمون لمنظومهم ويحرصون على قراءته ، وإن لم يعرفـوا معناه ، ويفرقعون أصابعهم فرحاً به ، واستجادة له ، ولا يرغبون في المنثور وإن سهلت معرفته » . وقد كانوا يزنون شعرهم بميزان ، فـ « عملوا من التفعيلات قوالب لأبنية الشعر ، وأرقاماً للمتحرك منها والساكن ، يعبرون بها عن الموزون، فكذلك سمى الهند لما تركب من الخفيف والثقيل ، أسماء يشيرون بها الى الوزن المفروض[4]. فإذا كانت للهنود تفعيلات وزنوا بها شعرهم ، وهي أقدم عهـداً من تفعيلات (الخليـل) ، أفلا يجوز أن يكون (الخليـل) قد اقتبس تفعيلاته من تلك التفعيلات ، وبين الهنـد و (الابلة) التي حلت البصرة محلهـا في الاسلام اتصال جد قديم ، وقد كان بين سكانها عدد كبير جاءوا قبل الاسلام من الهند .

وحيث أن العلماء ينصون على أن (الخليل) ، هو موجد البحور المعروفة في العروض ، وهو وازنهـا ، وحيث أن أساس المعايير التي قيست بها الأبيات ، للوقوف على البحور هي (فعل) فيجب أن تكون هذه التسمية من ابتكاراتـه إذن . ولم أجـد أحداً وضح كيف اهتدى الخليل الى إيجاد هذا المعيار ، ولِمَ

---

١ الفهرست (٧٠ وما بعدها) .

٢ John A. Haywood, Arabic Lexicography, p. 8.

٣ القفطي ، انباه الرواة (٣٤٣/١) ، المزهر (٧٦/١) .

٤ البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة (٦٦) .

سمّاه بهذه التسمية ، إن من المستحسن في نظري الاهتمام بهذا الموضوع ، ودراسة موازين الشعر عند الهنود ، لمعرفة أسماء معايير الشعر عندهم ، للوقوف عليها ، فقد تكون لهذه التفعيلات صلة بتفعيلات شعر الهنود . ويلاحظ أن (ابن جني)، كنّى بالتفعيـــل عن تقطيع البيت الشعري ، لأنه إنما نزنه بأجزاء مادتها كلها (فعل)[1] .

---

١ تاج العروس (٦٥/٨) ، (فعل) .

obeikandl.com

الفصل الخمسون بعد المئة

البصرة والكوفة

لا بد لنا من التعرض لأثر البصرة والكوفة في عمل القواعد وفي رواية الشعر الجاهلي ، إن أردنا فهم هذا الشعر وكيف جمع ودوّن ، وكيف نحل المنحول منه ، فقد كان للمدينتين الأثر الأكبر في جمع هذا الشعر وفي تدوينه ونحله .

ولا بد من التحدث أولاً عن أثر العصبية القبلية في هاتين المدينتين . فقد بنيتا على أساس هذه العصبية . فلما بنيت الكوفة ، جعلت قسمين : قسم لليمن ، وقسم لنزار ، وكانت الأغلبية لليمن . ووزعت المحلات والسكك حسب القبائل[1] ، وكذلك كان الأمر بالبصرة حين شرع ببنائها ، فقد روعي في بنائها ، توزيع أحيائها على حسب النسب والقبائل[2] ، فكانت عصبية الحي للعشيرة أولاً ، وللقبيلة ثانياً ، ثم للمدينة ثالثاً . وهكذا غرست بذور العصبية في أرض المدينتين ، منذ شرع بوضع أساس التأسيس .

وتجسمت العصبية القبلية في العصبية للمدينة ، فتعصب عرب الكوفة ومواليها للكوفة ،وتعصب عرب البصرة ومواليها للبصرة ، « يفخر كل منهما بطبيعة الأرض وموقعها الجغرافي ، ويفخر كل بما كان على يده من فتوح البلدان ، ويفخر كل بمن نزل عندهم من صحابة رسول الله ، ويعير كل الآخر بما نبت عنده من

---

١ البلاذري ، فتوح البلدان (٢٧٤) ، (تمصير الكوفة) ، (طبعة رضوان محمد رضوان) .

٢ البلاذري (٣٤١) ، (تمصير البصرة) .

دعاة للضلالة ، وأخيراً كانوا يتفاخرون بالعلم . وظهرت هذه المفاخرات العلمية والمناظرات وتعصب كل مدينة لعلمائها ، ظهوراً بيناً في كثير من فروع العلم ، فالبصريون والكوفيون في المذاهب الدينية وعلم الكلام ، والبصريون والكوفيون في الأدب ؛ يقول أعشى همدان :

اكسع البصريّ إن لاقيته ... إنما يكسع من قلّ وذلّ
واجعل الكوفي في الخيل ولا ... تجعل البصريّ إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ... ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضبٍ عثنونه ... وفتى أبيض وضاحٍ رفل
جاءنا يخطر في سابغة ... فذبحناه ضحى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا ... وكفرتم نعمة الله الأجل »[1]

والكوفة بظاهر الحيرة . المدينة التي كان يقصدها الشعراء والتجار ، وفيهم تجار مكة وأشرافها ، مثل عبدالله بن جدعان ، وأبو سفيان . ومنها انتقل الخط الى مكة،على حد قول أهل الأخبار،ومنها انتقلت النسطورية الى العرب النساطرة ، وقد اشتهرت برجال برزوا فيها في العاوم الدينية النصرانية وبالعلوم اللسانية في لغة بني إرم ، وبكنائسها وبأديرتها التي كانت تعلم الأطفال مبادىء القراءة والكتابة ، وتهيىء الطلاب للتبحر في علوم الدين وفي العلوم الدنيوية المعروفة في ذلك الوقت، ولما أنشئت الكوفة انتقلت اليها بأبنيتها وأناسها،فقد هدمت منازلها ونقلت حجارتها الى الكوفة ، لتبنى بيوتها بها ، وانتقل أهلها الى الكوفة ، لأنها أخذت مكانها في الحكم ، وصارت مقر الولاة ، فشايع أهلها أهل الكوفة في السكن وفي الالتفاف حول قصر الوالي ، وانتقل ما كان قد تبقى من بقية علم من الحيرة الى الكوفة كذلك ، وتجسم في هذا الذي نسميه بعلم أهل ، أو بمدرسة الكوفة .

وقد كان في أهل الحيرة قوم من النبط ، أي من بني إرم أهل العراق ، وقوم من الفرس ، فتأثر لسان أهلها العرب بلسان النبط وبلسان العجم، كما تأثروا بحياة الحضارة والاستقرار ، فلان لسانهم وسهل منطقهم[2] ، وثقل نطقهم بالعربية،

---

١ فجر الاسلام (١٨١) ، البلدان ، لابن الفقيه (١٦٣ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣١) .

فلم يعد ينطق لسانهم نطق الأعراب من حيث الوضوح والإفصاح[1] . والذي عند علماء العربية ان في لسان الأعراب جفاء وشدة وغلظة ، دخلت عليه من خشونة البادية ومن طباعها ، فإذا خالط أهل البادية البلديين والأعاجم ، لان جفاؤهم وسهل لسانهم ، فيبتعد بذلك عن اللسان العربي القح ، ولهذا طلب علماء اللغة جُفاة الأعراب وأهل الطبائع المتوقحة ، وأخذوا عن القبائل التي بعدت عن أطراف الجزيرة ، وبقيت في سرة البادية أو فاضت حواليها ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف[2] .

أما البصرة ، فأخذت مكانة (الأبلة) المدينة الشهيرة المعروفة باسم (أبولم) Ubulum في الكتابات الأكادية ، وبـ Apologus (أبولوكس) في النصوص الكلاسيكية[3] ، وهي أقرب الى جزيرة العرب من الكوفة ، ولها اتصال ببلاد الخليج وبالهند ، فكانت سفن الهند وسيلان تأوي اليها ، وسكن قوم من الهند بها ، كما سكن بها قوم من الفرس ، خالطوا العرب ، ولعلّي لا أخطىء اذا قلت ان شأن الموالي بالبصرة كان أقوى منه بالكوفة ، لاتصال البصرة بالهند وببلاد فارس ، وبعد الكوفة عنهما ، وقد أثّر هذا الاتصال في لسان عرب البصرة ، مما أدى الى ظهور اللحن في الكلام ، وظهور أثر للغات أهل الهند في لسان أهل (الأبلة) ثم البصرة ، بسبب نزوح جاليات كبيرة من الهند الى (الأبلة) ، وذلك قبل الاسلام .

وأما (بغداد) التي ظهرت بعد المدينتين بأمد ، فقد أسسها (أبو جعفر المنصور) العباسي ، فإنها كانت مدينة مُلك ، ولم تكن مدينة علم ، وما فيها من العلم ، فمجلوب للخلفاء وأتباعهم ، « قال أبو حاتم : أهل بغداد حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يُوثق به في كلام العرب ، ولا من تُرتضى روايته ، فإن ادعى أحد منهم شيئاً رأيته مخلطاً صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة »[4] . وللأصمعي كلام يستهزىء به على علم أهل بغداد . قال « خرجت الى بغداد وما فيها أحد

---

١ الشعر والشعراء (١/١٥٠) ، (وكان « عدى بن زيد » يسكن بالحيرة ، ويدخل الارياف ، فثقل لسانه) .
٢ الرافعي (١/٣٤٣) .
٣ كتابي هذا ، الجزء الثاني (ص ٢٠) .
٤ المزهر (٢/٤١٤) .

يحسن شيئاً من العلم ، لقد جاءني قوم يسألوني عن الجعطرى ، فأخبرتهم أنه المكتل . قالوا : وما المكتل ؟ قلت : هو المعضل ! قالوا : وما المعضل ؟ وكان بقربي بقال ضخم ، فقلت : هو مثل ذلك البقال ! فرووا عني »[1] .

ونجد (المعري) يتهم رواة بغداد بعدم الفهم في الشعر ، ترى رأيه هذا فيهم في رسالة الغفران ، حيث يسأل (امرأ القيس) : « يا أبا هند ، ان رواة البغداديين ينشدون في قفا نبك ، هذه الأبيات بزيادة الواو في أولها ، أعني قولك :

وكأن ذرى رأس المجيمر غدوة
وكأن مكاكي الجواء
وكأن السباع فيه غرقى

فيقول : أبعد الله أولئك ! لقد أساءوا الروايةَ . وإذا فعلوا ذلك فأي فرق يقع بين النظم والنثر ؟ وانما ذلك شيء فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض ، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم ، وهيهات هيهات »[2] .

وأما المدن الأخرى ، فلم تبلغ في العلم شأو البصرة والكوفة ثم بغداد . فلم يعترف أحد من علماء العربية بوجود امام في العربية بدمشق أو يثرب أو مكة . وقد زعم (الأصمعي) ، انه أقام بالمدينة زماناً ما رأى بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة ، وكان بها (عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب) المعروف بابن دأب ، يضع الشعر وأحاديث السمر ، وكان شاعراً وعلمه بالأخبار أكثر . وكان بها (علي) الملقب بالجمل ، وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً .

« وأما مكة ، فكان بها رجل من الموالي ، يقال له : ابن قسطنطين ، شدا شيئاً من النحو ، ووضع كتاباً لا يساوي شيئاً »[3] .

وقد دفعت العصبية الى المدن ، أهل المدينتين على التحاسد والتفاخر والتنافر ، فادعى أهل كل مدينة انهم أرسخ علماً من أهل المدينة الثانية ، وانهم أكثر إحاطة

---

١ الرافعي (١/٤٠٤) .
٢ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢/٤١٣ وما بعدها) .

به من خصومهم ، ومن ثم صار أهل الكوفة يتمرأون بخصومهم ، فينتقصونهم ويلصقون بعلمهم وبعلمائهم التهم ، ويغمزون فيهم ، وصار أهل البصرة يكيدون لأهل الكوفة وينتقصونهم ، وكانوا « يرون ان أصحابهم لو ركبوا في نصاب رجل واحد ما بلغوا أن يعدلوا أضعف رجل في البصرة ، وقد رموهم في باب الكذب بقمص الحناجر ، والأخذ عن كل بر في الرواية وفاجر ، وجعلوهم من علماء الأسواق ، وتلامذة الأوراق »[1] . ووجدت هذه المنافسة أرضاً صالحة في قصور الخلفاء والوزراء والأكابر ببغداد ، حتى تحولت الى مؤامرات ومهاترات ، ابتعدت عن أدب العلم والعلماء ، حتى نزلت أحياناً الى درك مهاترات العامة : والى التزوير ، والاستعانة بالشهود الزور لتأييد عالم على عالم ، كالذي وقع في المسألة الزنبورية في الخلاف الذي كان بين سيبويه والكسائي .

وقد وقعت العصبية بين المدينتين حتى في قراءة القرآن ، ففضل أهل كل مدينة قارىء مدينتهم ، واعتبروا قراءة صاحبهم أحسن القراءات ، فأهل الكوفة يتعصبون لقراءة (عبدالله بن مسعود) ويرون أن مصحفه أصح المصاحف،وأهل البصرة يتعصبون لأبي موسى الأشعري ، ويأخذون بقراءته وبلحنه ، « وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب »[2] . والكوفيون يكتبون والضحى بالياء ، وأهل البصرة يكتبونها بالألف[3] .

وكانت أولية العربية بالبصرة ، « لأن أبا الأسود الدؤلي قد نزل بها وأخذ عنه جماعة هناك ، فكان كل أصحابه الذين شققوا العربية بعده بصريين ، ثم انتقل النحو الى الكوفة » . ثم استفاض نحو الكوفيين ، فنبغ فيه من سكنة الكوفة أبو جعفر الرؤاسي ، ومعاذ الهرّاء ، واضع التصريف ، والكسائي ، والفراء[4]. وذكر أنه لم يعلم أن أحداً من علماء البصريين أخذ شيئاً من النحو واللغة عن أحد من أهل الكوفة ، بينما أخذ الكوفيون عن أهل البصرة ، وما من أساتذتهم أحد إلا وقد تلمذ لبصري[5] . وقد قدم (ابن سلام) أهل البصرة على غيرهم في

---

١ الرافعي (١/٤٢٩) .
٢ الرافعي (٢/١٧) .
٣ المقتنع (٣٥) ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٣٥) .
٤ الرافعي (١/٤٣٠ وما بعدها) .
٥ الرافعي (١/٤٣٢ وما بعدها) .

العربية ، قال : « وكان لأهـل البصرة في العربية قدمة بالنحو وبلغات العرب والغريب عناية »[1] . و (ابن سلام) نفسه من علماء البصرة ، ومن المتعصبين لها على أهل الكوفة .

وروي أن (أبا الخطاب) المعروف بالأخفش ، وهـو من علماء البصرة ، كان أول من فسر الشعر تحت كل بيت ، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله ، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها[2] ، فلأهل البصرة قدمة على أهـل الكوفة في هذا المضمار .

ومن أهم ميزات أهل البصرة ، هو استعمالهم القياس في النحو ، فقد سبقوا به أهل الكوفة . أما أهل الكوفة ، فقد أخـذوا بالقياس في الفقه . فالقياس من أهم وسائل استنباط الأحكام الشرعية في فقه (أبـي حنيفـة) ، وهو من علماء الكوفة . كان علماء البصرة يطبقون القياس على النحو واللغة ، فما يسمعونه يقيسونه على ما جمعوه من قواعد استنبطوها من القرآن ومن الشعر ومن لغة العرب ، ثم يحكمون حكمهم عليه . أما أهل الكوفة ، فقد تحرروا منه ، وكانوا على ما قيل عنهم ، يأخذون بالشاذ والغريب ، ولو خالف القياس. ومن هنا اتهموا بالضعف، وبعدم التروي في البحث والاستقصاء ، وبالأخذ بالخبر من غير نقد ولا تمحيص. وهو اتهام ، قد يكون للعاطفة يد فيه . وقد صار هـذا القياس سبباً في إخضاع اللغة الى حكم قواعد ثابتة اتفق عليها ، استنبطت من الاستقراء ، ومن تطبيق حكم القياس عليها ، إلا انه صار في الوقت نفسه سبباً في إهمال اللهجات المخالفة التي سمّاها العلماء لغات شاذة أو غريبة ، وتركها لعـدم استحقاقها في نظرهم شرف التسجيل والتثبيت ، ولم يقدّروا آنذاك أهميتها بالنسبة لمن يريد تتبع تأريخ لغات العرب وتطورها منذ الجاهلية الى الاسلام .

وكان لأهل البصرة ميزة قربهم من أعراب نجـد والبوادي ، فكانوا يأخذون منهم القواعد واللغة ، أما أهل الكوفة ، فقد اعتمدوا عـلى أشباه الأعراب من المقيمين في أطراف البادية ، وهم ممن رفض أهل البصرة الأخـذ عنهم ، لأنهم

---

١ طبقات (٥) .

٢ المزهر (٢/٤٠٠) .

ممن خالط أهل الريف ، وأقاموا على أطراف الحواضر[1] . كما أن قياس أهل البصرة في النحو ، بني على قواعد بنوها هم وأقاموها ، وفق دراساتهم ، وأخذهم عن الأعراب من نثر وشعر ، ولهذا سخروا من علم أهل الكوفة ومن علم علمائهم في النحو ، وتتجلى سخريتهم في أشعار نظموها في أهل الكوفة وفي شيخهم(الكسائي). ترى استهزاء أهل البصرة بعلم وبقياس وبعلماء أهل الكوفة في مثل هذا الشعر :

كنا نقيس النحو فيما مضى ... على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه ... على لغى أشياخ قطربل
فكلهم يعمل في نقض ما ... به يصاب الحق لا يأتلي
إن الكسائي وأشياعه ... يرقون في النحو الى أسفل[2]

وتراه في شعر آخر ، هو :

وقل لمن يطلب علماً ألا ... ناد بأعلى شرف ناد
يا ضيعة النحو ، به مُغرب ... عنقاء أودت ذات إصعاد
أفسده قوم وأزروا به ... من بين أغتام وأوغاد
ذوي مراء وذوي لكنة ... لئام آباء وأجداد
لهم قياس أحدثوه همُ ... قياسُ سوء غير منقاد
فهم من النحو ، وإن عمروا ... أعمارَ عاد ، في أبي جاد[1]

والكسائي ، الذي طعن البصريون في علمه ، وقدموا صاحبهم (سيبويه) عليه، ناظر خصمه بحضرة (الرشيد) أو في مجلس البرامكة على رواية ، وغلبه بمؤامرة يقال إنها حكيت، للإيقاع به . وذلك في المسألة التي عرفت بـ (المسألة الزنبورية) في كتب العلماء[3] . وكان (الكسائي) قد أخذ النحو عن (أبي جعفر) الرؤاسي، وهو أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو ، وقيل إن كل ما في كتاب سيبويه : « وقال الكوفي كذا ... » إنما عنى به الرؤاسي هذا ، وكتابه يقال

---

١ نزهة الالباء (١٠٨) ، بغية ، للسيوطي (٣٣٦) ، ارشاد (٧/٢٩٠) ، يوهان فك (٦٢) .
٢ السيرافي ، أخبار النحويين (٢٣) ، يوهان فك (٦٢) .
٣ مجالس العلماء (٨ وما بعدها) ، السيوطي ، الاشباه والنظائر (٣/١٥) .

له الفيصل ، وكان له عم يقال له معاذ بن مسلم الهرّاء ، وهو نحوي مشهور ، وهو أول من وضع التصريف . وقد طعن رواة البصرة في عـــلم (الرؤاسي) . قال (أبو حاتم) : « كان بالكوفة نحوي يقال له : أبو جعفر الرؤاسي ، وهو مطروح العلم ليس بشيء ، وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ، ويزعمون أن كثيراً من علومهم وقراءتهم مأخوذ عنه »[1] .

وسبقت الكوفةُ البصرةَ في رواية الشعر ، وقد خاطب (علي بن أبي طالب) أهل الكوفة بقوله : « إذا تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقا عزين ، تضربون الأمثال ، وتناشدون الأشعار »[2] ، فالأمثال والشعر من أهم الموضوعات التي كان يتدارسها أهل الكوفة في أيام نشأتهـــا الأولى ، فهم على سنن الجاهليين في ضرب الأمثال ورواية الشعر . روي أن المفضل كان يروي للأسود بن يعفر ثلاثين ومائة قصيدة ، وكان أهل الكوفة يروون له أكثر من غيرهم ، ويتجوزون فيه أكثر من غيرهم[3] ، وقد انفردوا برواية شعر امرىء القيس ، خلا نتف أخذت مـــن أبي عمرو بن العلاء وبعض الرواة الأعراب[4] . وروي أن « الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منـــه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله ، وذلك بيّن في دواوينهم »[5] . وقد زعم أهل الكوفة ، أن علمهم بالشعر القديم ، إنما ورد اليهم من (الطنوج) ، وهي الكراريس التي أمر (النعمان بن المنذر) بتدوين أشعار العرب عليها ، وما مدح به هو وأهل بيته ، ثم أمر بدفنها في القصر الأبيض ، فلما كان (المختار ابن أبي عبيد) ، احتفرها ، « فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثمّ أهل الكوفـــة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[6] .

وكان حماد الراوية رأس أهل الكوفة في راوية الشعر وتدوينه ، فقد بلغ الغاية في العلم بشعر الجاهليين . يقابله فيه (خلف الأحمر) عند أهل البصرة ، وكان خلف أول من أحدث السماع في البصرة ، « وذلك انه جاء الى حماد الراوية فسمع

---

١ المزهر (٢/٤٠٠) .
٢ الرافعي (١/٣٨٢) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٣٤) .
٤ الرافعي (١/٤٣٢) .
٥ المزهر (٢/٤٠٧) .
٦ الخصائص ، لابن جنى (١/٣٩٢) .

منه الشعر ، ثم تابعه البصريون فأخذوا عن حماد بعد ذلك ، لانفراده بروايات من الشعر ، فإنه هو الذي أخذ عنه كل شعر امرىء القيس ، إلا شيئاً أخذوه عن أبي عمرو بن العلاء »[1] . وذكر ان (الخثعمي) ، و (أبا البلاد) كانا من رواة أهل الكوفة في الشعر قبل (حماد) ، وكانا في خلافة عبد الملك بن مروان[2] .

ونسب الى بعض العلماء اضافتهم البيت أو الأبيات على ألسنة الشعراء ، لتوجيه الحجة وتزيين الخبر ، والاستشهاد على قاعدة نحوية أو صرفية . وذكر ان بعضاً منهم قد اعترف بذلك ، وأقر الوضع[3] . وفي هذه الاعترافات المنسوبة اليهم ، ما هو باطل مصنوع ، صنعه عليهم حسادهم ومنافسوهم في الصنعة ، ورموه بين الناس على انه إقرار من أولئك العلماء بالوضع ، ولا يعقل صدور مثل هذه الاعترافات منهم ، لشهرتهم ولمكانتهم بين الناس ، ولخوفهم من السمعة السيئة ، واشتهارهم بالكذب والانتحال . وليس معنى هذا انهم لم يضعوا ولم يصنعوا شيئاً على الشعر الجاهلي ، انما أشك في صحة ما قيل على ألسنتهم من اعترافهم بالدس والوضع .

وذكر أن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأن أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والنابغة[4] . وقد كان من اللازم أن يتعصب أهل الكوفة لامرىء القيس ، فقد روى أكثر شعره حمّاد ورواة آخرون من أهل الكوفة . وقد كان (يونس بن حبيب) ، وهو من البصريين ومن المتعصبين لمدينته يقول : « يا عجباً للناس ، كيف يكتبون عن حمّاد وهو يصحّف ويكذب ويلحن ويكسر »[5] .

وقد اتهم الكوفيون بأنهم كانوا أكثر الناس وضعاً للأشعار التي يستشهد بها ، « لضعف مذاهبهم وتعلقهم على الشواذ واعتبارهم منها أصولاً يقاس عليها » . « وأول من سنّ لهم هذه الطريقة شيخهم الكسائي ، قال ابن درستويه : كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه ، فأفسد النحو بذلك » . و « قال الأندلسي في شرح المفصل : والكوفيون لو سمعوا

---

١ الرافعي (١/٤٣٢) .
٢ المصدر نفسه .
٣ الرافعي (١/٣٨٣ وما بعدها) .
٤ طبقات ، ابن سلام (١٦) .
٥ رسائل الجاحظ (١/٢٢٦) ، (كتاب البغال) .

بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه ، بخلاف البصريين »[1] .

واتهموا انهم كانوا يصنعون الشاهد من الشعر فيما لا يصيبون له شاهداً اذا كانت العرب على خلافهم ، ولذلك تجد في شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله ، بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر[2] ، وربما أخذوا من العرب المتحضرة ، « ومن أجل هذا وأمثاله كان البصريون يغتمزون على الكوفيين فيقولون : نحن نأخذ اللغة عن حَرَشَة الضباب وأكلة اليرابيع وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز والكوامخ[3] . ومن الأعراب الذين أخذ (الفرّاء) ، عالم الكوفة بعد الكسائي عنهم اللغة ، (أبي الجراح) ، و (أبي مروان) ، وأهل البصرة يمتنعون من الأخذ عن أمثال هؤلاء الأعراب ، ولا يرون في قولهم حجة . «قال أبو حاتم : اذا فسرتُ حروف القرآن المختلف فيها ، وحكيت عن العرب شيئاً، فإنما أحكيه عن الثقات منهم ، مثل أبي زيد ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم ، ولا التفت الى رواية الكسائي ، والأحمر والأموي ، والفراء ، ونحوهم »[4] .

واتهموا بأنهم كانوا يكثرون من الشعر ، يقولونه على ألسنة الشعراء ، قال (ابن سلام) في أثناء حديثه عن (الأسود بن يعفر) الشاعر الجاهلي : « وذكر بعض أصحابنا انه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومائة قصيدة ، ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه . وقد علمت ان أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروي ، ويتجوزون في ذلك أكثر من تجوزنا »[5] . وكان الأسود ، يكثر التنقل في العرب يجاورهم ، فيذم ويحمد . وله في ذلك أشعار . له قصيدة جيدة ، طويلة رائعة تعد من أول الشعر ، وهي :

نام الخليّ فما أحس رقادي والهمّ محتضر لديّ وسادي[6]

---

١ الرافعي (١/ ٣٧٠) .
٢ الرافعي (١/ ٣٧٠ وما بعدها) .
٣ الرافعي (١/ ٣٧١) .
٤ المزهر (٢/ ٤١٠) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٣٣ وما بعدها) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .

ونسمع قصصاً عن تغليط علماء البصرة والكوفة بعضهم البعض ، فنجد خلفاً الأحمر ، وهو شيخ البصرة في الشعر ، يذكر أنه أخذ على (المفضل) الضبي في يوم واحد تصحيف ثلاثة أبيات[1] . ونجد (الأصمعي) ، وهو من علماء البصرة كذلك ، يحمل على علم (الضبي) في الشعر ، ويرميه بعدم الفهم[2] . وتجد قصصاً روي عن علماء مشاهير مثل (ثعلب) وغيره ، يحمل فيه أولئك العلماء بعضهم على بعض ، وينتقص بعضهم على البعض الآخر[3] .

ونحن إذا أردنا الوقوف موقفاً علمياً ، فلا نستطيع إلا أن نقول: إننا لا نستطيع تبرئة أهل الكوفة من الصنعة والوضع ، كما لا نستطيع تبرئة أهل البصرة منها ، لأن في كل مدينة من المدينتين منافسات بين العلماء ، وتزاحم على الرئاسة، وحسد، يدفع الإنسان على الوضع والصنعة والأخذ بالخبر مهما كان شأنه لإفحام الخصوم ، والتغلب عليهم . فإذا كان (حمّاد) عالم الكوفة في الشعر من الوضاعين ، وكان يصحف ويكذب ويلحن ويكسر[4] ، فقد كان (خلف الأحمر) ، وهو عالم البصرة ، مثله في الصنعة والوضع والكذب . وكان (شَوكَر) وهو من أهل البصرة ، ومن رجال المائة الثانية ، ممن يضع الأخبار والأشعار ، وفيه يقول خلف الأحمر :

أحاديث ألفها شوكر وأخرى مؤلفة لابن دأب[5]

وقد نقح علماء الشعر من المدرستين والمدارس الأخرى ما أخذوه من الشعر الجاهلي ، وأجروا على ما لا يتفق منه والقواعد التي ثبتوها للنحو وللعروض تهذيباً وتشذيباً ، وعابوا منه أموراً مثل الإقواء والزحاف ، واختلال الوزن ، وما شاكل ذلك . وقد تحدث عن ذلك (المعري) في رسالة الغفران ، وهو شاعر ومن نقدة

---

١ المصون (١٩١ وما بعدها) .
٢ المصون (١٩٢ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢٠٢/١ وما بعدها) .
٤ رسائل الجاحظ (٢٢٦/١) ، (كتاب البغال) .
٥ لسان الميزان (١٥٨/٣) ، (٤٠٩/٤) ، رسائل الجاحظ (٢٢٥/١) ، (كتاب البغال) .

الشعر ، في أحاديثه التي وضعها على ألسنة الشعراء في الجنة أو في النـــار ، وفي أسئلته التي وجهها اليهم ، أو وجهها غيره اليهم . كما في استفساره من (امرىء القيس) عن رواة أهل بغداد في انشادهم أبياتاً من قصيدته : « قفا نبك بزيادة الواو في أولها ، فوضع الجواب على لسانه ، بقوله : « أبعد الله أولئك ! لقد أساءوا الرواية . واذا فعلوا ذلك فأي فرق يقع بين النظم والنثر ؟ وانما ذلك شيء فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض ، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم، وهيهات هيهات ! »[1] . ثم يقول : « لو شرحتُ لكَ ما قال النحويون في ذلك لعجبت »[2] .

ونرى (المعري) يوجه أسئلة الى (امرىء القيس) ، فيقول له : « أخبرني عن كلمتك (الصادية) ، و (الضادية) ، و (النونية) التي أولها :

لمن طلـــل أبصرتـــه فشجاني كخطّ زبور في عسيب يمان ؟

لقد جئت فيها بأشياء ينكرها السمعُ ، كقولك :

فإن أمسِ مكروباً فيا ربّ غارةٍ شهدتُ على أقبّ رخوِ اللّبانِ

وكذلك قولك في الكلمة الصادية :

على نقنق هيـــقٍ له ولعرسه بمنقطع الوعْساء بيضٌ رصيص

وقولك :

فأسقي به أختي ضعيفةَ إذ نأت وإذ بَعُدَ المزدارُ غير القريضِ

في أشباه لذلك ، هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة ؟ أم كنتم مطبوعين على إتيان مغامض الكلام وأنتم عالمون عما يقع فيه ؟ كما أنه لا ريب أن زهيراً كان يعرف مكان الزحاف في قوله :

---

١ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعده) .

٢ رسالة الغفران (٣١٤) .

يطلب شأوَ امرأين قدّما حسباً نالا الملوك ، وبذّا هذه السُّوقا

فإن الغزائر تحسُّ بهذه المواضع »[1] .

ثم يجيب (المعري) على لسان (امرىء القيس) بقوله : « أدركنا الأولين من العرب لا يحفلون بمجيء ذلك ، ولا أدري ما شجن عنه « فأما أنا وطبقتي فكنا نمرّ في البيت حتى نأتي إلى آخره ، فإذا فنى وقارب ، تبين أمره للسامع »[2].

ثم نراه يسأل (امرىء القيس) عن قوله :

ألا ربّ يومٍ لك منهن صالحٍ ولا سيما يوم بـدارة جلجل

أتنشده : لك منهن صالحٍ ؟ أم تنشده على الرواية الأخرى . فيجيب عـلى لسانه بقوله : « أما أنا فما قلتُ في الجاهلية إلا يزحاف :

لك منهن صالحٍ

وأما المعلمون في الإسلام ، فغيروه على حسب ما يريدون »[3] .

وقد سأله (المعري) عن الشعر المسمط المنسوب اليه ، فأنكر على لسانه أن يكون قد سمع به قط ، قائلاً « وانه لقرى لم أسلكه ، وان الكـذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الاسلام ، ولقد ظلمني وأساء إلي »[4] . ولما سأله عن (الإقواء) في شعره ، قائلاً له : « وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الإقواء عليك » ، أجاب على لسانه : « لا نكرة عندنا في الإقواء »[5].

وقد كان من أصعب الأشياء على بعض رجال المدرستين ألا يجيبوا على أسئلة توجه اليهم إجابة تفيد بوجود علم لهم عنها ، ولهذا كانوا يعمدون الى الصنعـة والافتعال . نجد ذلك عند أهل الأخبار ، وعـلى رأسهم (ابن الكلبي) ، كـما نجد ذلك عند رواة الشعر مثل حماد الراوية ، وخلف الأحمر ، كما نجده عند علماء

---

١ رسالة الغفران (٣١٥ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٣١٧) .
٣ رسالة الغفران (٣١٧ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (٣١٩) .
٥ رسالة الغفران (٣٢٠) .

اللغة . وقد أشرت في صفحات هذا الكتاب الى أمثلة عديدة من هذا القبيل ، اضطر فيها المجيب على افتعال جواب وصنعه ، ليظهر نفسه بمظهر العارف بكل شيء .

ويجب الانتباه الى ان علماء البصرة أو الكوفة أو غيرهم ، مهما سموا في العلم وارتفعوا ، فإنهم بشر ، لم يرزقوا العصمة ، وهم في التأثر والانفعال مثل أي كائن حي ، فقد يتأثر عالم من عالم متقدم عليه ، فيحاول الغمز في علمه أو الطعن به . قال علي بن العباس : « رآني البحتريُّ ومعي دفتر ، فقال : ما هذا ؟ فقلتُ شعر الشنفرى . قال : والى أين تمضي ؟ قلت أقرأه على أبي العباس أحمد بن يحيى . قال : رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام ، فلم أر له علماً بالشعر مرضياً ، ولا نقداً له ، ورأيته ينشد أبياتاً صالحة ويعيدها ، إلا انها لا تستوجب الترديد والإعجاب فيها »[1] . وروى (أحمد بن يحيى ثعلب) ، خبر مناظرات وقعت بين (أبي عمرو الشيباني) ، والأصمعي ، ترينا مبلغ التنافس الذي كان بين العالمين ، واستهتار الأصمعي بخصمه ، استهتاراً تجاوز الحد[2] .

وقد حاول (السيوطي) ايجاد عذر لغمز العلماء بعضهم في بعض ، بأن قال : « فإن قلت : فإنا نجد علماء هذا الشأن من البلدين ، والمتحلّين به من المصرين كثيراً ما يهجن بعضهم بعضاً ، فلا يترك له في ذلك سماءً ولا أرضاً ؟ قيل : هذا أدل دليل على كرم هذا الأمر ونزاهة هذا العلم ، ألا ترى انه إذا سبق الى أحدهم ظنة ، أو توجهت نحوه شبهة سُبّ بها ، وبرىء الى الله منه لمكانها ، ولعل أكثر ما يُرمى بسقطة في رواية ، أو غمزة في حكاية ، محمي جانب الصدق فيها ، بريء عند الله من تبعتها ؛ لكن أخذت عنه إما لاعتناق شبهة عرضت له ، أو لمن أخذ عنه ، وإما لأن ثالبه ومتعيبه مقصر عن مغزاه ، مغموض الطرف دون مداه ، وقد عرض الشبهة للفريقين ، ويعترض على كلا الطريقين» ، ثم أخذ يعتذر عن ذلك ، بأنه وقع في سبيل العلم والحق ، ثم قال : « وإذا كانت هذه المناقضات والمنافسات موجودة بين السلف القديم ... جاز مثل ذلك أيضاً في علم العرب »[3] .

---

١ المصون (٤) .
٢ المصون (١٩٣ وما بعد) .
٣ المزهر (٤١٦/٢ وما بعدها) .

ومن هنا يجب الاحتراس كثيراً حين قراءتنا الطعون التي ترد على ألسنة العلماء يطعن فيها بعضهم ببعض ، فأكثر هذا المروي عنهم ، صادر عن طبيعة بشرية ، تظهر بين الزعماء نتيجة التنافس الذي يقع بينهم على الزعامة والصدارة ، ولو في زعامة العلم . ولا تقتصر هذه الطعون والمغامز على طعن علماء البصرة بعلماء أهـل الكوفة ، أو العكس ، بل نجدها بين علماء المدينة الواحدة أيضاً ، لأن الموضوع موضوع زعامة ورئاسة ، والتحاسد بين المتحاسدين لا ينحصر بقوم دون قـوم ، وقد يقع بين الاخوة الاشقاء .